

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190566

UNIVERSAL
LIBRARY

وزارة المعارف العمومية

كتاب الدين والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أفاضى المصنف
أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المأوردى
رحمه الله تعالى

فوزت وزارة المعارف عمومية صنع هذا الكتاب على منة
واستعملته المدارس الأميرية

الطبعة السادسة عشرة
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥ م

محتويات الكتاب

صفحة	
١	خطبة الكتاب
٢	باب فضل العقل وذم الهوى
١٣	فصل — وأما الهوى فهو عن الخير صادق الخ
١٩	باب أدب العلم
٣٢	فصل — واعلم أن للعلم أوائلا تؤدي الى أواخرها
٥١	فصل — وسأذكر طرفا مما يتدب به المتعلم ويكون عليه العالم
٥٥	فصل — فأما ما ينبغي أن يكون عليه العلماء من الأخلاق الخ
٦٨	باب أدب الدين
١٠٩	باب أدب الدنيا
١٢٦	فصل — وأما ما يصلح به حال الانسان فيها
١٣٩	فصل — وأما المؤاخاة بالموثقة الخ
١٦٠	فصل — وأما البر الخ
٢٠٤	باب أدب النفس — وهو الخامس من الكتاب ، وفيه ستة فصول
٢٠٩	الفصل الأول — في مجانبة الكبر والاعجاب
٢١٦	الفصل الثاني — في حسن الخلق
٢٢٠	الفصل الثالث — في الحياء
٢٢٤	الفصل الرابع — في الحلم والغضب
٢٣٣	الفصل الخامس — في الصدق والكذب
٢٤١	الفصل السادس — في الحسد والمنافسة

صفحة

فصل — وأما آداب المواضعة والاصطلاح ، وفيه	
ثمانية فصول.....	٢٤٧
الفصل الأول — في الكلام والصمت	٢٤٧
الفصل الثاني — في الصبر والجزع	٢٥٩
الفصل الثالث — في المشورة.....	٢٧٢
الفصل الرابع — في كتمان السر.....	٢٧٩
الفصل الخامس — في المزاح والضحك	٢٨٢
الفصل السادس — في الطيرة والفأل	٢٨٥
الفصل السابع — في المروءة	٢٨٨
الفصل الثامن — في آداب مشورة	٣١٩

ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي .
ولد بالبصرة ونشأ بها ثم استوطن بغداد وفوض اليه القضاء في بلدان
كثيرة . وكان جليل القدر متقدما عند السلطان دينا تقياً كثير المجاهدة
لنفسه دائماً في مراقبتها . وهو من وجوه فقهاء الشافعية و كبارهم وكان
حافظاً للمذهب وله فيه كتاب الحاوي الذي لم يطأه أحد إلا شهد له
بالتبحر والمعرفة الناعة بالمذهب . ومن مصنفاته كتاب أدب الدنيا
والدين والأحكام السلطانية وقانون الوزارة وسياسة الملك . درس
ببغداد والبصرة سنين كثيرة وانتفع الناس به وبمصنفاته في حياته
وبعد مماته . وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ
(٢٦ مايو سنة ١٠٥٨ م) ولد من العمر ٨٦ سنة ودفن بمقبرة
باب حرب ببغداد رحمه الله تعالى ورضى عنه .

والمأوردي نسبة الى بيع المأورد هكذا ذل السمعاني هـ مقتطفاً
من وفيات الأعيان وغيره مع التصرف في العبارة ما

أحمد إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب
الماوردي رحمه الله تعالى :

الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل
والأنبياء وعلى آله وأصحابه الاتقياء (أما بعد) فإن شرف المطلوب
بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية
به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته . وأعظم الأمور خطرا وقدرا
وأعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة
والأولى لأنه باسئامة الدين نصح العباد وبصلاح الدنيا تتم السعادة .
وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة الى آدابهما وتفصيل ما أجمل من
أحوالهما على أعدل الأمرين من إيجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق
الفهنا ونزيف الأدباء فلا يدورن بهم ولا يدورن في وهم . مستشهدا من
كتاب الله جل اسمه بما يفنصيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه
بما يضاهيه ثم منبعا ذلك بأمنال الحكماء وآداب البلاء وأقوال الشعراء
لأن الفلوب نزاح الى النسون المخلقة ونسب من الفن الواحد وقد قال
علي بن أبي طالب رضى الله عنه : إن الفلوب تمل كما تمل الأبدان فأهدوا
اليها طرائف الحكمة فكأن هذا الأسلوب يحب السقل في المطلوب من
مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا في داره من
مكان الى مكان وينشد قول أبي العتاهية رحمه الله :

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التقل من حال الى حال
وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الأول)
في فضل العقل وذم الهوى (الباب الثاني) في أدب العلم (الباب الثالث)

في أدب الدين (الباب الرابع) في أدب الدنيا (الباب الخامس) في أدب النفس . وأنا أستمذ من الله تعالى حين دعوته وأستودعه حفظه وهيبته بحوله ومشيتنه وهو حسي من معين وحفيظ

باب فضل العقل وذم الهوى

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا . وأس النضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للآدمي أصلا وللدنيا عمادا فأوجب التكليف بكامله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف همهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما بعدهم بخلاف به قسامين : قسما وجب العقل فوكده الشرع وفما جازى العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لما عمادا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما اكتسب المرء عقله بغير ما صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل شيء دعة ودعة عقل المرء عقله فيقدر عقله تكون عبادته إربه أما سمعتم قول الدجارج : اوتينا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خاتمه . وقال الحسن البصري رحمه الله : ما استودع الله أحدا عقلا إلا استأنذه به يومنا . وقال بعض الحكماء : العقل أفضل مرجو والجهل أنكى عدو . وقال بعض الأدباء : ددق كل امرئ عقله وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء : خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم بن حسان :

يزين التقي في الناس صحة عقله وإن كان محظورا عليه مكاسبه
يشين التقي في الناس فلة عقله وإن كرمته أعراقه ومناسبه
يعيش التقي في الناس بالعقل إنه على العقل يحرق دله وتجاربه

وأفضل قسم الله للرب عقله . فليس من الأشياء شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للرب عقله . فقد كانت أخلاقه ومآربه
واعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الأمور وينفصل بين الحسنات
والسيئات . وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب

فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به الكيف لا يخارزه
إلى زياده ولا ينصر عنه إلى نقصان وبه يميز الإنسان عن سائر الحيوان
فإذا تم في الإنسان سمي عاقلاً ونخرج به إلى حد الكمال كما قال صالح
ابن عبد القدوس :

إذا تم عمل المرء تمت أموره وممت آمانيه ونم بنأؤه
وروى الصالح في قوله تعالى : ليندر من كان حياً أي من كان عاقلاً
واختلاف الناس فيه وفي صنته على مدارب شتى فقال فريم جوهر
لطيف بفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا
في محله فقالت طائفة منهم : محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس وقالت
طائفة أخرى منهم : محله القلب لأن القلب معدن الحياة وماده الحواس
وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف ناسد من وجهين أحدهما أن
الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها
ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن
وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل
جوهرًا لحاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير
عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا . وقال آخرون : العقل هو
لمدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وإن كان
أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الإدراك
من صفات الحى والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن
يكون متلذذا أو ألكاً أو مشتهياً . وقال آخرون من المتكلمين : العقل

هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح : إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس . فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة باللس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرججه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم . وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الصدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل . وسمى بذلك تسيبها بعقل الناقه لأن العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العفال الناقه من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد القيس : اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل » وكل من نفى أن يكون العقل جوهرًا أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » فدلّت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب . وفي قوله تعالى : يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتنون بها فهذه

جملة القول في العقل الغريزي . وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة وليس لهذا حد لأنه ينو أن يستعمل وبنقص إن أهمل زمامه يكون بأحد وجهين إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صائد من شهوة كالذي يحصل لذوى الأسنان من الحكمة وصحة الرؤية بكثرة التجارب وممارسة الأمور ولذلك حمدت العرب آراء السيوخ حتى قال بعضهم : المشايخ أشبار الوفار وما يع الأخبار لا يعلم من هم منهم ولا يستطع ذوهم إن رأوا في قبيل من ذكرك وإن أنت مروءة على حبل أم ذكرك . وقيل : عليكم بآراء السيوخ فانهم إن تداروا ذكركم الذبايع فقد دبرت على عيونهم وجود العرب وتمت لأسمائهم آثار الغير . وقيل في منور الحكم : من طال عمره نقص قوة بديه وادب فؤده عقله . وقيل فيه : لا ندع الألبام جاهلا إلا آذنه . وقال بعض الحكماء : كفى بالإنبار دديا وبثقاب الألبام عذنا . وقال بعض الحكماء : الدجاجة مرآة العقل والعزة ثمرة الجهل . وقال بعض الحكماء : كفى شبرا عمسا بقى ما مضى وكفى عبرا لأولى الأبواب ما جربوا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر أن العقل زين لأهله وأن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر :

إذا طال عمر المرء في غير آفة أدادت له الألبام في كرتها عقلا وأما الوجه الثاني فقد يكون شرط الذكاء وحسن النطية وذلك جودة الخدس في زمان غير مزمل فندس . فإذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأي حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر إليه عامر ابن الطفيل وعلمة بن علاثة : عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا

قوله إذعانا للحق فصارا الى أبي جهل لحدائثة سنه وحدة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد :

يا هرم ابن الأكرمين منصبا إنك قد أوتيت حكما .. مجبا

وقد قالت العرب : عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر :

رأيت العقل لم يكن انتهابا ولم يقسم على عدد السنين
ولو أن السنين تقاسمته حوى الآباء أنصبة السنين

وحكى الأصمعي رحمه الله قال : قالت لعلام حدث من أولاد العرب كان يجادثنى فامتعنى بنصاحه وملاحه : أيسرك أن يكون لك ، ثمة ألف درهم وأنت أحق قال لا والله قال : فمات ولم قال : أخاف أن ينزى على حقى جناية تذهب بمائى ويبقى على حقى فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبطه بجودة قريحته ما اعلمه يدق على من هو أكبر منه سنا وأكبر نجربة ، وأحسن من هذا الذكاء والعظنة ما حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر رضى الله عنه : مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين : لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى أن سليمان ابن عبد الملك أمر الفرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لا يقطع شيئا فقال الفرزدق : بل أضربهم بسيف أبي رغوان مجاشع يعنى سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومى منهم فنيا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق :

أعجب الناس أن أضحك سيدهم خليفة الله يستسقى به المطر

لم ينب سيفي من رعب ولا دهش عن الأسير ولكن أضر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتهما جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر
ثم أغمد سيفه وهو يقول :

ما إن يعاب سيد اذا صبا ولا يعاب صارم اذا نبا

* ولا يعاب شاعر اذا كبا *

ثم جلس وهو يقول كأنني بآبن المراغة قد هجاني فقال :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قام فانصرف وحضر جريروخير بالخبر ولم ينشد له الشعر فأثشا يقول:
بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ثم قال يا أمير المؤمنين كأنني بآبن القين وقد أجباني فقال :

ولا نقتل الأسرى ولكن نمنعهم اذا أنقل الأعناق حمل المغارم
فاستحسن سامان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر
جرير ولم يخبر بخدسه فقال الفرزدق :

كذلك سيوف الهند تنبو ظلماتها ونقطع أحيانا مناط التمام
ولن نقتل الأسرى ولكن نمنعهم اذا أنقل الأعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم أبا عن كليب أو أخا مثل دارم
فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدي أتى بأسرى من
الروم فأمر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له : اضرب عنق
هذا العليج فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فغير به
قومه الى اليوم فقال : انما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول
الشاعر حاضرا فقال :

جزعت من الرومي وهو مقيد فكيف ولولا قيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يفرق
فنج شبيبا عن قراع كتيبة وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق إن صح من جودة التريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين . ولمثل ذلك قالت الحكماء : آية العقل سرعة الفهم وغايته إصابة الوهم وليس لمن منح جودة التريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وإن أعضل كما قيل لعلى رضى الله عنه : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال : كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله ابن عباس : أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد فقال : أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان وهذان الجوابان جوابا إسكات تضمننا دليلى إذعان ومحجتي قهر . ومن غير هذا الفن وإن كان مسكنا ما حكي عن إبليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال : ألسنت ننول إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك قال نعم قال : فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه إن يقدر لك السلامة تسلم فقال له : يا ملعون إن لله أن يخبر عباده وليس للعبد أن يخبر ربه . ومثل هذا الجواب لا يسنغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدهم بوحيه وأيدهم بنصره وإنما يسنغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعول على بديهته . وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال : قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه كم بين السماء والأرض قال : دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال : مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله إما اختبارا وإما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما أسكت . فأما اذا اجتمع هذان الوجهان فى العقل المكتسب وهو ما ينيه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة التريحة بحسن البديهة مع ما ينيه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل بالاستحقاق . روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أئني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال : كيف عقله قالوا يا رسول الله : إن من عبادته إن من خلقه إن من فضله إن من أدبه

فقال كيف عقله قالوا يارسول الله : نثني عليه بالعبادة وأصناف الخير
وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأحق العابد
يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف
على قدر عقولهم . واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد
هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم : لا يكون فضيلة لأن الفضائل هيأت
متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين رذيلتين فما
جاوز المتوسط خرج عن حد الفضيلة . وقد قالت الحكماء للاسكندر :
أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور فان الزيادة عيب والتقصان
عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
قال : خير الأمور أوسطها . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : خير
الأمور النخط الأوسط اليه يرجع العالى وبه يلحق التالى . وقال الشاعر :

لا تذهبن في الأمور فرطاً لا تسألن إن سألت شططا

وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا : لأن زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك
مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى
الأسعري أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد : يا أمير المؤمنين أعن
موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على
الناس فضل عقلك . ولأجل هذا المحكى عن عمر ما قيل قديما إفراط العقل
مضر بالجسد وقال بعض الحكماء : كفالك من عقلك ما ذلك على سبيل
رشدك . وقال بعض البلغاء : قليل يكفى خير من كثير يطفى . وقال
آخرون وهو أصح القولين : زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب غير محدود
وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة تقصا مذموما لأن ما جاوز الحد
لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور
والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذر وليس كذلك حال

العقل المكتسب لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأموال وحسن إصاغة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا تنقص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أفضل الناس أعدل الناس . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : العقل حيث كان ألوف مألوف وقد قيل في تأويل قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته » أى بحسب عقله . وقال القاسم بن محمد : كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كانت حنته في أغلب خصال الخير عليه . وقيل في منشور الحكم : كل شئ اذا أكثر رخص الا العقل فانه اذا أكثر غلا . وقال بعض البلغاء : إن العاقل من عقله في إرشاد ومن رايه في إمداد فقولوه سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في إغواء ومن هواه في إغراء فقولوه سقيم وفعله ذميم . وأنشدني ابن لنكك لأبيه :

من لم يكن أكثره عقله أهلكه أكثر ما فيه

فأما الندماء والمكر فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقلا الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا . وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر ابن الخطاب فقال : كان والله أفضل من أن يخدع وأعدل من أن يخدع وقال عمر : لست بالخب ولا يخدعنى الخب . واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد وأشباهه من الدهاة هل يسمى الدهاية منهم عاقلا أم لا فقال بعضهم : أسميه عاقلا لوجود العقل فيه وقال آخرون : لا أسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينيا لأن الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقلا وإنما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل : العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعى رضى الله عنه فيمن أوصى بثلاث ماله لأعدل الناس : أنه يكون مصروفا في الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل . وروى لقمان بن أبى عامر عن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا عويمر ازدد عقلا

تردد من ربك قربا قلت بأبي أنت وأمي ومن لي بالعقل قال : اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الأعمال تردد في الدنيا عقلا وتردد من ربك قربا وبه عزا . وأنشدني بعض أهل الأدب هذه الأبيات وذكر أنها لعل بن أبي طالب رضي الله عنه

إن المكارم أخلاق مطهرة فالعقل أولها والدين ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادسها

والبر سابعها والفسر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشيها

والنفس نالت أن لا أصدقها واست أرشد إلا حين أعصمها

والعين تعلم من عيني محدثها أن كان من حزبها أو من أعادها

عينك قد دلت عيني منك على أشياء لولاها ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا يمتك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة منه

وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب

الفضائل موفور الرذائل كالأنوك الذي لا تجد له فضله والأحمق الذي

قلما يخلو من رذيله : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

الأحمق كالنخار لا يرفع ولا يشعب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال : الأحمق أبغض خلق الله إليه إذ حرمه أعز الأشياء عليه .

وقال بعض الحكماء : الحاجة الى العقل أقبح من الحاجة الى المال .

وقال بعض البلاء : دولة الجاهل عبرة العاقل . وقال أنوشروان ابن رجمهر :

أى الأشياء خير للمرء قال : عقل يعيش به قال : فان لم يكن قال : فاخوان

يسترون عيبه قال : فان لم يكن قال : فما يتجيب به الى الناس قال : فان

لم يكن قال : فمى صامت قال : فان لم يكن قال : فموت جارف . وقال

سابور بن أردشير : العقل نوعان : أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا

يصلح واحد منهما الا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

رأيت العقل نوعين فمسموع ومطبوع

ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحق بما فيه من الرذائل فقال العاقل : إذا والى بذل في المودة نصره وإذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعقله إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر وإن أساء إليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والأحق ضالّ مضلّ إن أونس تكبر وإن أوحش تكدر وإن استنطق تخلف وإن ترك تكلف مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ومحاورته تنفر وموالاته تضر ومقاربتة عمى ومقارنته شقا . وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والأحق يسيء إلى غيره ويظن أنه قد أحسن إليه فيطالبه بالشكر ويحسن إليه فيظن أنه قد أساء إليه فيطالبه بالوتر فساوى الأحق لا تنقضى عيوبه لا تنتهى ولا يقف النظر منها إلى غاية إلا لوحث ما وراءها بما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر . وقال الأحنف بن قيس : من كل شيء يحفظ الأحق إلا من نفسه وقال بعض البلغاء : إن الدنيا ربما أقبات على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فإن أنتك منها سئمة مع جهل أو فائتك منها بُيئة مع عقل فلا يملكك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الحكات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحنّ إلى النقلة ودولة العاقل كالنسيب الذي يحنّ إلى الوصله فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل فإن الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه إلى رتبته ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه

ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا . واعلم أنه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثالا في الغابرين وحديثا في الآخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عطاء عن جابر قال : كان في بني إسرائيل رجل له حمار فقتل يارب : لو كان لك حمار لعلفتة مع حمارى فهم به نبي من بني اسرائيل فأوحى الله اليه انما أثيب كل إنسان على قدر عقله . راستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده قتال : لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمتي فبلغ ذلك معاوية فقال : قبحه الله أنزونه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامري (وكان من النوكي) سائر ايمانهم فأفاد كلبا بكناب فقتل فيه الشاعر :

شهدت بأن الله حق لفأوه وأن ترييع العامري رقيق
أقاد لنا كلبا بكناب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تصبح
وليس لمعاذ الجهل غايه ولا لمضار الحق نهايه قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به الا الحمافة أعيت من يداويها
(فصل) وأما الهوى فهو عن الخير صائد وللعقل مضاد لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا «أفرأيت من اتخذ إلهه هوا» وقال عكرمة في قوله تعالى : «ولكنكم فتنتم أنفسكم» يعنى بالشهوات «وتربصتم» يعنى بالتسوية «وارتبتهم» يعنى فى أمر الله «وغرتكم الأمانى» يعنى بالتسوية «حتى جاء أمر الله» يعنى الموت «وغرتكم بالله الغرور» يعنى الشيطان . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاءة تنزع الى شر غاية إن هذا الحق

ثقل مرى وإن الباطل خفيف وبى وترك الخطيئة خير من معالجة
التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال
على بن أبى طالب رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول
الأمل فان اتباع الهوى يصدّ عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة .
أوقال الشعبي : انما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه . وقال أعرابي :
الهوى هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منشور الحكم : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال بعض
الحكماء : العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . وقال بعض البلغاء :
أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه . وقال
هشام بن عبد الملك بن مروان :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى الى كل ما فيه عليك قتال
قال ابن المعتز رحمه الله : لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت
وقال الشاعر :

إذا ما رأيت المرء يتنادى الهوى فقد ثكله عند ذاك ثواكه
وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه وقد وجدت فيه منالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى من الناس الا حازم الراى كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه
رقبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفاته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع
حيلته لأن سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين
يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعنى بأحد الوجهين قوى
سلطانه وبالأخر خفاء مكره فأما الوجه الأول فهو أن يقوى سلطان
الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولى عليه غلبة الهوى والشهوات فيكفل
العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبورها فى العقل المقهور

بها وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم وأنهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير :

كل يرى أن الشباب له في كل مبلغ لذة عذر
ولذلك قال بعض الحكماء : الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال
بعض الأدباء : الهوى عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء :
يا عاقلا أردى الهوى عقله مالك قدسدت عليك الأمور
أتجعل العقل أسير الهوى وإنما العقل عليه أمير
وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفور فيسرعها ما في عواقب
الهوى من شدة الضرر وقبح الأثر وكثرة الأجرام وتراكم الآثام . فقد
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حنت الجنة بالمكاره وحفت النار
بالشهوات » أخبر أن الطريق إلى الجنة باحتمال المكاره والطريق إلى
النار باتباع الشهوات . قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : إياكم
وتحكيم الشهوات على أنفسكم فإن عاجلها ذميم وأجلها وخيم فإن لم ترها
تتقاد بالتحذير والارهاب فسوفها بالأميل والارغاب فإن الرغبة والرغبة
إذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانفادت . وقد قال ابن السكيت : كن
لهواك مستوقا ولعقلك مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على
مجانبته فإن ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر
على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر :

صبرت على الأيام حتى تولت وأزهدت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تأقت والاتسلت
فاذا انفادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث
الهوى أن يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الأوفى
في ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه

ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى» . وقال الحسن البصرى :
أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء : أعز العز الامة تنساع
من تملك الهوى . وقال بعض البلغاء : خير الناس من أخرج الشهوة من
قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه . وقال بعض الأدباء : من أمات شهوته
فقد أحيأ مروءته . وقال بعض العلماء : ركب الله الملائكة من عقل
بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما
فن غاب عنه على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على
عقله فهو شر من البهائم . وتيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحرهم
بالظفر فى مجاهدته قال : من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس فى مجاهدته
من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء :

قد يدرنك الحازم ذو الرأى المتى بطاعة الحزم وعصيان الهوى
وأما الوجه الثانى فهو أن يخفى الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على
العقل ينبؤز التبيح حسنا والضرر نفعنا وهذا يدعو إليه أحد شيئين
إما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشئ ، فيخفى عنها التبيح لحسن ظنها
وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : حبك
الشئ يعمى ويصم أى يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة . وقال
على رضى الله عنه : الهوى عمى . قال الشاعر :

* حسن فى كل عين من تود *

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه :
ولست براء عيب ذى الود كله ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كذيلة ولكن عين السخط تبدى المساويا
وأما السبب الثانى فهو استئصال المكر فى تمييز ما اشتبه وطلب الراحة
فى اتباع ما يسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمره وأحمد حاله اغترارا
بأن الأسهل محمود والأعسر مذموم فلن يعدم أن يتورط بمخدع الهوى

وزينة المكرفى كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب :
الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب : الهوى
أمتع والرأى أنفع وقيل فى المثل : العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح .
وقال الشاعر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتتهت ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الإثم والعار بالذى دعتة اليه من حلاوة عاجل
وحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان
العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق
من دواعى العقل . وقال بعض الحكماء : نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر
العقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبت وتحسين
ما اشتتهت ليصح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل مجملا
وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك
أسهلها عليه فان النفس عن الحق أنقر وللهو آثر . وقد قال العباس
ابن عبد المطلب : إذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما
عليك وعلة هذا القول هو أن الثقل تبطئ النفس عن التسرع اليه
فيصح مع الإبطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم .
وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : من تفكر أبصر والمحجوب السهل
تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه
ويفوت استدراكه ليقضى فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل
والاستدراك بعد القوت . وقال بعض الحكماء : ما كان عنك معرضا
فلا تكن له متعرضا . وقال الشاعر :

أليس طلاب ما قد فات جهلا وذكر المرء ما لا يستطيع
ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال
الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فاترك الهوى تسلم وأعرض عن

الدنيا تغم ولا يعزتك هواك بطيب الملاحى ولا تفتنك دنياك بحسن
العوارى فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترجع ويبقى عليك ما تركته
من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال على بن عبد الله الجعفرى :
سمعتنى أمراً فى الطواف وأنا أنشد :

اهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لى بهوى اللذات والدين
فقلت : هما ضرطان فذر أيهما شئت وخذ الأخرى . فأما فرق ما بين
الهوى والشهوة مع اجتماعهما فى العلة والمعلول واتفاقهما فى الدلالة
والمدلول فهو أن الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة
ببيل المسئذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص والهوى
أصل هو أعم . ونحن نسأل الله أن يكفيننا دواعى الهوى ويصرف عنا
سبل الردى ويعمل التوفيق لنا قائداً والعقل لنا مرشداً . فقد روى
أن الله تعالى أوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اعطت
فعض الناس والا فاستحي منى . وقال محمد بن كئاسة :

ما من روى أدبا ولم يعمل به ويكف عن زيف الهوى بأديب
حتى يكون بما تعلم عاملاً من صالح فيكون غير معيب
ولقما تغنى إصابة قائل أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر

يأيهما الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانها عن غيرها فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك تعذر إن وعظت ويقتدى بالقول منك ويقبل التعليم
لاته عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم
حكى أبو فروة أن طارقاً صاحب شرطة خالد بن عبدالله القسرى
، بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة :

أراها وإن كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشع
 اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء
 فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا أن مراك طارق في موكبه
 فقال يا بني إنهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم إن أباك أكل
 من حلوائهم فخبط في أهوائهم أما ترى هذا الدين الفاضل كيف
 عوجل بالتفريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبربنيه
 فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأقلق جنانا إذا رمقتنا أعين المتتبعين
 وتلاولتنا ألسن المتعتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى
 عصمته معاذا

باب أدب العلم

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طاب وجد فيه
 الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لأن شرفه من على صاحبه
 وفضله ينشأ عند طالبه . قال الله تعالى : « قل هل يسوى الذين يعلمون
 والذين لا يعلمون » فنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد
 خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى : « وما يمتاها إلا العالمون »
 فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا . وروى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام
 إني عليم أحب كل عليم . وروى أبو أمامة قال : سئل رسول الله صلى
 الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله
 عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضل علي أدناكم رجلا . وقال علي
 ابن أبي طالب رضي الله عنه : الناس أبناء ما يحسنون . وقال مصعب
 ابن الزبير لابنه : تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا وإن لم يكن
 لك مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : يا بني تعلموا

العلم فان كنتم سادة فقمتم وإن كنتم وسطا سددتم وإن كنتم سوقة عثتم
وقال بعض الحكماء : العلم شرف من لا قَدْرَ له والأدب مالٌ لا خوف عليه
وقال بعض الأدباء : العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف .
وقال بعض البلغاء : تعلم العلم فانه يقومك ويستدك صغيرا ويقدمك
ويسودك كبيرا ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك
ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك . وقال على رضى الله
تعالى عنه : قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال :

لا يكون العليّ مثلَ الدنيّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء قضاء من الإمام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لأن فضل العلم إنما يعرف
بالعلم وهذا أبلغ في فضله لأن فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم
الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واستزدلوا أهله وتوهموا
أن ماتميل اليه نفوسهم من الأموال المقتناه والطرف المشتهاه أولى أن
يكون إقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز
في منشور الحكم : العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا والجاهل لا يعرف
العالم لأنه لم يكن عالما وهذا صحيح . ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله
انصرف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحرف المعاندين لأن من جهل
شيئا عاداه . وأنشدنى ابن لنكك لأبى بكر بن دريد :

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادى العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصترا ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وقيل لبزرجهر : العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل : فبالنا
نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب
العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل

العلم . وقيل لبعض الحكماء : لم لا يجتمع العلم والمال فقال : لغز الكمال .
وأنشدت لبعض أهل هذا العصر :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحيى بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور
ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما
لا يتعب ضررا ولا يستقم نفسا فأخرج له طعام ونفقة فقال : فاقني الى
كلامكم أشد من حاجتي الى طعامكم إني طالب هدى لا سائل ندى
فأذن له العالم وأفاده عن كل ما سأل عنه نخرج جذلا فرحا وهو يقول
علم أوضح لبسا خيرا من مال أغنى نفسا * وعلم أن كل العلوم شريفة
ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء : من
يعرف كل العلوم فقال : كل الناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : من ظن أن للعلم غاية فقد بنحسه حقه ووضعته في غير منزلته
التي وصفه الله بها حيث يقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وقال
بعض العلماء : لو أن نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالتنقيصة
ولكنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم .
وقال بعض العلماء : المتعمق في العلم كالساج في البحر ليس يرى أرضا
ولا يعرف طولا ولا عرضا . وقيل لحمد الراوية : أما تشبع من هذه العلوم
فقال : استفرغنا فيها المجهود فلم نبلي منها المحدود فنحن كما قال الشاعر :

* اذا قطعنا علما بدا علم *

وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين وقال أظنهما له :

يانفس خوضي بحار العلم أو غوصي فالناس ما بين معوم ومخصوص
لا شيء في هذه الدنيا يحيط به إلا إحاطة منقوص بمنقوص
وإذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى
معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها . وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأن

الناس بمعرفته يرشدون ويجهله يضلون إذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أداؤها ولم يعلم شروط إجرائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضل العلم خير من فضل العبادة وإنما كان كذلك لأن العلم يبعث على فعل العبادة والعبادة مع خلق فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وفيه تأويلان : أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات . والثاني جملة العلم إذا لم يتم بطلبه من فيه كفاية . وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الأعبان وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب فرضه على الأعيان ولا على الكفاية . قال الله تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب إلى من صاحبه . أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما وجلس إلى أهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الخير عادة والشر بلحاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خيار أمتي علمائها وخيار علمائها فقهاؤها . وروى معاذ بن رفاع عن إبراهيم بن عبد الرحمن العدوى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال: علىّ بخلفائى قالوا: ومن خلفاؤك قال: الذين يحيون سنتى يعلمونها عباد الله . وروى حميد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الفقه فى الدين فرض على كل مسلم ألا فتعلموا أو علموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا . وروى سليمان بن يسار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما عبد الله بشيء أفضل من فقه فى الدين وفقهه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه . وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثنائا لما تضمنه الدين من التكليف واستزدالا لما جاء به الشرع من التبعيد والتوقيف والكلام مع مثل هذا فى أصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه أمورهم من الاختلاف والتنازع وتفضى اليه أحوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو تابع له ولو تصوّر هذا المختل تصوّر أن الدين ضرورة فى العقل وأن العقل للدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضّل وأضل . وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعى رحمه الله فضيلة كل واحد منها فقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . ولعمري إن صيانة النفس أصل الفضائل لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لأن القبيح أنم من الجميل والرديلة أشهر من

الفضيلة إذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا يصفون محسنا ولا يجابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوب فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر إما لقبح أثرها واعترا كثر من الناس بها . وقد قيل في منشور الحكم : زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير . وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام : من أشد الناس فتنه قال زلة العالم اذا زل هلك بزلته عالم كثير فهذا وجه وإما لأن الجاهل بذمه أغرى وعلى تنقيصه أجرا ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لأن الجاهل يرى العلم تكفا ولؤما كما أن العالم ترى الجاهل تخلفا وذما . وأنشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه :

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم نخذ منه فان المرء عدوما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم وأنشد :

تفنن وخذ من كل علم فانما يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للذى أنت جاهل به ولعلم أنت لتقنه سلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعزة التزاهة فصار بالمتزلة التي يستحقها بفضائله . وروى أبو الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : العلماء ورثة الأنبياء لأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنبياء : على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . وقال بعض البلغاء : إن من الشريعة أن تجل أهل الشريعة ومن

الصنعة أن ترب حسن الصنعة فينبغي لمن استدل بفطنته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الإهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فإن من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق . وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الأدباء : كل عز لا يوطده علم مذهبه وكل علم لا يؤيده عقل مضله . وقال بعض علماء السلف : اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم وقال بعض البلغاء : العلم عصمة المملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية فمن حققهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاة لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضائهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرّون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلا قال البحري :

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصيانة ليس البلاء بواحد
ولعدم الفضيلة في المال منحه الله الكافر وحرمة المؤمن .
قال الشاعر :

كم كافر بالله أمواله تزداد أضعافا على كفره
ومؤمن ليس له درهم يزداد إيمانا على فقره
يالاثم الدهر وأفعاله مشتغلا يزرى على دهره
الدهر مأمور له أمره ينصرف الدهر على أمره

وقد بين على بن أبي طالب رضى الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال: العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الأموال وبقي خزان العلم أعيانهم مفقودة وأشخاصهم في القلوب موجودة . وسئل بعض العلماء أيما أفضل المال أم العلم فقال: الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل . وقال صالح بن عبد القدوس :

لاخير فيمن كان خير ثناءه في الناس قولهم غنى واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره أن يعلم في كبره فرضى بالجهل أن يكون موسوما به وآثر على العلم أن يصير مبنداً به وهذا من خدع الجهل وغرور الكمال لأن العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الأسان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلاً . حكى أن بعض الحكماء رأى شيخاً كبيراً يحب النظر في العلم وينبغي فداؤه : يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله . وذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون رحمه جماعة يتكلمون في الله فقال : باع ما عندك ما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين : شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال : لم لا نتعلمه اليوم قال : أويحسن بمثل طلب العلم قال نعم والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال : والى متى يحسن بي طلب العلم قال : ما حسنت بك الحياة لأن الصغير أعذر وإن لم يكن في الجهل عذر لأنه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الإهمال . وقد قيل في مشور الحكم : جهل الصغير معذور وعلمه محذور فأما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لأن علو السن اذا لم يكسبه فضلاً ولم يفده علماً وكانت أيامه في الجهل ماضيه ومن الفضل

خاليه كان الصغير أفضل منه لأن الرجاء له أكثر والأمل فيه أظهر وحسبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه . وأنشدت لبعض أهل الأدب :

إذا لم يكن مَرَّ السنين مترجما عن الفضل للانسان سميته طفلا
وماتفع الأعوام حين تعدّها ولم تستفد فيهنّ علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا الى كل ذى جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وإن كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغي أن يصرف للعلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للاكتساب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل شيء فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فخالسوا العلماء واسمعوا علماء يدلکم على الهدى ويردکم عن الردى . وقال بعض العلماء : من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء : من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر . وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة أهل العجز لأن الاخبار قبل الاختبار جهل والحشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر :

لا تكونن للأمر هيوبا فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لأبي هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة . وليس وإن تفاضلت الأذهان

وتفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حفظه أن يئأس من نيل القليل وإدراك
اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص
فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى
فى نفس راغب شهىّ وطالب خلىّ لاسيما وطالب العلم معان . قال
النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا
بما يطلب» وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور فى نفسه
حرفة أهله وتضايق الأمور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار
ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وإن وجد كتابا أعرض عنه
وإن رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا
ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى
عنهم ما يصحبنى من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستقلا وإن كان
البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال
زر جهمر الجهل فى القلب كالنز فى الأرض يفسد ما حوله لكن اتبعت
فيهم الحديث المروى عن أبى الأشعث عن ابى عثمان عن ثوبان عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خالطوا الناس بأخلاقهم وخالقوهم
فى أعمالهم» . ولذلك قال بعض الباغاء : رب جهل وقيت به عالما وسفه
حميت به حلما . وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح
لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وان للجهل إقبالا مجديا وللعلم
ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس
المهلك الذى قال فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه : أغد عالما
أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس قتهلك . وقد رواه خالد
الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا
وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ولا فى الاستصلاح مطمع وقد قيل
لبزر جهمر : ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال : إنا لا نكاف العمى أن يبصروا

ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التي تنفر من العلم هذا النفور وتعاد أهلها هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الأحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده في العقل والعلم هل يكون لخير أهلا أو لفضيلة موضعا

وقد فال بعض البلغاء: أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا أنهم ربما رأوا عقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في فله حظّه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وإدبار أكثر الجهال لأن في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل: العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنهّوا بالتمييز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين بإشارة المتعنتين لماحوظين بإيماء الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قُصِدَ المجدود منهم بإشارة عانت فذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق محتصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال في أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان في أكثرهم وإنما يصير ذوالحال الواسعة منهم ما محظوظا مشتهرا لأنّ حظّه عجب وإقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب وإفلاله عجيب . ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجهر ما أعجب الأشياء فقال نبح الجاهل وإكداء العاقل لكن الرزق بالخط والحد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته وإجراء الأمور على مشيئته . وقد قالت الحكماء: لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام الطائي فقال :

ينال النقي من عيشه وهو جاهل ويكدى النقي من دهره وهو عالم

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهانن البهائم
وقال كعب بن زهير بن أبى سلمى :

لو كنت أعجب من شئ لأعجبني سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأموال ليس يدركها والنفس واحدة والهمّ منتشر
على أن العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قل معهما المال وضائق
معهما الحال والجهل والحمق حرمان وإدبار وإن كثر معهما المال واتسعت
معهما الحال لأن السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى ومقلّ
سعيد وكيف يكون الجاهل الغنى سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون
العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه . وقد قيل فى منشور الحكم : كم من ذليل
أعزّه علمه ومن عزيز أذلّه جهله . وقال عبدالله بن المعتز : نعمة الجاهل
كروضة مزبلة . وقال بعض الحكماء : كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد
قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه : يا بنيّ تعلموا العلم وإن لم تتالوا به من
الدنيا حظا فلا أن يذم الزمان لكم أحب الىّ من أن يذم الزمان بكم .
وقال بعض الأدباء : من لم يند بالعلم لا أكسب به جمالا وأنشد بعض
أهل الأدب لابن طباطبا :

حسود مريض القلب يخفى أنينه ويضحى كئيب البال عندى حزينه
ويلوم على أن رحت للعلم طالبا أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعونه وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يكسب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيلائى دعنى أغالى بقيمتى فقيمة كل الناس ما يحسنونه
وأنا أستعيز بالله من خدع الجهل المذلّه وبوادى الخلق المضله وأسأله
السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل .
فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا استزدل الله عبدا
حظر عليه العلم »

فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطالب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر :
لا تعذراني في الاساءة إنه شرار الرجال من يسيء فيعذر
ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الأشغال المتصلة
فإن لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تتقضى
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تعلم علما لم يغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعته ذهاب أهله فان أحدكم لا يدري متى يحتاج إليه أو متى يحتاج إلى ماعنده » . ويحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فإن الممارى به مهجور لا ينتفع والمرائى به محقور لا يرتفع . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تعلموا العلم لتتاروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه » . وليس الممارى به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يجادل إلا منافق أو مرتاب » وقال الأوزاعي إذا أراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأشد الرياشى لمصعب بن عبد الله :

أجادل كل معترض ظنين فأجعل دينه غرضا لدينى
وأترك ما علمت لرأى غيرى وليس الرأى كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهنى شئ بصرف فى الشمال وفى اليمين

فأما ما علمت فقد كفاني وأما ما جهلت فجنبوني
وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه : لا يمنعك حذر المرء من
حسن المناظرة فإن الممارى هو الذى لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو
أن يتعلم من أحد

واعلم أن لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيان رغبة
أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا . أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى
لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته . وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى
لتاركى أو امره ومهملى زواجه فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا إلى
كنه العلم وحقيقة الزهد لأن الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة
أقوى السببين فى الزهد . وقد قالت الحكماء : أصل العلم الرغبة وثمرته
السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فإذا اقترن الزهد والعلم فقد
تمت السعادة وعمت الفضيلة وإن افترقا فيا ويح مفترقين فما أضر
افتراقهما وأقبح انفرادهما . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « من ازداد فى العلم رشدا ولم يزد فى الدنيا زهدا لم يزد من
الله الا بعدا » . وقال مالك بن دينار : من لم يؤت من العلم ما يقمعه فـ
أوتى منه لا ينفعه . وقال بعض الحكماء : الفقيه بغير ورع كالسراج يضىء
البيت ويحرق نفسه

(فصل) واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ومداخل تفضى
إلى حقائقها فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها وبمداخلها
ليفضى إلى حقائقها ولا يطالب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل
المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أس
لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى ولذلك أسباب فاسدة ودواع
واهية . فمنها أن يكون فى النفس أغراض تختص بنوع من العلم
فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعبدل عن مقدماته كرجل

يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه إلى أدب القاضي وما يتعلق به من الدعوى والبيانات . أو يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوماً بجهل ما يعاني فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم يربما بقي إلا غامضاً طلبه عناء وعويصاً استخراجاً فناء لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك لأن بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها وقد يصح قيام الأوائل بأنفسها فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركاً للأوائل والأواخر فإذا ليس يعرى من لوم وإن كان نارك الكل ألوم . ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم إما لتكسب أولئجل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه لينظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهباً مخصوصاً ولقد رأيت من هذه الطبقة عدداً قد تحققوا بالعلم بتحقيق المنكملين واشتهروا به اشتهار المتبحرين إذا أخذوا في مناقرة الخصوم ظهر كلامهم وإذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى أنهم ليخبطون في الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصاً إذا نطقوا في المجالس كلاماً مرصوفاً ولفقوا على المخالف حجاجاً مألوفاً وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدئ ويتداوله الناشئ فهم دائماً في لفظ مضل أو غلط مدلل . ورأيت قوماً منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفاً والاستكثار منه تخلفاً وحاجتي بعضهم عليه فقال : كيف يكون علم حافظ المذهب مستوراً وعلم المناظر علماً مشهوراً فقلت : كيف يكون علم حافظ المذهب مستوراً وهو سريع الجواب كثير الصواب لأنه إن لم يسأل سكت فلم يعرف والمناظر إن لم يسأل سأل فعرف وقلت

أليس اذا سئل الحافظ نأصاب بان فضله قال نعم قلت : أفليس اذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه . وقد قيل : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان فأمسك عن جوابي لأنه ان أنكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك إذعان والسكوت رضا ولأن ينقاد إلى الحق أولى من أن يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف وبعيد من لا يعرف العلم أن يعرفه به . وقد قال زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير أيضاً أن يغفل عن التعلم في الصغر ثم يشتغل به في الكبر فيستحي أن يتبدئ بما يتبدئ الصغير ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها وأكافها ليتقدم على الصغير المبتدى ويساوى الكبير المتهى وهذا من رضى بخداع نفسه وقنع بمداينة حسه لأن معقوله إن أحس ومعقول كل ذى حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق باخللال هذا التخيل لأنه شيء لا يقوم في وهم وجهل ما يتبدئ به المتعلم أقبح من جهل ما ينتهى إليه العالم . وقد قال الشاعر :

ترق الى صغير الأمر حتى يريقك الصغير الى الكبير

فتعرف بالتفكر في صغير كبيراً بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم في الصغر أحمد . روى مروان بن سالم عن إسماعيل بن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يتعلم في صغره كالنقش على الصخر والذى يتعلم في كبره كالذى يكتب على الماء » . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : قلب الحدث كالأراضى الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته . وإنما كان ذلك لأن الصغير أفرغ قلباً وأقل شغلاً وأيسر تبذلاً وأكثر تواضعاً

وقد قيل في منشور الحكم : المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علماً

كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير إذا عرى من هذه الموانع وأوعى منه إذا خلا من هذه القواطع فلا . حكى أن الأحنف بن قيس سمع رجلا يقول : التعلّم فى الصغر كالنقش على الحجر فقال الأحنف : الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلبا ولعمرى لقد فخص الأحنف عن المعنى وبينه ونبه على العلة لأن قواطع الكبير كثيرة . فمنها ما ذكرنا من الاستحياء . وقد قيل فى منشور الحكم : من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن أحمد : يرتع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم . ومنها وفور شهواته وتقسم أفكاره . وقال الشاعر : صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز إن الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء : القلب اذا علق كالرهن اذا غلق . ومنها الطوارق المزججة والهموم المذهلة . وقد قيل فى منشور الحكم : الهم قيد الحواس . وقال بعض البلغاء : من بلغ أشده لاقى من العيش أشده . ومنها كثرة أشغاله وتراذف أحواله حتى إنها تستوعب زمانه وتستنفد أيامه فاذا كان ذا رياسة ألهته وإن كان ذا معيشة قطعتة ولذلك قيل : تفقهوا قبل أن تسودوا . وقال بزرجمهر : الشغل مجهد والفراغ مفسده . فينبغى لطالب العلم أن لا ينى فى طلبه وينتهر الفرصة به فر بما شغ الزمان بما سمح وضمن بما منح ويبتدىء من العلم بأوله ويأتية من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله فإن لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة إن صرف إليها نفسه قطعتة عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : العلم أكثر من أن يحصى نخذوا من كل شىء أحسنه . وقال بعض الحكماء : بترك ما لا يعينك يتم لك ما يعينك . ولا ينبغى أن يدعوه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه إشعارا لنفسه أن ذلك من فضول علمه وإعذارا لها فى ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه

ما تعذر كان كالتقاص إذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع إلا خائبا إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعا كذلك العلم طلبه صعب على من جهله سهل على من علمه لأن معانيه التي يتوصل إليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء : العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقط عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لأن المعاني شوارد تفضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم أنست واذا ذكرها بعد الأنس رست . وقال بعض العلماء : من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم . وقال الشاعر :

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نسي ما تعلمه
فكم جامع للكتب من كل مذهب يزيد مع الأيام في جمعه عمى

وإن لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها فانه بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصل الى تلافى ما شذ وصلاح ما فسد . وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام إما أن يكون لعل في الكلام المترجم وإما أن يكون لعل في المعنى المستودع وإما أن يكون لعل في السامع المستخرج . فان كان السبب المانع من فهمها لعل في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال : أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من أحد وجهين : إما من حصر المتكلم وعيه وإما من بلادته وقلة فهمه . والحال الثانية أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين : إما من هذر

المتكلم وإكثاره وإما لسوء ظنه بفهم سامعه . والحال الثالثة أن يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فإذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها . فأما تقصير اللفظ وزيادته فمن الأسباب الخاصة دون العامة لأنك لست تجد ذلك عاما في كل كلام وإنما تجده في بعضه فإن عدلت عن الكلام المقصر إلى الكلام المستوفى وعن الزائد إلى الكافي أرحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطرك وإن أقمت على استخراجيه إما لضرورة دعوتك إليه عند إعواز غيره أو لحماية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فإن كان التقصير لحصر الزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لأن ما له من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفي الأكثر على الأقل دليل . وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجيه أسهل . وإن كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الأمور حالا وأبعدها استخراجا لأن ما لم يفهمه مكملك فأنت من فهمه أبعد إلا أن تكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تنبيه بإشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له .

وأما المواضعة فضربان عامة وخاصة . فأما العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والأعراض والأجسام ألقابا وضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا

وأما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فإذا كانت في الكلام كانت رمزا وإن كانت في الشعر كانت لغزا . فأما الرمز فلست تجده في علم معنوى ولا كلام لغوى وإنما يختص غالبا بأحد شيئين إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس إليه

واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه وإما لما يدعى أربابه أنه علم معوز وأن إدراكه بديع معجز كالصنعة التي وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا بأوصافه وأخفوا معانيه ليوهموا الشح به والأسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر :

منعت شيئا فأكثر الولوع به وحب شيء الى الانسان ما منعا

ثم ليكونوا برآء من عهدة ما قالوه اذا جرت ولو كان ما تضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلمنا مستفادا لخرج من الرمز الخفى الى العلم الجلى فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على ستر سليم وإخفاء مفيد . وقد قال زهير :

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الألفاظ ليكون أحلى في القلوب موقعا وأجل في النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفي الصحف مخلدا كالذى حكى عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة أنه قال : احفظ ميزانك من الندى وأوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ اللسان من الخلق وحفظ الأوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الفصيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك أن المحجوب عن الأفهام كالمحجوب عن الأبصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتاج هان واسترذل وهذا إنما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل . فأما العلوم المنتشرة التي تطلع النفوس إليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعى إليها عن الاستدعاء إليها برمز مستحلى ولفظ مستغرب بل ذلك مبغى عنها لما في الاشتغال باستخراج رموزها من الإبطاء عن دركها وتصور معانيها فهذا حال

الرمز . وأما اللغز فهو تحدى أهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاحروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدى نفعاً ولا يفيد علماً فهم كأهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم لا يكسبهم حمداً ولا يجدى عليهم نفعاً . أنظر الى قول الشاعر :

رجل مات وخلف رجلاً ابن أم ابن أبي أخت أبيه
معه أم بنى أولاده وأبا أخت بنى عم أخيه

أخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمناه من السؤال إذا استكدك الفكر في استخراجها فعلمت أنه أراد ميتاً خلف أباً وزوجة وعماً ما الذى أفادك من العلم ونفى عنك من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلاً من قبله ولو أن السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدم وقدم ما أخر لكنت فى الجهل به قبل استخراجها كما كنت فى الجهل الأول وقد كددت نفسك وأتعبت خاطرك ثم لا تعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله . فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون إنفاق خاطرك فيه مذخوراً وكذا فكرك فيه مشكوراً . وقد روى سعيد بن أبي هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ونحن نستعيز بالله من أن نغبن فضل نعمته علينا ونجهل نفع إحسانه إلينا وقد قيل فى منشور الحكم : من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء : من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أذاه

أو مجد أثله أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم افتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء :

لقد هاج الفراغ عليك شغلا وأسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه حتى نخرج بنا الاستيفاء الى الاطالة والكشف الى الاغماض

وأما القسم الثاني وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يكون مستقلا بنفسه أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره . فأما المستقل بنفسه فضربان جلي وخفي فأما الجلي فهو يسبق إلى فهم متصوره من أول وهلة وليس هذا من أقسام ما يشكل على ذى تصور وأما الخفي فيحتاج في إدراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلي عما أخفى وينكشف عما أغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فإن للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا . وأما ما كان مقدمة لغيره فضربان أحدهما أن تقوم المقدمة بنفسها وإن تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه في تصوره وفهمه وإن كان مستدعيا لنتيجته والثاني أن يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة إلا بما يتبعها من النتيجة لأنها تكون بعضا وتبعض المعنى أشكل له وبعضه لا يغنى عن كله . وأما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا بأوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء وإتاعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أذى . فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان أحدهما من ذاته والثاني من طارئ عليه . فأما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين أحدهما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان

مانعا من حفظه بعد تصوّره وفهمه فأما المانع من تصوّر المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكماء: إذا فقد العالم الذهن قلّ على الأضداد احتجاجة وكثر إلى الكتب احتجاجة وليس لمن يلى به إلا الصبر والاقبال لأنه على القليل أقدر وبالصبر أحرى أن ينال ويظفر. وقد قال بعض الحكماء: قدّم لحاجتك بعض لحاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حالته إلا أن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته ويكلف جسده احتمال التعب لبعده همته فاذا لاح له المعنى بمساعدة الشهوة أعقبه ذلك إلحاح الآملين ونشاط المدرّكين فقلّ عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لاتنالون ماتحبون إلا بالصبر على ماتكرهون ولا تبلغون ماتهون إلا بترك ماتشتهون» وقيل في منشور الحكم: أتعب قدمك فكم من تعب قدمك وقال بعض البلغاء: إذا اشتد الكلف هانت الكلف وأنشد بعض أهل الأدب لعلّى بن أبي طالب كرم الله وجهه :

لا تعجزن ولا تدخلك مضجرة فالنجح يهلك بين العجز والضعف

وأما المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير وإهمال التوانى فينبغى لمن يلى به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل: لن يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكدّ نفسه وكثرة الدرس كد لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنا والجهالة مغرما فيجتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفى عنه معرة الجهل فانّ نيل العظيم بأمر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل: علة الراحة قلة الاستراحة. وقال بعض الحكماء: أكل الراحة ما كانت عن كد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعانى على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون

إلا كمن أطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة إلا حجلاً والتفريط إلا ندماً وهذه حال قد يدعو إليها أحد ثلاثة أشياء: إما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الأمل في التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأي في عزيمته وليس يعلم أن الضجر خائب وأن الطويل الأمل مغرور وأن الفاسد الرأي مصاب والعرب تقول في أمثالها: حرف في قلبك خير من ألف في كتبك وقالوا: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه:

علمي معي حيثما يمت يتبعني قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق
وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصوّر ولا فهم حتى يصير حافظاً لألفاظ المعاني قيماً بتلاوتها وهو لا يتصوّرها ولا يفهم ما تضمنته يروى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يروى من لا يروى ويروى من لا يروى. وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد عن قال: ما تصنع بعمن أما أنت فقد نالك عظته وقامت عليك حجته. وربما اعتمد على حفظه وتصوّره وأغفل تقييد العلم في كتبه ثقة بما استقر في ذهنه وهذا خطأ منه لأن الشك معترض والنسيان طارق. وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قيدوا العلم بالكتاب». وروى أن رجلاً شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له: استعمل يدك أي آكتب حتى ترجع إذا نسيت إلى ما كتبت. وقال الخليل بن أحمد: اجعل ما في الكتب رأس المال وما في قلبك النفقة. وقال مهبوذ: لولا ما عقدته الكتب من تجارب

الأولين لا تخلّ مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء : إن هذه الآداب نوافر تنبّ عن عقل الأذهان فاجعلوا الكتب عنها حمة والأقلام لها رعاة . وأما الطارئ فنوعان : أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوّره وتدفع عن إدراك حقيقته فينبغي أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصوّر المعنى وإدراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء : لا تخلّ قلبك من المذاكرة فتعود عتيا ولا تعف طبعك من المناظرة فتصير سقيا وقال بشار بن برد :

شفاء العمى طول السؤال وإنما دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فانما دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل
والثاني أفكار تعارض الخاطر فتذهل عن تصوّر المعنى وهذا سبب
قلما يعرى منه أحد لا سيما من انبسطت آماله واتسعت أمانيه وقد
يقل فيمن لم يكن له في غير العلم أرب ولا فيما سواه همّة فان طرأت على
الإنسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة نلبه على التصرّو
لأن القلب مع الاكراه أشدّ نفورا وأبعد قبولا وقد جاء في الأثر بأن
القلب اذا أكره عمى ولكن يعمل في دفع ما طرأ عليه من هم مذهب
أو مكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا . وقد قال الشاعر :

وليس بمغن في المودة شافع اذا لم يكن بين الضلوع شفع
وقال بعض الحكماء : إن لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها
بالاقتصاد في التعليم والتوسط في التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها
فهذا تعليل ما في المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعاني . وهاهنا
قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض
الكلام فلذلك لم يدخل في جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره
وهو الخط لأن من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج في فهمه الى تأمل
الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه ومنه ما كان

مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : «أو أنارة من علم» قال الخط . وعن مجاهد في قوله تعالى : «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا» يعنى الخط والعرب تقول : الخط أحد اللسانين وحسنه إحدى الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منشورها . وقال ابن المقفع : اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب . وقال حكيم الروم : الخط هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسمانية . وقال حكيم العرب : الخط أصيل في الروح وإن ظهر بجواس الجسد . واختلف في أول من كتب الخط فذكر كعب الأحمار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة في طين ثم طبخه فلما غرقت الأرض في أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فأصاب كل قوم كتابهم وبقي الكتاب العربي إلى أن خص الله تعالى به اسمعيل فأصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب إدريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعدّه من أجل نافع حتى قال عكرمة : بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى أن الرجل ليفادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه وأثره . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : «اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم» فوصف نفسه بأن علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم وعدّ ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به في كتابه فقال سبحانه وتعالى : «ب والقلم وما يسطرون» فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم . واختلف في أول من كتب بالعربية فذكر كعب الأحمار أن أول من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل على نبينا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضى

الله عنهما أن أول من كتب بها ووضعها إسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عروة بن الزبير رضى الله عنه أن أول من كتب بها قوم من الأوائل أسماؤهم أيجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة فى المعارف أن أول من كتب بالعربى مرامر بن مرة من اهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت . وحكى المدائنى أن أول من كتب بها مرامر بن مرة وأسلم بن سدره وعامر ابن جدرة فمرامر وضع الصور وأسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام . ولما كان الخط بهذه الحال وجب على من أراد حفظ العلم أن يعنى بأمرين : أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعه لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والأشكال الميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعيته وليس بشرط فى صحته . وقد قال على بن عبيدة : حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير . وقال أبو العباس المبرد : رداء الخط زمانة الأدب . وقال عبد الحميد : البيان فى اللسان والبنان . وأنشدنى بعض أهل العلم لأحد شعراء البصرة :

اعذر أخاك على رداء خطه واغفر نذالته لجودة ضبطه
واعلم بأن الخط ليس يراد من تركيبه إلاّ تين سبطه
فاذا أبان عن المعانى لم يكن تحسينه إلاّ زيادة شرطه

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب : حسن الخط إحدى الفصاحتين وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم فى الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وإن فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم فى الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وإن فهم وأفهم . وربما تقدم بالخط من كان الخط أجل فضائله وأشرف خصائله حتى صار علما مشهورا وسيدا مذكورا غير

أن العلماء أّطرحوا صرف المهمة إلى تحسين الخط لأنه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب رديئة إلا من أسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل : من سعادة المرء أن يكون رديء الخط لو أن الزمان الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هي السعادة وإنما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وإن لم تكن رداءة الخط سعادة . وإذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته والأسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنته قد تكون من ثمانية أوجه : (الوجه الأول) إسقاطه ألفاظا من أثناء الكلام يصير الباقي بها مبتورا لا يعرف استخراجها ولا يفهم معناه وهذا يكون إما من سهو الكاتب أو من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سلم منه على ما سقط أو فسد لا سيما إذا قل لأن الكلمة تستدعى ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فأما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فإنه يصعب عليه استنباط المعنى منه لا سيما إذا كان كثيرا لأنه يحتاج في فهم المعانى إلى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فإذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن إدراكه وضلّ فكره من استنباطه (والوجه الثانى) زيادة ألفاظ فى أثناء الكلام يشكّل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا إلا أن يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى أثناءه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فأما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره (والوجه الثالث) إسقاط

حروف من اثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول في الوجه الأول (والوجه الرابع) زيادة حروف في اثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضع يقصد بها الكاتب إخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني (والوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك إلى الاشكال لأن الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجها وإن كان ذلك من قلة معرفة بالخط أو مشقة تسبق به اليد أكثر فصعب استخراجها إلا على المتراض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : شر الكتابة المشق كما أن شر القراءة المذمرة وإن كان للتعمية والرمز لا يعرف إلا بالمواضع (والوجه السادس) تغيير الحروف عن أشكالها وإبدالها بأغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم لا يوقف عليه إلا بالمواضع إلا لمن قد زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعنى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة وإثباتها على الأوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداء الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وإن كان ربما أضجر قارئه وأوهى معانيه . ولذلك قيل : إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) إغفال النقط والأشكال التي تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لأن من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم

ما تضمنه مع إغفال النقط والاشكال بل قد استقبح الكتاب ذلك في المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب أسوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقبحاهم له في مكتبة الرؤساء أكثر . حكى قدامة بن جعفر : أن بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكا العامل منه إلى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظن أن عبيد الله أراد بهذا هذا إثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في إثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة إلى كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله وقال له : إن عبيد الله قد صدق قولى وصح ما ذكرت تخفى على الكاتب ذلك وأطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله فرد إليه ليسأل عن مراده فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج إلى إبانته بالشكل فهذه حال الكتاب في استقبحاهم إعجام المكاتبات بالنقط والأشكال فأما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسناه لاسيما في كتب الأدب التي يقصد بها معرفة صيغة الألفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر والغريب فإن الحاجة إلى ضبطها بالشكل والإعجام أكثر وهي مما سواه من العلوم أيسر وقد قال الثوري : الخطوط المعجمة كالبرود المعجمة . وقال بعض البلغاء : إعجام الخط يمنع من استعجامة وشكله يؤمن إشكاله : وقال بعض الأدباء : رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله . وكما استقبح الكتاب الشكل والإعجام في المكاتبات وإن كان في كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنا مشق الخط في المكاتبات وإن كان في العلوم مستقبحا وسبب ذلك أنهم لفرط إدلالهم بالصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالإشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة إلى استيفاء شروط الإبانة تقصيرا ولقصد

ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا مانبه عليه من سواد المداد أثرا جميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا . حكى أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال :
المداد بنا أحسن من الزعفران وأنشد :

إنما الزعفران عطر العذارى ومداد الدوى عطر الرجال
فهذه جملة كافية في الابانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام
ومعرفة معانيه لفظا كان أو خطأ والله ولى التوفيق

فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضى الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر . ولها أحوال ثلاث : فحال عدل وإنصاف وحال غلو وإسراف وحال تقصير وإجحاف . فأما حال العدل والانصاف فهى أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها ترد عن السرف وهذه أحد الأحوال لأن ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو إذا استدام فأخلق به أن يستكمل . وقال بعض الحكماء : إياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر فى الخروج عن الحد . وأما حال الغلو والاسراف فهى أن تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على إفراغ الجهد ويفضى بها إفراغ الجهد إلى عجز الكلام فيؤديها عجز الكلام الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء : طالب العلم وعامل البركا كل الطعام إن أخذ منه قوتا عصمه وإن أسرف فيه أبشمه وربما كان فيه منيته كأخذ الأدوية التى القصد فيها شفاء ومجاوزة الحد فيها السم المميت . وأما حال التقصير والاجحاف فهى أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة

فيدعوها الاشفاق إلى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطاب
شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل
العائد ويحفظ المستودع فقدّ الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد
فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون. وقد قال بعض
الحكماء: العجز مع الوانى والقوت مع التوانى. وقد يكون للنفس مع الأحوال
الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوتين فيكون للنفس طاعة وإشفاق
وإحداهما أغلب من الأخرى فان كانت الطاعة أغلب كانت الى الوفور
المجاوز أميل وإن كان الاشفاق أغلب كانت الى التقصير أقرب فاذا
عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه إشفاقها راض نفسه ليلبث
على أحمد حالاتها. وقد أشار إلى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق في قوله :

لكل أمرئ نمران نفس كريمة وأخرى يعاصيها التى ويطيعها
ونفسك من نفسك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها

فان أهمل سياستها وأغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها
بالعسف استشاطت نافرة ولبحت معاندة فلم تنقد إلى طاعة ولم تنكف
عن معصية . وقال سابق البربرى :

إذا زجرت لجوجا زدته علقا ولبّت النفس منه فى تماميها
فعدّ عليه اذا ما نفسه جمحت باللين منك فات اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها
ومعاناة رياضتها تركها ترك راحة ثم عاودها بعد الاستراحة . وقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن القلب يموت ويحيا ولو بعد
حين» . وقال ابن مسعود : للقلوب شهوة وإقبال وفترة وإدبار فأتوها
من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها . وقال الشاعر :

وما سبى الانسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وأما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب وينتهى معها كمال الراغب

مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط : (الأول) العقل الذى يدرك به حقائق الأمور (والثانى) الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذى يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه (الرابع) الشهوة التى يدوم بها الطلب ولا يسرع اليها الملل (والخامس) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذى يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم التواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة لينتهى بالاستكثار الى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأن فى تعليمه . فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأجبح متعلم . وقد قال الاسكندر : يحتاج طالب العلم الى أربع : مدة وجدة وقريحة وشهوة وتماها فى الخامس معلم ناصح

(فصل) وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم . اعلم أن للتعلم فى زمان تعلمه ملقا وتذلا إن استعملهما غنم وإن تركهما حرم لأن التلق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وبإظهار مكنونه تكون الفائدة وبإسندامة صبره يكون الاكثار . وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم » . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : ذلت طالبا فعززت مطلوبا . وقال بعض الحكماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا . وقال بعض حكماء الفرس : إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب . ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله . فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرع عالما فقد قرع ربه » . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل . وقال بعض الشعراء :

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما
 فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلمك
 ولا يمنع من ذلك علو منزله إن كانت له وإن كان العالم خاملا فإن
 العلماء بعلمهم قد استجفوا التعظيم لا بالقدرة والمال . وأنشدني بعض
 أهل الأدب لأبي بكر بن دريد :

لا تحقرن علما وإن خالقت أثوابه في عيون رامقه
 وانظر إليه بعين ذى أدب مذهب الرأى في طرائقه
 فلمسك يلنا تراه ممتنها بفهر عطاره وساحقه
 حتى تراه في عارضى ملك وموضع التاج من مفارقه

ولیکن مفتديا بهم في رضى أخلاقهم متشبهاً بهم في جميع أفعالهم ليصير
 لها آلا وعليها ناشئا ولما خالها مجانبا . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم » .
 وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 « من تشبه بقوم فهو منهم » : وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر
 ابن دريد :

العالم العاقل ابن نفسه أغناه جنس علمه عن جنسه
 كن ابن من شئت وكن مؤدبا فانما المرء بفضل كيسه
 وليس من تكرمه لغيره مثل الذى تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وإن آنسه والادلال عليه وإن
 تقدمت صحبته . فقد قيل لبعض الحكماء : من أذل الناس ؟ فقال : عالم
 يجرى عليه حكم جاهل . وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية
 من السبي فقال لها : من أنت فقالت : بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى
 الله عليه وسلم : « ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما
 ضاع بين الجهال » . ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فإن

في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدّة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه لإزراء به وتبكيّتا له فيكون كمن تقدّم فيه المثل السائر لأبي البطحاء :

أعلمه الرماية كل يوم فلما أشنّد ساعده رمانى
وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من
يعلمونه مستجهاين وعند من قدّموه مستزدين . وقال صالح بن
عبد القدوس :

وإن عاء أن تعلم جاهلا فيحسب جهلا أنه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟
متى يتهى عن سيء من أتى به اذا لم يكن منه عليه تندم ؟
وقد رجع كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم :
يا فافخرا للسفاه بالسلف وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب لأن جعلنا عرائض التلّف
من علم الناس كان خيرا بذاك أبو الروح لأبوالحيف

ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعو
ترك الاعنات له على التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الأتباع
في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل وأن اعتقاده حجة وإن
لم يحتج فيفضي به الأمر إلى التسليم له فيما أخذ عنه ويؤول به ذلك إلى
التقصير فيما يصدر منه لأنه يجهل بحسب اجتهاد من يأخذ عنه فلا يبعد
أن تبطل تلك المقالة إن انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما
شاركت لأنه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه
فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن إبانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا
ضائعين ويصيروا عجرة مضعوفين . ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا

يناظر في مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال : إن هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجبا ولأن شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم أقبل المستدل على وقال لى : والله لقد أظننى بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة من بين مستهزئ ومتعجب ومستعيد بالله من جهل مغرب فهل رأيت كذلك عالما أو غل في الجهل وأدلى على قلة العقل وإذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا ببعثه الغلو على تسليم المتقادين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من المهجنتين وليس كثرة السؤال فيما آلتبس إعناتا ولا قبول ماصح في النفس تقليدا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلم خزان ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر في العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ » . وقال عليه الصلاة والسلام : « هلا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال » فأمر بالسؤال وحث عليه . ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم : « أنها كم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال » وليس هذا مخالفا للأول وانما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به إعنات ما سمع وإذا كان السؤال في موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة . وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما : بم نلت هذا العلم قال : بلسان سؤل وقلب عقول . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حسن السؤال نصف العلم » . وأنشد المبرد عن أبي سليمان الغنوى :

فسل الفقيه تكن فقيها مثله لا خير في علم بغير تدبر

واذا تعسرت الأمور فأرجها وعليك بالأمر الذي لم يعسر
ولياخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب
الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء اذا كان النفع
بغيرهم أعم إلا أن يستوى النفعان فيكون الأخذ عن اشتهر ذكره وارتفع
قدره أولى لأن الانتساب اليه أجمل والأخذ عنه أشهر. وقد قال الشاعر:
اذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس بقبليه
وإن صانك العلم الذي قد حملته أذاك له من يحتنيه ويحمله
واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا
تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فان
العدول عن القريب إلى البعيد عناء وترك الأسهل بالأصعب بلاء
والانتقال من المخبور إلى غيره خطر وقد قال علي بن أبي طالب رضي
الله عنه : عقي الأخرق مضره والمتعسف لا تدوم له مسره وقال بعض
الحكماء: القصد أسهل من التعسف والكف أودع من التكلف وربما
يتبع الإنسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب
احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك
محبوبا ولا يظفر بطائل وقد قالت العرب في أمثالها: العالم كالكمبة
يأتيها البعداء ويذهب فيها القرباء وأنشدني بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم :
لا ترى عالما يحل بقوم فيحلوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين في إنسان
فاذا حلتا مكانا سحيفا فهما في النفوس معشوقتان
هذه مكة العزيزة بيت الله يسعى للحجها الثقلان
وترى أزهده البرية في الحج لها أهلها لقرب المكان
(فصل) فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التي بهم
أليق ولهم ألزم فالتواضع ومجانبة العجب لأن التواضع عطوف والعجب

منفرو وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لأن الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أخرى لأن العجب نقص ينافي الفضل لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن العجب ليا كل الحسنات كما تأكل النار الحطب» فلا يفي ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب . وقد روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما إذا عبدالله عز وجل وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به . وعلة إعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء فانه ليس متناه في العلم الا وسيجد من هو أعلم منه إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى : «رفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم» يعنى في العلم . قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذي علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء : من يعرف كل العلم فال : كل الناس . وقال الشعبي : ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى إلا لقيت له لم يذكر الشعبي هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وإنما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به فينبغى لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وقد قيل فى منشور الحكم : إذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلماء . وأنشدت لابن العميد :

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن الى من فوقه ادبا ولينظرن الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا وبما أدركه منه مفتخرا إلا من كان فيه مقلا
ومقصرا لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره فأما
من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن
إدراك نهايته ما يصده عن العجب به . وقد قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار
فمن نال منه شبرا شمع بأنفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت
اليه نفسه وعلم أنه لم يناله وأما الشبر الثالث فهيئات لا يناله أحد أبدا .
ومما أذكرك به من حالي أنني صنف في البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت
من كتب الناس وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا
تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعا
بعلمه حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقده في البادية
على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا
فأطرقت مفكرا وبحالي وحالهما معتبرا . فقلنا : ما عندك فيما سألناك
جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت : لا . فقلنا : وها لك وانصرفا ثم أتيا
من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألوه فأجابهما مسرعا بما أقنعهما
وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما
وحالي معتبرا واني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل الى وقتي فكان
ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح
العجب توفيقا منحنه ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن
أن يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما .
ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول :
اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك
من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك

من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شرّ العى والحصر . ونحن نستعيد بالله تعالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حد يقف عنده . ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل ويضل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » . وقال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ففسبك جهلا من عقلك أن تتطرق بما لا تفهم ولقد أحسن زيّادة بن زيد حيث يقول :

إذا ما انتهى علمى تناهيت عنده أطال فأملئ أوتناهى فأقصرا
و يخبرنى عن غائب المرء فعله كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان يجهل بعضه واذا لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . وروى أن رجلا قال : يا رسول الله أىّ البقاع خير وأىّ البقاع شر فقال : لا أدري حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : وما أبردها على القلب اذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وإن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قائل . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما : اذا ترك العالم قول لا أدري أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء : هلك من ترك لا أدري . وقال بعض الحكماء : ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدري عليم قدرى ومن انتحل ما لا يدري أهمل فهوى ولا ينبغي للرجل وإن صار فى طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ما وجدتموهن إلا عندى ألا لا يرجون أحد إلا ربه

ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده وإذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : لو كان أحد مكتفيا من العلم لا اكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولكأ قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . وقيل للخليل بن أحمد : بم أدركت هذا العلم قال : كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته . وقال بزرجمهر : من العلم أن لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور لشريك : أتى لك هذا العلم قال : لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفيده على أن العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « من هو مان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا » أما طالب العلم فانه يزداد من الرحمن قربا ثم قرأ « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ « كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وليكن مستغلا للفضيلة . . . ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهى عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك لأن القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء : عليك بالعلم والاكتار منه فان قليله أشبه شىء بقليل الخير وكثيره أشبه شىء بكثيره ولن يعيب الخير إلا القسلة فأما كثرته فانها أمنية . وقال بعض البلغاء : من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبالغ علمها ولا ان يتجاوزها قدر حقها ولأن يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من أن يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد لأن من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال : اذا عرف نفسه . وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه

أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها فقال : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فعلموه ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فافضوه . وأنشد أبو القاسم الآمدي :

إذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى يسائل من يدرى فكيف إذا تدرى
جهلت ولم تعلم بأنك جاهل فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى
إذا جئت فى كل الأمور بغمة فكن هكذا أرضا يدسك الذى يدرى
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدرى وأنت لا تدرى بأنك لا تدرى

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . وقد قال قتادة فى قوله تعالى : « وإنه لذو علم لما علمناه » إنه العامل بما علم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ويل لجُماع القول ويل للُصَّرين » يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به . وروى عبدالله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام : يا بن عمران تعلم العلم لتحمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بُورُه ولغيرك نورُه . وقال على ابن أبى طالب : إنما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء : أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدى الله أن يقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال : خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله . وقيل فى منشور الحكم : لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء : ثمرة العلم أن يعمل به وثمره العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض الصالحاء : العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل . وقال بعض الحكماء : خير العلم مانع وخير القول

ماردع . وقال بعض الأدباء : ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء : من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد . وقال أبو تمام الطائي :

ولم يحمدا من عالم غير عامل خلافا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرفات المجد عوجا فظيعة وأفظع عجز عندهم عجز حازم
لأنه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى
يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحمج وله أزم لأن مرتبة العلم قبل
مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل . وقد قال أبو العتاهية
رحمه الله :

اسمع الى الأحكام تحملها الرواة اليك عنكا
وأعلم هديت بأنها حجج تكون عليك منكا
ثم لينجنب أن يقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا باتمر وأن يسر
غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هذا :

اعمل بقولي وإن قصرت في عملي ينفعك قولي ولا بضرك تقصيري
عذرا له في تقصيره فيضره وإن لم يضر غيره فإن إغذار النفس يغريها
ويحسن لها مساوئها فإن من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن أمر بما
لا ياتمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المكر والخديعة صاحبهما في النار » على أن
أمره بما لا ياتمر مطّرح وإنكاره ما لا ينكره من نفسه مستتبج بل
ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما أمر به عنادا وارتكاب
ما نهى عنه يكادا . وحكى أن أعرابيا أتى ابن أبي ذئب فسأله عن
مسألة طلاق فأفتاه بطلاق امرأته فقال : انظر حسنا قال : نظرت وقد
بانت منك فولى الأعرابي وهو يقول :

أتيت ابن ذئب أبتغي الفقه عنده فطلق حتى البت تبت أنامله
أطلق في فتوى ابن ذئب حليتي وعند ابن ذئب أهله وحلائله
فطن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك
بقول يجب فيه اشتراك الأمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو
غير عامل به ولا قابل له كلا . وقال أحمد بن يوسف :

وعامل بالنجور يأمر بالبر كهذا يخوض في الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أو لا فلا تلم

وقال آخر

عود لسانك قلة اللفظ واحفظ كلامك أينما حفظ
إياك أن تعظ الرجال وقد أصبحت مخنجا إلى الوعظ

وأما الانقطاع عن العلم إلى العمل أو الانقطاع عن العمل إلى العلم
إذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهري فيه ما يغني عن تكلف
غيره وهو أنه قال : العلم أفضل من العمل به لمن جهل والعمل أفضل
من العلم لمن علم وأما فضل ما بين العلم والعبادة إذا لم يختل بواجب
ولم يقصر في فرض فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« يبعث العالم والعابد فيقال للعابد : ادخل الجنة ويقال للعالم : اتشد حتى
تشفع للناس » . ومن آداب العلماء أن لا يتخاروا بتعاليم ما يحسنون ولا
يمنتعوا من إفادة ما يعلمون فإن البخل به يؤم وظلم والمنع منه حسد
وإثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل وأوتوه
عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما وإن
كنموه تناقص ووهى ولو آستن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم
اليهم ولا تقرر عنهم بانقراضهم وإصاروا على مرور الأيام جهالا
وبتقلب الأحوال وتناقصها أربالا . وقد قال الله تعالى : « وإذا أخذ

الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه» . وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فان في ذلك
فساد دينكم ولباس بصائرکم » ثم قرأ « إنا الذين يكتمون ما أنزلنا من
البيانات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله
ويلعنهم اللاعنون » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« من كتم علما يحسنه ألبه الله يوم القيامة بلجام من نار » . وروى
عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : ما أخذ الله العهد على
أهل الجبل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا .
وقال بعض الحكماء : اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل
فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء :
كما أن الاستفادة نافلة للتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل
في مشور الحكم : من كتم علما فكأنه جاهله . وقال خالد بن صفوان إنني
لأفرح بافادتي المتعلم أكثر من فرحي باستفادتي من العلم . ثم له بالتعليم
نفعان : أحدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله
عليه وسلم التعليم صدقة فقال : تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى
يستدده . وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« تعلموا العلم وعلموا فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل : وما أجرهما قال :
مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة » . والنفع الثاني زيادة العلم وإتقان
الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل
مناظرة المتعلم تنبيهها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز في مشور الحكم :
النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخذها أن لا نجد خطبا كذلك العلم
لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك والبخل
بما تعلم . وقال بعض العلماء : علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا أنت قد
علمت ما جهلت وحفظت ما علمت * واعلم أن المتعلمين ضربان :

مستدعى وطالب فأما المستدعى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبأن له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النجباء وظفر السعداء لأن العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر وأما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحذوه فان كان الداعى دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخنى عليه مكنونا ولا يطوى عنه مخزونا وإن كان بليدا بعيد الفطنة فينبغى أن لا يمنع من السير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا » . وقال بعض الحكماء : لا تمنعوا العلم أحدا فان العلم أمتع لجانبه . فأما أن لم يكن الداعى دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرياسة فالقول فيه يقارب القول الأول في تعليم من قبله لأن العلم يعطفه الى الدين في ثاني الحال وإن لم يكن مبتدئا به في أول حال . وقد حكى عن سفيان الثوري أنه قال : تعلمنا العلم لغير الله تعالى فأبى أن يكون إلا لله . وقال عبدالله بن المبارك : طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا . وإن كان الداعى محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريد أن يستعملهما في شبه دينية وحيل فقهية لا تجد أهل السلامة منهما مخلصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أهلك أمتي رجالان عالم فاجر وجاهل متعبد فقيل : يا رسول الله أي الناس شر فقال : العلماء اذا فسدوا » فينبغى للعالم اذا رأى من هذه حاله أن يمنعه من طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على إمضاء مكره وإكمال شره . فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « واضع العلم

في غير أهله كمثل الخنازير اللؤلؤ والجواهر والذهب» . وقال عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام : لا تلقوا الجواهر للخزير فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخزير . وحكى أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم ينده فقبل له : لم منعه فقال : لكل تربة غرس ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء : لكل ثوب لابس ولكل علم قابس . وقال بعض الأدباء : اربث لروضة نوسطها خزير وابك لعلم حواه شرير وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فانه أروح للعالم وأنجح للتعلم . وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله عابدا يعرفون الناس بالتوسم» . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبدالله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . وقال ابن الرومي :

المحى يرى بأقول رأى آخر الامر من وراء المغيب
لو دعى له فؤاد ذكى ماله في ذكائه من ضريب
لا يروى ولا يقلب طرفا وأكف الرجال في تقلب

واذا كان العالم في نوسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خيرا لم يضح له عناء ولم يحب على يديه صاحب وإن لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا وإياه في عناء مُكَّد وتعب غير مُجْد لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفى بالقليل فيضجر الذكى ويعجز البليد ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم . وقد حكى عبدالله بن وهب أن سفيان بن عبدالله قال : قال الخضر لموسى عليهما السلام : يا طالب العلم إن القائل أقل ملاة من المستمع فلا تمل جاساءك اذا حدثتهم ياموسى واعلم أن قلبك وعاء

فانظر ما تحشو في وعائك . وقال بعض الحكماء : خير العلماء من لا يقل ولا يمل . وقال بعض العلماء : كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمی وانما ينفع سماع الآذان اذا قوى فهم القلوب في الأبدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطيه ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي أن يتدنه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الأفكار مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المتقطعين اليه ولا صبر المنفردين به . وقد حكى الأصمعي رحمه الله قال : قال لى الرشيد : يا أبا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك فلا تعلمنا في ملا ولا تسرع الى تذكيرنا في خلا واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا ترد الا أن نستدعى ذلك منك وانظر الى ما هو أنطف في التأديب وأنصف في التعليم وأبلغ بأوجز لنظ غاية التقويم . وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لأن لتأخير التعلم نجلة نقصير يحل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ أو زلل في قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله وإصلاح خلله . وحكى أن عبد الملك بن مروان قال للشعبي : كم عطاءك قال : ألفين قال : لحت قال : لما ترك أمير المؤمنين الاعراب كرهت أن أعرب كلامي عليه . ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت أقدام العلماء في ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار . وقد روى الحسن البصري رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الامة بخير

تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمال قترؤها أمراءها ولم يرك صلاحها بفارها
ولم يمار أخيارها أشرارها فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم
جبارتهم فساموهم سوء العذاب وضر بهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم
رعباً . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور
عن كد المطالب فإن شبه المكتسب إثم وكد الطالب ذل والأجر أجدر
به من الإثم والعز أليق به من الذل . وأنشدني بعض أهل الأدب لعلي
ابن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى :

يقولون لي فيك أنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دنانهم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من لاقيت أرضاه منعا
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحتر تحتمل الظما
أنهها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا حياه بالأطماع حتى تهجما
على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان
صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدا منه . وقال بعض البلغاء : من
تفرد بالعلم لم توحشه خلوه ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوه ومن آنسه
قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان . وقال بعض العلماء : لا سمير
كالعلم ولا ظهير كالعلم . ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من
علموا ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا من غير أن يعتاضوا عليه عوضا
ولا يلتمسوا عليه رزقا . فقد قال الله تعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا

قليلًا» . قال أبو العالية : لا تأخذوا عليه أجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول يا بن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أجر المعلم كأجر الصائم القائم» وحسب من هذا أجره أن يلتبس أجرا . ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعوتهم فإن ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكركم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي كرم الله وجهه : يا علي «لأن يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس» . ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فإن ذلك أدعى اليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف» : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «وقروا من تعلمون منه ووقروا من تعلمونه» . ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض إلى انقراض العلم بانقراضهم . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا : بلى يا رسول الله قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر» فهذه جملة كافية والله وليّ التوفيق

باب أدب الدين

إعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث اليهم رساله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعتة الى

تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وإنما قصد نفعهم تفضلا
منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم
به أعظم لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدين العاجلة ونفع
المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفعي الدنيا والآخرة
كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل
متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع
مسموع فيما لا يمنع منه العقل لأن الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل
والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كل
عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون فبلغهم رسالته وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم
كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به
ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن
عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لأن الرغبة تبعث على الطاعة
والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن
معصية ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة . وكان ما تخلل كتابه
من قصص الأنبياء السالفة وأخبار الفرون الخالية عظة واعتبارا تقوى
معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا
فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى . ثم جعل الى رسوله
صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق
ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة
التفويض اليه . قال الله تعالى : « وأنزّلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل
اليهم ولعلهم يتفكرون » ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار الى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد
فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم

قال الله تعالى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» وقال الله تعالى: «وما يعلم تأويله الا الله والراستخون في العلم» فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «القرآن أصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمة المجتمعة حجة على من شذ عنها» وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده أن أقدرهم على ما كفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد أعاده لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي . قال الله تعالى: «لا يكلف الله نفسا إلّا وسعها» وقال: «وما جعل عليكم في الدين من حرج» . وجعل ما كفهم به ثلاثة أقسام قسما أمرهم باعتقاده وقسما أمرهم بفعله وقسما أمرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على فعله حكمة منه ولطفًا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما إثباتا وقسما نفيا . فأما الإثبات فإثبات توحيده وصفاته وإثبات بعثه رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذا القسمان أول ما كلفه العاقل . وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام: قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما في أموالهم كالزكاة والكنفارة وقسما على أبدانهم وفي أموالهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخفف عنهم أداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم . وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام: قسما لآحياء نفوسهم وصالح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الجبائث وشرب الخمر المؤذية الى فساد العقل وزواله وقسما لآتلافهم وإصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضي الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا

وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به . فهل يجد العاقل في رويته
 مساغا أن يقصر فيما أمر به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة في ارتكاب
 ما نهى عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فأهملها
 مع شدة فاقته اليها الا مذموما في العقل مع ما جاء من وعيد الشرع . ثم
 من لطفه بخلفه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فریضة
 نفلا وجعل لهم من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة
 عشرة ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه . ومن لطيف
 حكمته أن جعل لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز رفقا منه
 بخلقه لما سبق في علمه أن فيهم العجل المبادر والبطيء المتثاقل ومن
 لا صبر له على أداء الاكمل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير
 قادح في فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن
 نظره اليها فكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم
 عبادات الأبدان وقد قدمها على ما يتعلق بالأموال لأن النفوس على
 الأموال أشبع وبها يتعلق بالأبدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم
 الصلاة على الصيام لأن الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة
 على خضوع له وابتهاال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهاال اليه رغبة
 فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم الى صلاته
 فأنما يناجي ربه فلينظر بهم يناجيه » . وروى عن علي بن أبي طالب
 رضى الله عنه أنه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة أصفّر مرة وأحمر
 أخرى فقليل له في ذلك فقال : أتنتي الأمانة التي عرضت على السموات
 والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها ولا أدري أسيء
 فيها أم أحسن . ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وإزالة نجس
 ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لأداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه
 المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه

ثم علقها بأوقات راتبة وأزمان مترادفة ليكون ترادف ازمانها وتتابع أوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له والابتهاال اليه فلا تنقطع الرغبة منه ولا الرغبة فيه وإذا لم تنقطع الرغبة والرغبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرغبة يكون أستيفائها على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «الصلاة ميكال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطغفين» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من هانت عليه صلاته كان على الله عز وجل أهون» . وأنشدت لبعض الفصحاء في ذلك :

أقبل على صلواتك الخمس كم مصبح وعساء لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة تمحو ذنوب صحيفة الأمس
فليفعلن بوجهك الغض البلي فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الأموال لتعلق الصيام بالأبدان وكان في إيجابه حث على رحمة الفقراء وإطعامهم وستد جوعاتهم لما عانوه من شدة المجاعة في صومهم . وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام : لم تجوع وأنت على خزائن الأرض فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . ثم لما في الصوم من قهر النفس وإذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها وإشعار النفس ما هي عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه إلهين من دونه فقال : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كما يأكلان الطعام » بفعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن أن يكونا إلهين . وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى في قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال مسكين ابن آدم محتوم الأجل مكتوم الأمل مستور العلل

يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه
تؤذيه البقة وتتذنه العرقة وتقتله الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا
ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. فانظر الى لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام
علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ونفع
النفوس به ولم تكن لولاه متنتعة ولا نافعة

ثم فرض زكاة الأموال وقدمها على فرض الحج لأن في الحج مع
إنفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة أسرع إجابة منها الى
الحج فكان في إيجابها مواساة للفقراء ومعوونة لذوى الحاجات تكفهم
عن البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لأن الآمل
وصول والراجى هائب واذا زال الآمل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة
وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين أرباب الأموال
والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء حتى تفضى الى
التغالب على الأموال والتغريب بالنفوس. هذا مع ما في أداء الزكاة من تمرين
النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لأن السماحة تبعث على
أداء الحقوق والشح يصدد عنها وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به
حمدا وما صد عنها فأخلق به ذما . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن
خالع » . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته وأخفى عن فطنتنا جزيل
نعمته حتى استوجب من الشكر باخفاءها أعظم مما استوجبه بابدائها

ثم فرض الحج فكان آخرفروضه لأنه يجمع عملا على بدن وحقا
في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الأبدان وفروض الأموال
ليكون استثناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين
النوعين فكان في إيجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والأهل وخضوع
العزیز والدليل في الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة

منه والرغبة اليه وإقلاع اهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على ما أسلفوه فقلّ من حجّ الا وأحدث توبة من ذنب وإقلاعا من معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها» وهذا صحيح لأن الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه أنبا عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضى قبول حجتة ثم نبه بما يعانى فيه من مشاق السفر المؤدى اليه على موضع النعمة برفاهة الإقامة وأنسة الأوطان ليحنو على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل ثم أعلم بمشاهدة حرمه الذى أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التى أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المتقطع ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الأرض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيزه فاعتبر ألهمك الله الشكر ووفقك للتقوى إنعامه عليك فيما كلفك وإحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك وأحلتك على بصيرتك بعد أن كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفيقا هل تحسن هوضا بشكره اذا فعلت ما أمرك وتقبلت ما كلفك كلا إنه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر فى المؤتلف . وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : نعم الله أكثر من أن تشرى الا ما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الا ما عفا عنه . وأنشدت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصرى رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة موجبة لشكره

فكيف شكرى برّه وشكره من برّه

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما أمرك

أوفرت فيما كلفك ونفعه أعود عليك لو فعلته هل تكون لسوانح نعمه
 الا كفورا وببداية العقول الامزجورا وقد قال الله تعالى : «يعرفون
 نعمة الله ثم ينكرونها» . قال مجاهد : أى يعرفون ما عّد الله عليهم من
 نعمه وينكرونها بقولهم إهمم ورثوها عن آبائهم أو اكتسبوها بأفعالهم .
 وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يقول الله يابن آدم
 ما أنصفتني أتحبب اليك بالنعم وتثقت اليّ بالمعاصي خيري اليك نازل
 وشرك اليّ صاعدكم من ملك كريم يصعد اليّ منك بعمل قبيح» . وقال
 بعض صلحاء السلف قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصىه مع
 كثرة ما نعصيه فلا ندري أيهما نشكر أجمل ما ينشر أم قبيح ما يسترحق
 على من عرف موقع النعمة أن يقبلها ممثلا لما كلف منها وقبولها يكون
 بأدائها ثم يشكر الله تعالى على ما أنعم به من إسداءها فان بنا من الحاجة
 الى نعمه أكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن أدبنا حق النعمة
 في التكليف تفضل بإسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان
 ومن لزمته النعمتان فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد على
 الاطلاق وإن قصرنا في أداء ما كلفنا من شكره قصرنا ما لا تكليف
 فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ
 الدنيا والآخرة فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي
 بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذولب صحيح ولا عقل
 سليم . وقد قال الله تعالى : «ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من
 يعمل سوءا يجز به» . وروى الأعمش عن مسلم قال : قال أبو بكر الصديق
 رضى الله عنه يا رسول الله ما أشد هذه الآية «من يعمل سوءا يجز به» فقال :
 يا أبا بكر إن المصيبة في الدنيا جزاء . واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى :
 «سنعذبهم مرتين» فقال بعضهم : أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني
 عذاب القبر : وقال عبد الرحمن بن يزيد : أحد العذابين مصائبهم في الدنيا

في أموالهم وأولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش أو أدركوا أمنية من الدنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة . وروى ابن لهيعة عن عقبة ابن مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله تعالى يعطى العباد ما يشاؤون على معاصيهم إياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون »

فأما المحرمات التي يمنع الشرع منها وآستقر التكليف عقلا أو شرعا بالنهاي عنها فتنقسم قسمين : منها ما تكون النفوس داعية إليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل إليها بنوعين من الزجر . أحدهما حد عاجل يرتدع به الجريء والثاني وعيد آجل يزدجر به التقى . ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كأكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لأن النفوس مستعدة في الزجر عنها والشهوات مصروفة عنها وعن ركوب المحظور منها . ثم أكد الله زواجه بانكار المنكرين لها فأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون الأمر بالمعروف تأكيداً لأوامره والنهي عن المنكر تأييداً لزواجه لأن النفوس الأشره قد ألهمتها الصبوة عن اتباع الأوامر وأذهلتها الشهوات عن تذكار الزواجر فكان إنكار المجانسين أزجر لها وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أقر قوم المنكرين أظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر » . وإذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من أمرين : أحدهما أن يكونوا آحادا متفرقين وأفرادا متبدين لم يتحزبوا فيه ولم يتضافروا عليه وهم رعية مهجورون وأفذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيم

عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه وسمعه من قائله وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لأنه لما وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح وجب أيضا بالعقل أن يمتنع غيره منه لأن ذلك أدعى الى مجانبته وأبلغ في مفارقتها . وقد روى عبدالله بن المبارك رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قوما ركبوا سفينة فافتسموا فأخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا : ماتصنع فقال : هو مكانى أصنع فيه ماشئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا . وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لو أوجب النهي عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار أهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لأن واجبات العقول لا يجوز إبطالها بالشرع وفي ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لانكاره فأما اذا كان في ترك إنكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب إنكاره بالعقل على القولين معا فأما إن لحق المنكر مضرة من إنكاره ولم تلاحقه من كفه وإقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلأنه يمتنع من اجتلاب المضار التي لا يوازئها نفع وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلمك وذلك أضعف الايمان » فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن إظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا إظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشى بغالب الظن تلقا أو ضررا ولم يحسن منه النكير أيضا وإن كان في إظهار النكير إعزاز دين الله تعالى وإظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وإن لم يجب عليه

إذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وإن انتصر أو قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من أفضل الأعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائر » فاما إذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل أن يتعرض لإنكاره وكذلك لو كان الإنكار يزيد المنهى إغراء بفعل المنكر ولحاجا في الآثار منه قبح في العقل إنكاره . والحالة الثانية أن يكون فعل المنكر من جماعة قد تضافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت إليه فقد اختلف الناس في وجوب إنكاره على مذاهب شتى : فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار : لا يجب إنكاره والأولى بالإنسان أن يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر ولا مستغفر . وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر : لا يجب إنكاره ولا التعرض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيمتولى إنكاره بنفسه ويكونوا حينئذ أعوانه . وقالت طائفة أخرى منهم الأصم : لا يجوز للناس إنكاره الا أن يجتمعوا على إمام عدل فيجب عليهم الإنكار معه . وقال جمهور المتكلمين : إنكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه من وجود أعوان بصاحون له فأما مع فقد الأعوان فعلى الإنسان الكف لأن الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له . فهذا حكم ما أكد الله تعالى به أوامره وأيد به زواجره من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال الأمرين به والناهين عنه . ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال : فمنهم من يستجيب إلى فعل الطاعة ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي أكل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين . روى محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت

وكما تدين تدان» وقد قيل : كل يحصد ما يزرع ويحزى بما يصنع بل قالوا : زرع يومك حصاد غدك . ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي أخبت أحوال المكلفين وشر صفات المتعبدین فهذا يستحق عذاب الالهى عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة : عجبت لمن يحمى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحمى من المعاصي مخافة النار فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

جسمك قد أفنيته بالحملی دهرًا من البارد والحر
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصي حذر النار

وقال ابن ضبارة : إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى . وقال آخر : اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه . وقيل للفضيل بن عياض رضى الله عنه : رضى الله عنك . فقال : كيف يرضى عنى ولم أرضه . ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجترئ لأنه نورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وإن سلم من التقصير فى فعل الطاعة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أقلعوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله فيدعكم هتًا بئًا» (المت الكسر والبت انقطع) ولذلك قال بعض العلماء : أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تنزل الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد : عجبت لمن يحمى من الأطمعة لمضراتها كيف لا يحمى من الذنوب لمعراتها . وقال بعض الصالحاء : أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : ما أعجب الأشياء فقال : قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه . وقال بعض الألباء : يدل بالطاعة العاصي وينسى عظيم المعاصي . وقال رجل لابن عباس

رضى الله عنهما : أيما أحب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل
أو رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنهما :
لا أعدل بالسلامة شيئا . وقيل لبعض الزهاد : ما تقول فى صلاة الليل
فقال خف الله بالنهار ونم بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم :
أهلكم النوم فقال : بل أهلككم اليقظة . وقبل لأبى هريرة رضى الله
عنه : ما التقوى فقال : أجرت فى أرض فيها شوك ؟ فقال : نعم فقال :
كيف كنت تصنع ؟ فقال : كنت أتوقى قال : فتوق الخطايا . وقال
عبد الله بن المبارك :

أيضمن لى فتى ترك المعاصى وأرهنه الكفالة بالخلاص

أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصى

ومنه من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصى
فهذا يستحق عذاب الالهى عن دينه المنذر بقلة يفيئه . وروى
أبو إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى
الله عليه وسلم أنه قال : « كانت صحف موسى على نبينا وعليه السلام
كلها عبرا عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر
ثم يتعجب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن اليها
وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا
ثم لا يعمل » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجتهدوا
فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى » وهذا واضح المعنى
لأن الكف عن المعاصى ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو
أثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر
لأنه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وانما أباح ترك الأعمال بالأعذار
لأن العمل قد يعجز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله : رحم الله
أمرأ كان قويا فأعمل قوته فى طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا

فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى رحمه الله تعالى :

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عثرات النقي فيعود
هل يستطيع مجحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيته فيشتمى تقليلها وعن الممات يحيد
واعلم أن لأعمال الطاعة ومجانبة المعاصي آفتين : إحداهما تكسب
الوزر . والأخرى توهن الأجر . فأما المكسبة للوزر فاعجاب بما
سلف من عمله وقدم من طاعته لأن الاعجاب به يقضى الى حاليتين
مذمومتين : إحداهما أن المعجب بعمله ممتنّ به والممتنّ على الله تعالى
جاحد لنعمه فال ابن عباس رضى الله عنهما : أوحى الله تعالى الى نبيّ
من أنبيائه أما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك
الىّ فهو عزّ لك فهذه لك وبقيت أنا . والثانية أن المعجب بعمله
مدل به والمدلّ بعمله مجترئ والمجترئ على الله عاص . وقال مؤرق
العجلى : خير من العجب بالطاعة أن لا تأتى بطاعة . وقال بعض السلف :
ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربه وباك نادم على ذنبه
خير من ضاحك معترف بلهوه . وأما الموهنة للأجر فالثقة بما أسلف
والركون الى ما قدّم لأن الثقة تؤلّ الى أمرين : أحدهما يحدث اتكالا
على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر وانكل لم يرج أجرا
ولم يؤدّ شكرا . والثانى أن الواثق آمن والأمن من الله تعالى غير خائف
ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أوامره وسهلت عليه زواجه .
وقال الفضيل بن عياض : رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله
تعالى . وقال مؤرق العجلى : لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب الىّ
من أن أبيت قائما وأصبح ناعما . وقال الحكماء : ما بينك وبين أن
لا يكون فيك خير إلا أن ترى أن فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية

رحمها الله : هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك قالت : إن كان شيء نخوفى من أن يردّ علىّ عملي . وحكى أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى بأعلى صوته : يا معشر الأغنياء لكم أقول : استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة يا معشر الفقراء لكم أقول : أقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة . فينبغى — أحسن الله اليك بالتوفيق — أن لاتضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدّا ولا مافات مستدركا وللغراغ زيع أو ندم وللخلوة ميل أو أسف . وقال عمر بن الخطاب : الراحة للرجال غفلة وللنساء غلظة . وقال بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدا فالغراغ مفسدة . وقال بعض الحكماء : إياكم والخلوات فانها تفسد العقول وتعدّد المحاول . وقال بعض الباغاء : لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنعة فالعمر أقصر من أن ينفد في غير المنافع والمال أقل من أن يصرف في غير الصنائع والعافل أجل من أن ينفى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره . وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : البر ثلاثة : المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقا في غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها

واعلم أن للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث أحوال : إحداها أن يستوفيهما من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها . فأما الحال الأولى فهي أن يأتي بها على حال الكمال من غير تقصير فيها ولا زيادة تطوع على راتبها فهي أوسط الأحوال وأعدلها لأنه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد ابن أبي سعيد رضى الله عنه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال : «سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال : إحداها أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله» . والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمساححة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذنبا والرجاء عتة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا أنه سيجده في المفاوز الجذبة فيفضي به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه . وحكى أن اسراييل بن محمد الغاضي قال : لقيني مجنون كان في الحروب فقال : يا اسراييل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفز الى الله ولا تنترمه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله : ألا تبكي ؟ فقال : تلك حامية الآمين . وحكى أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للذنين فقال سليمان : أين رحمة الله ؟ قال : قريب من المحسنين . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما : ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أما بعد فان الانسان ليسرّه درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن

من يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل فكأن قد والسلام .
وقال محمود الوراق رحمه الله :

أخاف على المعسن المتقي وأرجو لذى الهفوات المسى
فذلك خوفاً على محسن فكيف على الظالم المعتدى ؟
على أن ذا الزيع قد يستفيق ويستأنف الزيع قاب التقي

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفى ما أدخل به من بعد فيبدأ
بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيناء اغتراراً بالأمل في إهماله
ورجاء لتلافي ما أسلف من نقصه وإخلاله فلا ينتهي به الأمل الى
غاية ولا يفضى به الى نهاية لأن الأمل هو في ثاني حال كهو في أول
حال . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يؤمل
ان يعيش غدا فإنه يؤمل أن يعيش أبداً » ولعمري إن هذا صحيح
لأن لكل يوم غدا فاذن يفضى به الأمل الى الفوت من غير درك
ويؤديه الرجاء الى الإهمال من غير تلاف فيصير الأمل خيبة والرجاء
يأساً . وقد روى عمرو بن سعيد عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين وفسادها
بالبخل والأمل » وقال الحسن البصري رحمه الله : ما أطال عبد الأمل
إلا أساء العمل . وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة : ألك حاجة ببغداد ؟
قال : ما أحب أن أبسط أجلي الى أن تذهب الى بغداد وتجيء .
وقال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله .
وقال بعض البلغاء : الأمل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه .
وقال محمد بن زيدان : دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيت قائماً
وبيده رقعة فقال : يا محمد أقرأت ما فيها ؟ فقلت : هي في يد أمير المؤمنين
فرمى بها الى فاذا فيها مكتوب :

إنك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل

أما ترى الموت محيطا بها يقطع فيها أمل الآمل ؟
تعجل بالذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة ما ذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى : هذا من أحكم شعر قرأته .
وقال أبو حازم الأعرج : نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب
حتى نموت . وقال بعض البلغاء : زائد الامهال رائد الالهال . والحال
الرابعة أن يكون نصيره فيه استئقالا للاستيفاء وزهدا في التمام واقتصارا
على ما سنع وقلة آكثراث بما بقي فهذا على ثلاثة أضرب : أحدها
أن يكون ما أخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من عبادة
كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل
بمسنوناتها وهيئاتها فهذا مسمى فيما ترك إساءة من لا يستحق وعيدا ولا
يستوجب عقابا لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب وإخلاله بالمسنون
يمنع من إكمال النواب . وفد قال بعض الحكماء : من تهاون بالدين هان
ومن غالب الحق لان وقال الشاعر :

*
وبصون توبته ويترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ما صان الفتى ورعى أمانته ودينه

والضرب الثاني أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته لكن
لا يقدح ترك ما بقي فيما مضى كمن أكمل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ
حالا من تقدمه لما استحقه من الوعيد واستنوجه من العقاب .
والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو قادح
فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المفصر في بعضها
تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لإخلاله بما بقي فهذا أسوأ أحوال
المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا
ولا يؤدي حقا فقد ساءى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم

فى تكلف ما لا يفيد فصار من الأخرىن أعمالا الذىن ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لعله لا يظن لشانه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويظن لليسير من ماله إن وهى واختل .
وأنشدنى بعض أهل العلم :

أبىّ إن من الرجال بهيمة فى صورة الرجل السميع المبصر
ظن بكل مصيبة فى ماله واذا يصاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام :
أحدها أن تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويندلس فى الأخيار وهو ضدهم وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للرأى بعمله مثلاً فقال : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبى زور هو الذى يلبس ثياب الصلحاء فهو بريائه محروم الأجر مذموم الذكر لأنه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياءؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » قال جميع أهل التأويل : معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحداً أى لا يرأى بعمله أحداً بفعل الرياء شركاً لأنه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصوداً به غير الله تعالى .
وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » قال : لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياة . وكان سفيان ابن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » أن العدل استواء السرية والعلائية فى العمل لله تعالى والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان

غيره يقول العدل شهادة أن لا إله الا الله والاحسان الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وإيتاء ذى القربى صلة الأرحام وينهى عن الفحشاء يعنى الزنا والمنكر القبائح والبعى الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالأعمال من هذا التأويل أيضا لأنه من جملة القبائح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه » . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا تعمل شيئا من الخير رياء ولا تتركه حياء . وقال بعض العلماء : كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء . وقد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي : منذ كم صرت الى العراق يا أبا عبد الله قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال : يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين . وحكى الأصمعي رحمه الله : أن أعرا بيا صلى فأطال والى جانبه فوم ففألوا : ما أحسن صلاتك ! فقال : وأنا مع ذلك صائم ! صلى فأعجبني وصام فرابنى نخ القلوص عن المصلى الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على سخف غفل صاحبه . وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذى حكى أن زاهدا نظر الى رجل فى وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال : مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال : إنه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التى يدفع بها تهجين المذمة . ولقد استحسّن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خففت صلاتك جدّا فقال : انه لم يخالطها رياء فتخلص من تقيصهم بنفى الرياء عن نفسه ورفع التصنع فى صلاته

وقد كان الإنكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به . ومتر أبو أمامة
 ببعض المساجد فاذا رجل يصلى وهو يبكى فقال له : أنت أنت لو كان
 هذا فى بيتك فلم يرد ذلك منه حسنا لأنه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه
 فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته وأشهر سماته مع أنه أثم فيما عمل
 وأثم من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال عبدالله بن المبارك : أفضل
 الزهد إخفاء الزهد وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراءاة
 فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراءاة فكان ذلك أبلغ
 فى فضله وقال عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعب القرظى عظمي : . فقال :
 لا أرضى نفسى لك واعظا لأنى أجلس بين الغنى والفقر فأميل على
 الفقر وأوسع للغنى ولأن طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه لا لغيره .
 وحكى أن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهاوا الى راهب فقالوا :
 قد ضللتنا فكيف الطريق فقال : ههنا وأوما بيده الى السماء

والقسم الثانى أن يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد ثمره مجالسة
 الأخيار الأفاضل وتحديثه مكاثرة الأنقياء الأماثل . ولذلك قال النبى
 صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .
 فاذا كاثروهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدى بهم فى أفعالهم
 ويتأسى بهم فى أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون
 فى الخير دونهم فتبعته المنافسة على مساواتهم وربما دعتهم الحمية الى الزيادة
 عليهم والمكاثرة لهم فيصرون سببا لسعادته وباعثا على استرادته والعرب
 تقول : لولا الوئام لهلك الأنام أى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضا
 فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء : من خير الاختيار
 صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار وهذا صحيح لأن للمصاحبة
 تأثيرا فى اكتساب الأخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل
 الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعلمهم داء الفساد إذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد
وأشددني بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزمي :
لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد
والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة
في الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعي الرغبة الوافية
الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاميين
وأعلى منازل العابدين وقد قيل : الناس في الخير أربعة : منهم من يفعله
ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من
يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم
ومن تركه استحسانا فهو رديء ومن تركه حرمانا فهو شقي . ثم لما يفعله
من الزيادة حالتان : إحداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام
عليها فهي أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقراض أخيار السلف
وتتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضي الله عنها أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : «أيها الناس افعلوا من الأعمال ما نطبقون فإن
الله لا يملّ من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه»
والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد . ولأن من كان صحيح
الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا في طاعته . وقال عبد الله
ابن المبارك قلت لراهب : متى عيدكم ؟ قال : كل يوم لا أعصى الله فيه فهو
يوم عيد . أنظر الى هذا القول منه وإن لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه
في حب الطاعة وأحثه على بذل الاستطاعة . وخرج بعض الزهاد
في يوم عيد في هيئة رثة فقيل : لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه
الهيئة والناس مترينون ؟ فقال : ما يترين لله تعالى بمثل طاعته . والحالة الثانية

أن يستكثر منها استكثر من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لأن الاستكثر من الزيادة إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الاتقصيرا لأنه تطوع بزيادة أحدثت نقصا وبمنع فرضا وإما أن يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثر من غير إخلال بالازم ولا نقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة اللبث والتليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قليل الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقل في الزمان الطويل مستيقظ الأفكار مستديم التذكار . وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن أشير اليه بالأصابع فلا تعدوه » فجعل للاسلام شرة وهي الايغال في الاكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثر فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيرا أو إخلالا ولا خير في واحد منهما . واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعلبك والحق قائدا لك واليك أن الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن بفجعاتها فقد قيل : المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وإن طال قصير والفراغ وإن تم يسير . وأنشدت لعل بن محمد رحمه الله تعالى :

إذا كملت للراء ستون حجة فلم يحظ من ستين الابدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل وتذهب أوقات المقييل بنجسها
فتأخذ أوقات الموموم بحصة وأوقات أوجاع تميم بمسها
فخاصل ما يبق له سدس عمره اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب :

(فالحالة الأولى) أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكن آمنا لها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التلذذ منها بشغل لا يفرغ عنه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه » . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : الدنيا لابليس مزرعة وأهلها له حراث . وقال علي بن أبي طالب : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وإن سكن منها الى إيناس أزاله عنها إيحاش . وقال بعض البلغاء : الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تحلى من محنة فأعرض عنها قبل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فان نعيمها يتقل وأحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى : وقال بعض الحكماء : انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها . وقال بعض الشعراء :

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالأمس لذة فأفنيتمها هل أنت إلا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها » . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام : يا موسى أعرض عن الدنيا وانبذها

وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وإنما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا : أولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتر ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بها بصرتة . وقال بعض البلغاء : إن الدنيا تقبل إقبال الطالب وتدبر إدبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول تغيرها يسير وعيشها قصير وإقبالها خديعة وإدبارها بغيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان واتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين إن أرضيت إحدهما أسخطت الأخرى . وقال عبد الحميد : الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء : الدنيا إما قمة نازلة وإما نعمة زائلة وقيل في منشور الحكم : من الدنيا على الدنيا دليل . وقال الشاعر :

تمتع من الأيام إن كنت حازما فامك منها بين ناد وآمر
إذا أبت الدنيا على المرء دينه فما فانه منها فليس بصائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن ذر من جناح لطائر
فما رضى الدنيا ثوبا للمؤمن ولا رضى الدنيا جرا لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول وأعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول » . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم . وقال علي بن أبي طالب : لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان أعطى منها لم يشبع وإن

منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتي ويتغنى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتى يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الطالحين وهو منهم . وقال الحسن البصري : الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو رنج . وقال بعض العلماء : إن الدنيا كثيرة التغير سريعة التنكسر شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء : الدنيا إما مصيبة موجعة وإما منية مفاجئة . وقال الشاعر :

خلّ دنياك إنها يعقب الخير شرها
هى أم تعق من نسلها من يبرها
كل نفس فاتها تبتغى ما يسرها
والمأيا تسوقها والأمانى تغرها
فاذا استحلت الجنى أعقب الحلومها
يستوى فى ضريحه عبد أرض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت آعترضتها منها بثلاث خلال : إحداهن أن تكفى إشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة . والثانية أن تأمن الاعتراض باللاهية فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهى بها مغرور والمغرور فيها مذعور . والثالثة أن تستريح من تعب السعى فذا ووصب الكد فيها فان من أحب شيئاً طلبه ومن طلب شيئاً كد له والمكدود فيها شقى إن طفر ومحروم إن حاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكعب : يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها وموبق نفسه فموتقها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام : تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للاخرة وأنتم لا ترزقون فيها الا بعمل . وقال بعض البلغاء : من نكد

الدنيا أن لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحاله تصلح جانباً بإفساد جانب وتسرع صاحباً بمساءة صاحب فالركون إليها خطر والثقة بها غرر . وقال بعض الحكماء : الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا يأتى على شيء الا غيره . ولمن عاش حاجة لا تنقضى . ولما بلغ مزدك من الدنيا أفضل ما سمى اليه نفسه نبذها وقال : هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم ومملك لولا أنه هلك وغناء لولا أنه فناء وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه مئى وارتفاع لولا أنه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد . وقال بعض الحكماء : قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت وقال أبو العتاهية :

هى الدار دار الأذى والقذى ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذاقيرها لمت ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير فى العيش بعد الكبر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هماً مقيداً أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر . وحكى أن الله تعالى أوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام أن هب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فانى قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : أوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه . وقال بعض البلغاء : زد من طول أملك فى قصر عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها

ثم طلبها فقد اخطأ الطريق وحرّم التوفيق . وقال بعض الحكماء :
لا يؤمنك إقبال الدنيا عليك من إدارها عنك ولا دولة لك من إدالة
منك . وقال آخر : ما مضى من الدنيا كما لم يكن وما بقى منها كما قدمضى .
وقيل لزاهد : قد خلعت الدنيا فكيف سحّت نفسك عنها فقال : أيقنت
أنى أخرج منها كارها فرأيت أن أخرج منها طائعا . وقيل لحرقة بنت
النعمان : مالك تبكين ؟ . فقالت : رأيت لأهلى غضارة ولم تمتلى دار فرحا
الا امتلأت ترحا . وقال ابن السماك : من جرعت الدنيا حلاوتها بميله
اليها جرعتة الآخرة مرارتها لتجافيه عنها . وقال صاحب كيلة ودمنة :
طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر
ابن عبد العزيز يمتثل بهذه الأبيات :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليك نوم والأسى لك لازم
تسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى كما سرّ بالذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكدره غبه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه : لا أراك الله مكروها فقال : كأنك
دعوت على صاحبك بالموت إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن
يرى مكروها . وقال أبو العتاهية :

إن الزمان ولو يلىن لأهله لمخاشن

خطواته المتحركا ت كأنهن سواكن

(والحالة الثانية) من أحوال رياضتك لها أن تصدق نفسك فيما منحتك
من رغائبها وأمالك من غرائبها فتعلم أن العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها
مستردة بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار وصولها اليك وخسران
خروجها عنك . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
«لاتزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث شبابيه فيما أبلاه وعمره فيا
أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه» . وروى عن عيسى بن مريم

عليه السلام أنه قال : في المال ثلاث خصال . قالوا : وما هن يا روح الله . قال : يكسبه من غير حله . قالوا : فإن كسبه من حله . قال : يضعه في غير حقه . قالوا : فإن وضعه في حقه . قال : يشغله عن عبادة ربه . ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال : يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال : تنظر ما عندك فلا تضعه إلا في حقه وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه قال : ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال : فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين . وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال : من الغنى دهيتم . ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئاً يفعدون عليه فقال : لو كانت الدنيا دار مقام لا تأخذنا لها أثاثاً . وقيل لبعض الزهاد : الاتوصى قال بماذا أوصى والله ما لنا شيء ولا لنا عند أحد شيء ولا لأحد عندنا شيء . أنظر إلى هذه الراحة كيف تعجلها وإلى السلامة كيف صار إليها ولذلك قيل : الفقير ملك ليس فيه محاسبة . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام : ألا تتروج ؟ فقال : إنما نحب التكاثر في دار البقاء وقيل : لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حماراً فقال : أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم حمار . وقيل لأبي حازم رضى الله عنه : ما مالك ؟ قال شيئان : الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له : إنك لمسكين فقال : كيف أكون مسكيناً ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؟ . وقال بعض الحكماء : رب مغبوط بمسرة هي دأؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه . وقال بعض الأدباء : الناس أشنات ولكل جمع شتات . وقال بعض البالغاء : الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثراء ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة . وقال بعض الشعراء :

رب مغروس يعاش به عدمته عين مغترسه

وكذلك الدهر ماتمه أقرب الأشياء من عُرسه

فإذا رضيت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث
 خلال : إحداهنّ نصيح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد
 اعتمدت عليك فإن غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون . والثانية الزهد
 فيما ليس لك لتكفي تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه . والثالثة اتهاز
 الفرصة في مالك أن تضعه في حقه وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا
 ولا يكون عليك وزرا فقد روى أن رجلا قال يارسول الله : إني أكره
 الموت قال : ألك مال قال نعم . قال : قدم مالك فإن قاب المؤمن عند ماله .
 وقالت عائشة رضی الله عنها : ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يارسول الله :
 ما بقي الا كتنها قال : كلها بقي الا كتنها . وحكى أن عبدالله بن عبيد الله
 ابن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين ألف درهم فقبل له : اتخذ لولدك
 من هذا المال ذخرا فقال : أنا أجعل هذا المال ذخرا لي عند الله عز وجل
 وأجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بها . وعوتب سهل بن عبدالله المروزي
 في كثرة الصدقة فقال : لو أن رجلا أراد أن يبتذل من داراني دار
 أكان يبقى في الأوى شيئا . وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : ما لنا
 نكره الموت ؟ قال : لأنكم أحربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا
 من العمران الى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر : ترك زيد بن خزيمة
 مائة ألف درهم فقال : لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصري رحمه الله :
 ما أنعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه
 السلام فان الله تعالى قال له : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب »
 وقال أبو حازم : إن عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد مازوى عنا .
 وقال بعض السلف : قدموا كالا ليكون لكم ولا تخلعوا كالا فيكون عليكم .
 وقال ابراهيم : نعم القوم السؤال يدقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة
 شيئا . وقال سعيد بن المسيب : مربي صلة بن أشيم فما تمالك أن

نهضت اليه فقلت : يا أبا الصهباء ادع لى فقال : رغبت الله فيما بقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لا تسكن النفس الا اليه ولا يعول فى الدين الا عليه . ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال : وددت أنى كنت غسالا لأعيش الابد أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه ولا ننحنى نحن عنده ما هم فيه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا بن آدم من مالك الا ما أكلت فأفנית أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت . وقال خالد بن صفوان : بت ليلتى أتمنى فكسبت البحر الأخضر والذهب الأحمر فاذا يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطمران . وقال مؤرق العجلي : يا بن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك . وقال أبو حازم : إنما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وإيا وهم من غد على وجل وإنما هو اليوم فماعسى أن يكون . وقال بعض السلف : تعز عن الشيء اذا منعته ثقله ما يصحبك اذا أعطيته . وقال بعض الحكماء : من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر : ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها أهون من رفضها بعد ملابتها . وقال آخر : ليكن طلبك الدنيا اضطرارا وتذكرك فى الأمور اعتبارا وسعيك لمعادك آبتدارا . وقال آخر : الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود . وقال آخر : من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى . وقال آخر : من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال أبو الغتاهية :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغثت عن شىء فدعه وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الأصمعي رحمه الله قال : دخلت على الرشيد رحمه الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرني قال : أرأيت ما كان مني ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى إلى بالقرطاس فإذا فيه شعر أبي العتاهية رحمه الله تعالى :

هل أنت معتبر بمن خربت منه غداة قضى دسا كره
وبمن أذل الدهر مصرعه ففبرأت منه عسا كره
وبمن خلت منه أسرته وتعطلت منه منابره
اين الملوك وأين عزهم ؟ صاروا مصيرا أنت صائره !
يامؤثر الدنيا لذته والمستعد لمن يفاحره :
نل ما بذاك أن تنال من الدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمه الله عليه : والله لكأني أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله . ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الأمل أجلا قصيرا ولا ينسبك موتا ولا نشورا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه : «أيها الناس إن الأيام تطوى والأعمار تفتنى والأبدان تبلى وإن الليل والنهار يترا كضمان كتر اكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات» وقال مسعر : كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره . وقال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم : من أكيس الناس قال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الأيكاس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : كتمانون كذلك تموتون

وكما تستيقظون كذلك تبعثون . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :
أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم وبادروا الموت
الذي إن هربتم أدرككم وإن أقمتكم أخذكم . وقال العلاء بن المسيب :
ليس قبل الموت شيء إلا والموت أشد منه وليس بعد الموت شيء إلا
والموت أسمر منه . وقال بعض الحكماء : إن للباقي بالماضي معتبرا وللآثر
بالأول مزدجرا والسعيد لا يركن إلى الخلد ولا يغتر بالطمع . وقال
بعض الصالحاء : إن بقاءك إلى فناء وفناءك إلى بقاء نخذ من فناءك الذي
لا يبقى لبقاءك الذي لا يفنى . وقال بعض العلماء : أئمة عيش يطيب
وليس للموت طيب . وقال بعض البلغاء : كل امرئ يجري من عمره
إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله وتتطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك
لنفسك وقس يومك بأمسك وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل
أن تستوفي مدة الأجل وتقصّر عن الزيادة في السعي والعمل . وقيل
في منشور الحكم : من لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال أبو العاتية .

ما للمقابر لا تحيب ما إذا دعاهن الكئيب
حفر مستقفة عليهن* الجنادل والكئيب
فيهن ولدان واط قال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن نفسى بفرقه تطيب
غادرته في بعضهن* مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وإنما عهدى برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال : أقلل من الدنيا تعش حرا
وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فإن العرق
دساس . وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى : عظمي وأو جز
فقال : اعلم أنك أول خليفة يموت . وعزى أعرابي رجلا عن ابن صغير
له فقال : الحمد لله الذي نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من

الخطر. وقال بعض السلف : من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة. وقال بعض الصالحاء : استغنم تنفس الأجل وإمكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعال فانك في أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود. وقال بعض الحكماء : الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المخذور . وقال بعض البلغاء : اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك . وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

غتر جهولا أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر قد غاب عنه أوله ؟
والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله

(وقال أبو العتاهية)

لأننا من الموت في لخط ولا نفس وإن تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس
فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث
خلال : إحداها أن تكفى تسويق أمل يردك وتسويل محال يؤذك
فان تسويق الأمل غرار وتسويل المحال ضرار . والثانية أن تستيقظ
لعمل آخرتك وتغنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمله واستقل
أجله حسن عمله . والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص
ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق أمرا توطأ
لحلوله فهان عليه عند نزوله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال لأبي ذر : نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك .
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبي ذر رضى الله عنه : عظمى فقال :

أرض بالقوت وخف من القوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت .
وقال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه : ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه
بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلتن كنا مقترين إنا لالحق ولئن كنا
جاحدين إنا لهلكى . وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه : نهارك ضيفك
فأحسن اليه فانك ان أحسنت اليه ارتحل بمحمدك وان أسأت اليه
ارتحل بذكك وكذلك ليلى . وقال الجاحظ فى كتاب البيان وجد مكتوبا
فى حجر : يابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من أجلك لزهدت فى طويل
ما ترجو من أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك
وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زات بك قدمك أسلمك أهلك
وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب . ولما حضر بشر
ابن منصور الموت فرح فقيل له : أتفرح بالموت فقال : أتجعلون قدومى
على خالق أرجوه كقمامى مع مخلوق أخافه . وقيل لأبى بكر الصديق
رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه : لو أرسلت الى الطبيب ؟
فقال : قد رآنى . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال انى فعال لما أريد . وقيل
للربيع بن خيثم وقد اعتل : ندعوك بالطبيب قال : قد أردت ذلك
فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت أنه
كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا . وسئل أنوشروان : متى يكون
عيش الدنيا ؟ ألد قال : اذا كان الذى ينبغى أن يعمل فى حياته معمولا .
وقال بعض الحكماء : من ذكر المنية نسى الامنية . وقال بعض الأدباء :
عن الموت تنسل وهو كريشة تُسل . وقال بعض البلغاء : الأمل حجاب
الأجل . وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعللى رضى الله عنه :

فلو كنا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى

ولكننا اذا متنا بعثنا ونسأل كلنا عن كل شى

(وقال بعض الشعراء)

الإنما الدنيا مقيل لراكب قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولا يدري علام قدومه ألا كل ما قدمت يبق موفرا
وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه أن أبا الدرداء رضى الله
عنه قال يا رسول الله: أوصنى فقال صلى الله عليه وسلم: «اكسب طيبا
واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى»
وكتب الربيع بن خيثم الى أخ له: قدم جهازك وافرح من زادك وكن
وصى نفسك والسلام. وقال بعض السلف: أصاب الدنيا من حذرها
وأصابت الدنيا من أمنها. ومرّ محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل:
هؤلاء زهاد فقال: ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها؟

وقال بعض الحكماء: السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه والشقي
من جمع لغيره وبخل على نفسه. وقال بعض البلغاء: لا تبت من غير
وصية وإن كنت من جسمك فى صحه ومن عمرك فى فسحه فان الدهر
خائن وكل ما هو كائن كائن. وقال بعض الشعراء:

من كان يعلم أن الموت مدركه والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستهجه يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شئ سوى التقوى به سمج وما أقام عليه منه أسمعجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا لم يدر أن المنايا سوف ترعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه: «أيها الناس إن لكم نهاية
فاتوها الى نهايتكم وإن لكم معالم فاتوها الى معالمكم وإن المؤمن بين مخافتين
أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدري ما الله قاض
فيه فليترود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة
قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذى نفس

محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة
أو النار». وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه : أمس أجل واليوم عمل
وغدا أمل . فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا :

ليس فيما مضى ولا فى الذى لم يأت من لذة لمستحليها
إنما أنت طول عمرك ما عـمـرت فى الساعة التى أنت فيها
قنع النفس بالكفاف والا طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد : ما بالك تمشى على العصا ولست بكبير ولا مريض ؟ فقال :
إنى أعلم أنى مسافر وأنها دار بلغة وأن العصا من آلة السفر . فأخذه
بعض الشعراء فقال :

حملت العصا لا الصعف أوجب حملها علىّ ولا أنى تخنيت من كبر
ولكننى ألزمت نمسى حملها لأعلمها أنى مقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة : الدنيا ساعه فاجعلها طاعة . وقال ذوالقرنين
عليه السلام : رتعا فى الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأنرجنا منها
كارهين . وقال عبد الحميد : المرء أسير عمر يسير . وقيل فى بعض المواظ :
عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصى وعجبا لمن يرجو
الثواب كيف لا يعمل . وقال بعض الحكماء : المسىء ميت وإن كان
فى دار الحياة والمحسن حى وإن كان فى دار الأموات . وقال بعض
السلف : الله المستعان على السنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف .
وقال آخر : الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقال آخر : اعملوا
لآخرتكم فى هذه الأيام التى تسير كأنها تطير . وقال آخر : الموت قصارك
نخذ من دنياك لأخرأك . وقال آخر : عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر
حتى كأنه قد غفر ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل . وقال آخر : الأيام
صحائف أعمالكم نخذوها أبجل أفعالكم . وقيل فى منشور الحكم : اقبل

نصح المشيب وإن عجل . وقيل : ما طلعت شمس الا وعظت بأمس .
وقال محمد بن بشير رحمه الله :

مضى يومك الا دنى شهيدا معذلا ويومك هذا بالفعل شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة فتن بأحسن وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد لعل غدا يأتي وأنت قعيد

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« ما رأيت مثل الجنة نام طالبا وما رأيت مثل النار نام هاربا » وقال عيسى
ابن مريم عليهما السلام : ألا إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم
يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى
آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يمت
قلوبهم وتركوا منها ما علموا أنه ستركهم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله
عنه : الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فإنه
ربما أدرك الذي يطلبه منها فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة
فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها . ودخل أبو الدرداء رضي
الله عنه الشام فقال : يا أهل الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه
فقال : ما لي أراكم تدنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون إن الذين
كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فأصبح أملهم غرورا
وجمعهم ثورا ومساكنهم قبورا

وقال أبو حازم : إن الدنيا غزت أقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم
الموت فخلقوا ما لهم لمن لا يمددهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم
فينبغي أن ننظر للذي كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناهم به فنستعمله .
ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال : باب جديد وموت عتيد ونزع شديد
وسفر بعيد . ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال : ما هذا
قالوا : مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فأعطاه جبة فقال :

صدق الله « إن سعيكم لشتى » وقال بعض الحكماء : ما أنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد في الأجر والثواب . وقال آخر : بطول الأمل تقسو القلوب وبإخلاص النية تقل الذنوب . وقال آخر : إياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والأولى . وقال آخر : قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبريسير . وقال عبد الله ابن المعتز رحمه الله :

نسير الى الآجال فى كل ساعة وأيامنا تطوى وهنّ مراحل
ولم نرمثل الموت حقاً كأنه اذا ما تخبطته الأمانى باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا فكيف به والشيب فى الرأس شامل
ترحل عن الدنيا بزد من التقى فعمرك أيام تعدّ قلائل
وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين :

فاعمل على مهل فانك ميت واكدهح لنفسك أيها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك إذ مضى وكأن ما هو كائن قد كانا (فيه إقواء)
ونظر سليمان بن عبد الملك يوماً فى المرأة فقال : أنا الملك الشاب
نقالت له جارية له :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما بدالنا منك عيب كان فى الناس غير أنك فانى

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجداء فقال : « أيها الناس كأن لموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان الذين شيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبؤهم أجدائهم وأنا كل زائهم كأننا مخلصون بعدهم قد نسينا كل واعظه وأما كل جائحه طوبى لمن سغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالف أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أدب نفسه

وحسنت خليقته وصلحت سريره طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قلة ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الأجساد الخاوية موعظة بليغة» وحضر الربيع بن خيثم في داره قبرا فكان اذا وجد في قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فمكث فيه ماشاء الله ثم يقول رب أرجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجذى فمكث كذلك ماشاء الله . وقال أبو محرز الطفاوى . كفنتك القبور مواظ الأمم السالفة . وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظايات قال : النظر الى محلة الأموات فأخذه أبو العتاهية فقال :

وعظمتك أجدات صمت ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى الحيا ة وأنت حتى لم تمت
باشامتاً بمنيتي إن المنية لم تمت
فلربما انقلب الشما ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوب قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبدة . وعن آخر : من أقل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل فى منشور الحكم : ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه . وقال بعض الحكماء : من لم يمت لم يفت . وقال بعض الصلحاء : لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله . وقال بعض العلماء : من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء : ما نقصت ساعة من أمسك الابصعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال :

إن مع الدهر فاعلمن غدا فانظر بما ينقضى مجىء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته الا وشيء يموت من جسده
ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء : كان الملك أمس أنطق

منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

كفى حزنا بدفنك ثم أنى نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا
وقال بعض الحكماء : لو كان للخطايا ريح لا فتضح الناس ولم يتحالسوا
فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح
وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم
ما تدافتم . وكتب رجل الى أبي العتاهية رحمه الله :
يا ابا إسحاق إني واثق منك بؤدك
فأعنى بأبي انت على عيبي برشدك
(فأجابه بقوله)

أطع الله بجهدك راغباً أو دون جهدك
أعط مولاك الذى تطلب من طاعة عبدك
وقال بعض الحكماء : من سره بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى
أبو العتاهية فقال :

إبن ذى الابن كلما زاد منه مشرع زاد فى فناء أبيه
ما بقاء الأب الملح عليه بدبيب البلى شباب بنيه
وفى معناه ما حكى عن زر بن حبیش أنه قال وقد حضرته الوفاة
وكان قد عاش مائة وعشرين سنة :

إذا الرجال ولدت أولادها وارتعشت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

(فأجابه بقوله)

الدار جنة عدن إن عمات بما يرضى الاله وان فترطت فالدار

هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

باب أدب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنسافذ قدرته وبالع حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر أن خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعروا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانه صفة لازمة لطبعه وخلقته قائمة في جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وخلق الانسان ضعيفا » يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز . ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزا لأن الحاجة الى الشيء افتقار اليه والمفتقر الى الشيء عاجز عنه . وقال بعض الحكماء المتقدمين : استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به . وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفما به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى وبغى القدرة لأن الطغيان مركزوز في طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد أنبا الله تعالى بذلك عنه فقال : « كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ثم ليكون أقوى الأمور شاهدا على نقصه وأوضحها دليلا على عجزه . وأنشدنى بعض أهل الأدب لابن الرومي رحمه الله :

أعيرتني بالنقص والنقص شامل؟ ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل؟
وأشهد أنى ناقص غير أنى إذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا ففى أئما هذين أنت تفضل؟
ولو منح الله الكمال ابن آدم لخلده والله ما شاء يفعل
ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته
أسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وأرشده اليها بالفطنة . قال الله
تعالى : «والذى قدّر فهدى» . قال مجاهد قدّر أحوال خلقه فهدى الى
سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود فى قوله تعالى : «وهديناه النجدين»
يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر . ثم لما كان العقل دالا على
أسباب ما تدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على
ما قسم وقدّر كيلا يعتمدوا فى الأرزاق على عقولهم وفى العجز على فطنهم
لتدوم له الرغبة والرغبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عذب هذا
المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبيلا لضلاله كما قال الشاعر :
سبحان من أنزل الأيام منزلها وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأبواب حائرة وصير العاقل التحرير زنديقا
ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به
صديقا لا زنديقا لأن من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض
ومنها ما هو مغيب حكمة استأثر الله بها . ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم : «حسن الظن بالله من عبادة الله» ثم إن الله تعالى جعل أسباب
حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل
الآخرة دار قرار وجزاء نلزم لذلك أن يصرف الانسان الى دنياه حظا
من عنايته لأنه لا غنى له عن انتزود منها لآخرفته ولا له بد من سدا الخلة
فيها عند حاجته . وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا قبل : من ترك

فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول إنما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » . قال أهل التأويل : فإذا فرغت من أمور الدنيا فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن نذبه إلى أخذ البلغة منها . وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها . وحكى مقاتل : أن إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال : يارب حتى متى أتردد في طلب الدنيا فقيل له : أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثوري رحمة الله عليه : مكتوب في التوراة إذا كان في البيت بر فتعبد وإذا لم يكن فاطلب يا بن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء : ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها . وقال بعض الأدباء : ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق :

لا تتبع الدنيا وأيامها ذما وإن دارت بك الدائر
من شرف الدنيا ومن فضلها إن بها تستدرك الآخرة

فإذا قد لزم بما بيناه النظر في أمور الدنيا فواجب سبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفي عن أهلها شبه الحيرة وتجلي لهم أسباب

الخيرة فيقصدوا الأمور من أبوابها ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها
وَأَعْلَمُ أَنَّ صَلَاحَ الدُّنْيَا مُعْتَبَرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَوَّلُهُمَا مَا يَنْتَظَمُ بِهِ أُمُورُ
جَمَلَتِهَا . وَالثَّانِي مَا يَصْلُحُ بِهِ حَالُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهَا فَهُمَا شَيْئَانِ لِاصْلَاحِ
لِأَحَدِهِمَا الْإِبْصَاحُ لِأَنَّ مِنْ صَلَاحَتِ حَالِهِ مَعَ فُسَادِ الدُّنْيَا وَاخْتِلَالِ
أُمُورِهَا لَنْ يَعدِمَ أَنَّ يَتَعَدَّى إِلَيْهِ فُسَادُهَا وَيَقْدَحُ فِيهِ اخْتِلَالُهَا لِأَنَّهُ مِنْهَا
لِسْتِمْدَ وَلَهَا لِيَسْتَعِدَّ وَمِنْ فَسَدَتْ حَالُهُ مَعَ صَلَاحِ الدُّنْيَا وَانْتِظَامِ أُمُورِهَا
لَمْ يَجِدْ لِصَلَاحِهَا لَذَةً وَلَا لِاسْتِقَامَتِهَا أَثْرًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ دُنْيَا نَفْسُهُ فَلَيْسَ
يَرَى الصَّلَاحَ إِلَّا إِذَا صَلَاحَتْ لَهُ وَلَا يَجِدُ الْفُسَادَ إِلَّا إِذَا فَسَدَتْ عَلَيْهِ
لِأَنَّ نَفْسَهُ أَخْصَ وَحَالَهُ أَمْسَ فَصَارَ نَظَرُهُ إِلَى مَا يَخْصُهُ مَصْرُوفًا وَفَكْرُهُ
عَلَى مَا يَمْسُهُ مَوْقُوفًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ قَطُّ لِجَمِيعِ أَهْلِهَا مُسْعِدَةً وَلَا
عَنْ كَافَةِ ذَوِيهَا مُعْرِضَةً لِأَنَّ إِعْرَاضَهَا عَنْ جَمِيعِهِمْ عَطَبٌ وَإِسْعَادُهَا
لِكُلِّقَتِهِمْ فُسَادٌ لِاتِّلَافِهِمْ بِالْإِخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ وَاتِّفَاقِهِمْ بِالْمُسَاعَدَةِ وَالتَّعَاوُنِ
فَإِذَا تَسَاوَى حِينَئِذٍ جَمِيعُهُمْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُهُمْ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بغيرِهِ سَبِيلًا
وَبِهِمْ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْعِجْزِ مَا وَصَفْنَا فَيَذْهَبُوا ضَيْعَةً وَيَهْلِكُوا عَجْزًا وَأَمَّا إِذَا
تَبَايَنُوا وَاخْتَلَفُوا صَارُوا مُؤْتَلِفِينَ بِالْمَعُونَةِ مُتَوَاصِلِينَ بِالْحَاجَةِ لِأَنَّ ذَا الْحَاجَةِ
وَصُولَ وَالْمُحْتَاجَ إِلَيْهِ مُوَصُولٌ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ
إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » . قَالَ الْحَسَنُ : مُخْتَلِفِينَ فِي الرِّزْقِ فَهَذَا
غَنَى وَهَذَا فَقِيرٌ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ يَعْنِي لِلْإِخْتِلَافِ بِالْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَقَالَ اللَّهُ
تَعَالَى : « وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ » غَيْرَ أَنَّ الدُّنْيَا إِذَا
صَلَحَتْ كَانَ إِسْعَادُهَا مَوْفُورًا وَإِعْرَاضُهَا مَيْسُورًا لِأَنَّهَا إِذَا مُنَحَتْ
هَنَاتٌ وَأُودِعَتْ وَإِذَا اسْتَرْدَتْ رَفَقَتْ وَأَبْقَتْ وَإِذَا فَسَدَتْ الدُّنْيَا كَانَ
إِسْعَادُهَا مَكْرًا وَإِعْرَاضُهَا غَدْرًا لِأَنَّهَا إِذَا مُنَحَتْ كَدَّتْ وَأَتَعَبَتْ وَإِذَا
اسْتَرْدَتْ اسْتَأْصَلَتْ وَأَبْجَحَتْ وَمَعَ هَذَا فَصْلَاحُ الدُّنْيَا مُصْلِحٌ لِسَائِرِ
أَهْلِهَا لَوْفُورِ أَمَانَاتِهِمْ وَظُهُورِ دِيَانَاتِهِمْ وَفُسَادُهَا مُفْسِدٌ لِسَائِرِ أَهْلِهَا لَقَلَّةِ

أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفا
كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شيء أنفع من صلاحها كما
لا شيء أضر من فسادها لأن ما نقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم
فلا شيء أحق به نفعا كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا
شيء أجدر به ضررا . وأنشدت لأبي بكر بن دريد :

الناس مثل زمانهم قد الحذاء على مثاله
ورجال دهر كمثل دهر ك في قلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان جرى الفساد على رجاله

وإذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم
نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها
اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها
ملتزمة ستة أشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي : دين متبع وسلطان
قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دار وأمل فسيح

(فأما القاعدة الأولى) وهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن
شهواتها ويعطف القلوب عن إراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا
للضامير رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه الأمور
لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين أقوى
قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها
وسلامتها ولذلك لم ينخل الله تعالى خلقه مذفطهرهم عقلاء من تكليف شرع
واعتقاد دين يتقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لأمره
فلا تتصرف بهم الأهواء وإنما اختلف العلماء رضى الله عنهم في العقل
والشرع هل جاء مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تعقبه الشرع . فقالت
طائفة : جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه .
وقالت طائفة : أخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لأنه يكال العقل

يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى : «أيحسب الإنسان أن يترك سدى» وذلك لا يوجد منه الا عند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الأوحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة لتحقيق بالعقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء : الأدب أدبان أدب شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الأرض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره . وقال سعيد بن حميد :

ما صحة أبداً بنافعة حتى يصح الدين والخلق
(وأما القاعدة الثانية) فهي سلطان قاهر تتألف برهته الأهواء المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبه وتتقمع من خوفه النفوس المتعادية لأن في طباع الناس من حب المبالغة على ما آثروه والفهر لمن عاندوه ما لا يكفون عنه الا بمانع قوى وراوع ملى . وقد أفصح المتنبي بذلك حيث يقول :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجدد ذا عفة فلعله لا يظلم
وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة اشياء : إما عقل زاجر أو دين حاجر أو سلطان رادع أو عجز صائد فإذا تأملتاهم تجد خامسا يقترب بها ورهبة السلطان أبلغها لأن العقل والدين ربما كانا مضعوفين أو بداعى الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن السلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل مظلوم» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن» . وروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله حُرَّاساً في السماء وحُرَّاساً في الأرض
 حُرَّاسه في السماء الملائكة وحُرَّاسه في الأرض الذين يقبضون أرزاقهم
 ويذبون عن الناس » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 « الامام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشرخيار » .
 وقال عبد الله بن مسعود : السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فان
 عدل فله الأجر وعليكم الشكر وإن جار فعليه الوزر وعليكم الصبر . وقال
 أبوهريرة رضى الله عنه سبب العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه
 وسلم فنهى عن ذلك وقال : لاتسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش
 فيها عباد الله تعالى . وقال بعض البلغاء : السلطان في نفسه إمام متبوع
 وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد في حكم وإن عدل لم
 يحسر أحد على ظلم . وقال بعض الأدباء : إن أقرب الدعوات من الاجابة
 دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمره ونهيه
 في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به
 أمورها . ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه ودفع الأهواء
 منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد
 أو سعى فيه بفساد وهذه أمور ان لم تتحسم عن الدين بسلطان قوى
 ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوى الأهواء وتخريف ذوى الآراء
 فليس دين زال سلطانه الا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان
 لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر في وهيه أثر كما أن السلطان إن لم يكن
 على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا والتناصر
 عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو وكان سلطان قهر
 ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان
 الوقت زعيم الأمة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على
 سنن الدين وأحكامه . وقد قال عبد الله بن المعتز :

الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى

واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة: وجب بالعقل لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم النزاع الى زعيم مندوب للنظر فى مصالحهم. وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لأن المقصود بالامام القيام بأمور شرعية كإقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بأن لا يرد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى. وعلى هذا اختلفوا فى وجوب بعثة الأنبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الأنبياء لأنه لما كان المقصود ببعثهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم لم يجب بعثة الأنبياء اليهم. فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا. فأما فى بلدان شتى وامصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لأن الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه واضبط لما يليه ولأنه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤد ذلك الى إبطال النبوة كانت الامامة أولى ولا يؤدى ذلك الى إبطال الامامة. وذهب الجمهور الى أن إقامة إمامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا بويع أميران فولوا أحدهما» وروى فاقتلوا الأخير منهما. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل ضعيفا فى بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا» فبين بظاهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لأشار اليه ولنبه عليه. والذي يلزم سلطان الأئمة من أمورها سبعة أشياء: أحدها حفظ الدين من تبديل فيه

والحث على العمل به من غير إهمال له . والثانى حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو فى الدين أو باغى نفس أو مال . والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها . والرابع تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها وإعطائها . والخامس معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها . والسادس إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها . والسابع اختيار خلفائه فى الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها . فإذا فعل من أفضى اليه سلطان الأمة ما ذكرناه من هذه الأشياء السبعة كان مؤديا حق الله تعالى فيهم مستوجبا طاعتهم ومناصحتهم مستحقا صدق ميلهم ومحبتهم وإن قصر عنها ولم يقيم بحقتها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لآظهارها ويتوقعون الدوائر لإعلانها . وقد قال الله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا » . وفى قوله تعالى : عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان : أحدهما أن العذاب الذى هو من فوقهم أمر السوء والذى من تحت أرجلهم عيب السوء وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما . والثانى أن العذاب الذى هو من فوقهم الرجم والذى من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفى قوله تعالى : أو يلبسكم شيعا تأويلان : أحدهما أنه الأهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما . والثانى أنه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من أمير على عشيرة إلا وهو يحىء يوم القيامة مغلولة يدها الى عنقه حتى يكون عمله هو الذى يطلقه أو يوبقه » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم

وتلعنونهم ويلعنونكم» وهذا صحيح لأنه إذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه وإذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه إن الله تعالى إذا أحب عبدا حبه الى خلقه فأعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل ماله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ما ذكرنا . وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه وطاعته فى خلقه تبعث على محبته فذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه : أوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : إني أخاف الله فيما تقلدت فقال له : لست أخاف عليك أن تخاف الله وإنما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لأن الخائف من الله تعالى مأمون الحيف كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لأبى مریم السلولى وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب : والله إني لا أحبك حتى تحب الأرض الدم قال : أفيمنعنى ذلك حقا ؟ قال : لا قال : فلاضير إنما يأسى على الحب النساء . وروى عبد الرحمن بن محمد قال : أصدق طلحة بن عبيد الله أم كلثوم بنت أبى بكر مائة ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فمز بالمال على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما هذا قالوا : صداق أم كلثوم ابنة أبى بكر فقال : أدخلوه بيت المال فأخبر بذلك طلحة وقيل له : كلمه فى ذلك فقال : ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يردّه لكلامى وإن كان لا يرى فيه حقا ليردنه قال : فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع الى أم كلثوم . وحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية فكتب على حائط الحبس :

أما والله إن الظلم لؤم وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين تمضى وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم في المعاد اذا آلتقينا غدا عند المليك من الظلوم
فأخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعا أبا العتاهية فاستحله
ووهب له ألف دينار وأطلقه

(وأما القاعدة الثالثة) فهي عدل شامل يدعو الى الألفة ويبعث
على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن
به السلطان فقد قال المهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا : عدلت
فأمنت فنمت . وليس شئ أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق
من الجور لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه
قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال : بنس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال صلى الله
عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأما المنجيات فالعدل
في الغضب والرضا وخشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر .
وأما المهلكات : فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وحكى
أن الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها : لم صارت سنن
بلادكم قليلة ؟ قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم : أيما
أفضل العدل أم الشجاعة ؟ قالوا : اذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة .
وقال بعض الحكماء : بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف . وقال
بعض البلغاء : إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه
في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخاتين : قلة الطمع
وكثرة الورع . فاذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها
الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب أن يبدأ بعدل الانسان في نفسه
ثم بعدله في غيره . فأما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن
القبائح ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأمور من تجاوز أو تقصير
فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم

ومن جار عليها فهو على غيره أجور . وقد قال بعض الحكماء : من توانى فى نفسه ضاع . وأما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة أقسام : فالقسم الأول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان فى رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء : باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى السيرة فان اتباع الميسور أდوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة . وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتديده أظهر . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه بخار فى حكمه » . وقال بعض الحكماء : الملك يبق على الكفر ولا يبق على الظلم . وقال بعض الأدباء : ليس للجائر جارا ولا تعم له دار . وقال بعض البلغاء : أقرب الأشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم . وقال بعض حكماء الملوك : العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم . وقال أردشير بن بابك : اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فن لهم . والقسم الثانى عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء باخلاص : الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء . فان إخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل النصرة أدفع للوهن وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور ان لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من كان يقيه كما قال البحترى :

متى أحوجت ذا كرم تخطى اليك ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل . وقال أبرويس : أطع من فوقك يطعك من دونك . وقال بعض الحكماء : الظلم

مسئلة النعم والبنى مجلبة النقم . وقال بعض الحكماء : ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الأمة وحسن الصنعة ولزوم الشريعة . والقسم الثالث عدل الانسان مع أكفائه ويكون بثلاثة اشياء : بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الأذى لأن ترك الاستطالة ألف ومجانبة الادلال أعطف وكف الأذى أنصف وهذه أمور ان لم تخاص في الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بشرار الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : من نزل ^(١) وحده ومنع رفقاه وجلد عبده . ثم قال : أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : من يبغيض الناس ويبغضونه » . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عدد الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظلما فيبطل فصلكم . يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل في الأحوال كلها . وقال بعض الحكماء : كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام . وقال بعض الشعراء :

ما دمت حيا فدار الناس كلهم فانما أنت في دار المذاراه
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى عما قليل نديما للندامات
وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط
في حالتى التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز
الاعتدال فهو خروج عن العدل . وقد قالت الحكماء : الفضائل هيئات

(١) قوله من نزل المشهور بالحديث من أكل ولعل هذه رواية أخرى . كتبته مصححه

متوسطة بين حالتين ناقصتين وأفعال الخير متوسط بين رذيلتين
 (فالحكمة) واسطة بين الشرّ والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التقحم والجهن
 (والعفة) واسطة بين الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين
 السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة
 (والظرف) واسطة بين الخلاعة والفدامة (والتواضع) واسطة بين الكبر
 ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين
 إفراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلافة وحسن الخلق
 (والحياء) واسطة بين الفحّة والحصر (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة .
 وإذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل
 الى ما ليس بعدل كان ما خرج عن الأولى الى ما ليس بأولى خروجا عن
 العدل الى ما ليس بعدل . وقد قال بعض البلغاء : السلطان السوء يخيف
 البرىء ويصطنع الذنى والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد
 السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشى السر ويهتك
 السر بفعل هذه الأشياء بخروجها عن الأولى الى ما ليس بأولى خروجا
 عن العدل الى ما ليس بعدل . ولست تجد فسادا الا وسبب نتيجته
 الخروج فيه عن حال العدل الى ما ليس بعدل من حالى الزيادة والنقصان
 فاذن لا شىء أنفع من العدل كما أنه لا شىء أضرّ مما ليس بعدل

(وأما القاعدة الرابعة) فهى أمنٌ عامٌ تطمئن اليه النفوس وتتيسر
 فيه الحزم ويسكن فيه البرىء ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة
 ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء : الأمن أهنأ عيش والعدل
 أقوى جيش لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن
 تصرفهم ويكفهم عن أسباب المواد التى بها قوام أودهم وانتظام جملتهم
 ولئن كانت الأمن من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل
 فقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة

يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فإذا كان ذلك كذلك فالأمن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بأن يكون تارة على النفس وتارة على الأهل وتارة على المال وعمومه أن يستوعب جميع الأحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجوز أن يتصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشيء مخصص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لا خوف له إلا إياه فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه فصار كالمرضى الذى هو بمرضة متشاغل وعمما سواه غافل ولعل ما صرف عنه أعظم مما ابتلى به :

على أنها تغفو الكلوم وإنما يوكل بالأدنى وإن جل ما يمضى
(وحكى) أن رجلا قال - وأعرابى حاضر - ما أشد وجع الضرس !
فقال الأعرابى : كل داء أشد داء كذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب . وقال بعض الحكماء : إنما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فأخذ ذلك أبو تمام الطائى فقال :

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذى أنباك كيف نعيمكما

فالأولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا . حكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه . أى شىء كان خبرك بعدى ؟

قال : لاتسأل عما فعله بى إخوتى سلنى عما صنعه بى ربى . وقال الشاعر :
 لاتنس فى الصحة أيام السقم فان عقى تارك الحزم ندم
 (وأما القاعدة الخامسة) فهى خصب دأر تتسع النفوس به فى الأحوال
 ويشترك فيه ذو الاكثار والاقلال فيقلّ فى الناس الحسد وينتفى عنهم
 تباغض العدم وتتسع النفوس فى التوسع وتكثر المواساة والتواصل
 وذلك من أقوى الدواعى لصالح الدنيا وانتظام أحوالها ولأن الخصب
 يؤل الى الغنى والغنى يورث الأمانة والسخاء . وكتب عمر بن الخطاب
 رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى : لاتستقضين الا اذا حسب
 أومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب فى مال غيره .
 وقال بعض السلف : إنى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى وشر
 الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء :

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر
 وبحسب الغنى يكون إقلال البخل وإعطاؤه وإكثار الجواد وسخاؤه
 كما قال دعبيل :

لئن كنت لاتولى ندى دون إمرة فليست بمول نائلا آخر الدهر
 وأى إناء لم يفض عند ملئه وأى بخيل لم ينل ساعة الوفر

وإذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجذب
 يحدث من أسباب الفساد ما ضاها وكما أن صلاح الخصب عام
 فكذلك فساد الجذب عام وما عم به الصلاح إن وجد عم به الفساد
 إن فقد فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعى الاستقامة .
 والخصب يكون من وجهين : خصب فى المكاسب وخصب فى المواد .
 فأما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج
 الأمن المقترن بها . وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسباب إلهية
 وهو من نتائج العدل المقترن بها

(وأما القاعدة السادسة) فهي أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل في دركه بحياة أربابه ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى إنشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وأراضى الحرث وفي ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعها لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة وأمورها على ممز الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها باغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد بأسوأ من ذلك حالا حتى لا يمتي بها نبت ولا يمكن فيها لبث . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الأمل رحمة من الله لأمتي ولولاه ما غرس عارس شجرا ولا أرضعت أم ولدا» . وقال الشاعر :

وللنفوس وإن كانت على وجل من المنيعة آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها والنفس نشرها والموت يطويها
وأما حال الأمل في أمر الآخرة فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابيه بما تبين به حال الآمل في الأمرين فقال :

واكذب النفس اذا حدثتها إن صدف القوس يزرى بالآمل
غير أن لا تكذبنها في التقى وآخرها بالبر لله الأجل
وفرق ما بين الآمال والأمانى أن الآمال ما تقيدت بأسباب والأمانى
ما تجردت عنها

فهذه القواعد الست التي تصلح بها أحوال الدنيا وتنظم أمور جملتها

فإن كملت فيها كل صلاحها . وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لأنها موضوعة على التغير والفناء منشأة على التصرم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول : قلب الله الدنيا قال : فاذن تستوى لأنها مقلوبة . وقال بعض الشعراء :

ومن عادة الأيام أن خطوبها إذا سرّ منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام الا ذميمة ولا الدهر الا وهو للثار طالب
وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

(فصل) وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء وهى قواعد أمره ونظام حاله وهى : نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها . وألفة جامعة تعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها . وهادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم أوده بها

(فأما القاعدة الأولى) التى هى نفس مطيعة فلانها اذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أخرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى . وقال بعض الحكماء : لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه وقد قال الشاعر :

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى وترغم أن قلبك قد عصاكا ؟

وطاعة نفسه تكون من وجهين : أحدهما نصيح والثانى انقياد . فأما النصيح فهو أن ينظر الى الأمور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغى غيا ويستقبجه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعى الهوى ولذلك قيل : من تفكر أبصر . فأما الانقياد فهو أن تسرع الى الرشد اذا أمرها وتنتهى عن الغى اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات . قال الله تعالى : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » . وللنفس آداب هى تمام

طاعتها وإكمال مصاحبتها وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب

(وأما القاعدة الثانية) التي هي الألفة الجامعة فلا أن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فإذا لم يكن ألفا مألوفاً تخطفته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديهِ فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فإذا كان ألفا مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديهِ وامتنع من حاسديه فسامت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وإن كان صفو الزمان غرة وسلمه خطرا . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة . والعرب تقول : من قل ذل . وقال قيس بن عاصم :

إن القداح إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حلق وبطش أيد ،
عزت فلم تكسروا ن هي بددت فالوهن والتكسير للتبدد

وإذا كانت الألفة بما أثبت تجمع الشمل وتمتع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها . وأسباب الألفة خمسة : وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر . فأما الدين وهو الأول من أسباب الألفة فلا أنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر . وبمثل ذلك وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فروى سفيان عن الزهري عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » هذا وإن

كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر ترات الجاهلية وإحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعا وتعاديا وأكثر اختلافًا وتماديا حتى إن بنى الأب الواحد كانوا يتفرقون أحرابا فتور بينهم بالتحزب والافتراق أحقاد الأعداء وإحن البعداء وكانت الأنصار أشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم إلى أن أسلموا فذهبت إحنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام إخوانا متواصلين وبألقة الدين أعوانا متناصرين. قال الله تعالى: «واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» يعني أعداء في الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام. وقال تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا» يعني حبا. وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه إذا اختلف أهله فإن الإنسان قد يقطع في الدين من كان به بارًا وعليه مشغفًا هذا أبو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والأثر المشهور في الاسلام قتل أباه يوم بدر وأنى برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من أبر الأبناء تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله تعالى على طاعة الأب. وفيه أنزل الله «لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم». وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الأديان وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألفة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين

أعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم أقوى والإحسان فيهم أعظم لأنه ينضم إلى عداوة الاختلاف تحاسد الأكرام وتنافس النظراء .
وأما النسب وهو الثاني من أسباب الألفة فلا تُن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التحاذل والفرقة أنفة من استعلاء الأبعاد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الرحم إذا تماسست تعاطفت» ولذلك حفظت العرب أسماها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقها وعادها حتى بلغت بألفة الأنساب تناصرها على القوى لا يُد وتحكم فيه تحكم المتسلط المتشطط . وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث إليهم : «لو أن فيكم قوة أو آوى إلى ركن شديد» يعني عشيرة مانعة وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد» يعني الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما بعث الله تعالى من نبي بعده إلا في ثروة من قومه» . وقال وهب : لقد ردت الرسل على لوط وقالوا : إن ركنك شديد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك لمرء مفرجا حتى يصمه إلى قبيلة يكون إليها . قال الرياشي : المفرج الذي لا يتم إلى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : «من كثر سواد قوم فهو منهم» . وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذن قد لزم أن نصف حال الأنساب وما يعرض لها من الأسباب . فجملة الأنساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام : قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة

وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم الطبع والثاني حادث باكتساب . فأما ما كان لازماً بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شيء ثمرة وثمره القلب الولد » وروى عنه أنه قال : « الولد مبخلة مجبهة مجبنة مخزنة » فأخبر أن الحذر عليه بكسب هذه الأوصاف ويحدث هذه الأخلاق . وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعاً وحدوثها حتماً . وقيل ليحيى بن زكرياء عليهما السلام : ما بالك تكره الولد ؟ فقال : مالى وللولد إن عاش كدتى وإن مات هدتى . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام : ألا تنزّج ؟ فقال : إنما يجب التكاثر فى دار البقاء . وأما ما كان حادثاً بالاكتساب فهى المحبة التى تنمى مع الأوقات وتغير مع تغير الحالات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الولد أنوط » يعنى أن حبه مالمصق بياط القلب فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسؤوة حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن على رضى الله عنه : إن الله تعالى رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم وإن شر الأبناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاه البر إلى الافراط . والأمهات أكثر إشفاقاً وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فانهن أرق قلوباً وألين نفوساً وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وإن كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية فقال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حساً » . وقد روى أن رجلاً أتى الى النبي صلى الله

عليه وسلم فقال: إن لي أمّا أنا مطيتها أقعدها على ظهري ولا أصرف عنها وجهي وأردّ إليها كسبي فهل جزيتها؟ قال: لا ولا برفرة واحدة قال: ولم؟ قال: لأنها كانت تخدمك وهي تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها. وقال الحسن البصري: حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنها كم عن عقوق الأمهات ووآد البنات ومنع وهات» وروى خالد بن معدان عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب»

وأما المولودون فهم الأولاد وأولاد الأولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين: أحدهما لازم والآخر منتقل. فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو نخمول والأنفة في الأبناء في مقابلة الشفاق في الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائي هذا المعنى في شعره فقال:

فأصبحت يلقاني الزمان لأجله بأعظام مواد وإشفاق والد

وأما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال في الأبناء في مقابلة المحبة في الآباء لأن المحبة بالآباء أخص والادلال بالأبناء أعم وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا؟ قال: لأننا ولدناهم ولم يلدونا. ثم الادلال في الأبناء قد ينتقل مع الكبر إلى أحد أمرين إما إلى البر والأعظام وإما إلى الجفاء والعقوق فإن كان الولد رشيدا أو كان الأب برا عطوفا صار الادلال برا وإعظاما. وقد روى الزهري عن عامر بن شراحيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله: إن حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فإن المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها

وإن كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا .
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «رحم الله امرأ أعان ولده على برّه»
وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو
عن قريب ولد بار أو عدو ضار . وقد قيل فى منشور الحكم : العقوق ثكل
من لم يشكل . وقال بعض الحكماء : ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا
ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو

وأما المناسبات فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب
أو رحم والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصره وهى أدنى رتبة
الأئمة لأن الأئمة تمنع من التهضم والحمول معا والحمية تمنع من التهضم
وليس لها فى كراهة الحمول نصيب الا أن يقترن بها ما يبعث على الأئمة .
وحمية المناسبين إنما تدعو الى النصره على البعداء والأجانب وهى معرضة
لحسد الأعداء والأقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان
حرسى بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب
مضافة المودة وذلك أكد أسباب الأئمة . وقد قيل لبعض قريش : أيما
أحب اليك أخوك أو صديقك قال : أخى اذا كان صديقا . وقال مملوك
ابن عبد الملك العيش فى ثلاث : سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الأهل .
وقال بعض الحكماء : البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته . وإن أهملت
الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب
عليها مقت الحسد أو منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة
بعدا . وقال الكندى فى بعض رسائله : الأب رب والولد كمد والأخ غم
والعم غم والحال وبال والأقارب عقارب . وقال عبدالله بن المعتز :

لحومهم لحمى وهم يأكلونه وما داهيات المرء الا أقاربه
ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام وأثنى على واصلها
فقال تعالى : «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم

ويخافون سوء الحساب» قال المفسرون: هي الرحم التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها . وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهي الرحم اشتقت اسمها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «صلة الرحم ممثلة للعدد مائة لئلا محبة في الأهل منسأة في الأجل» وقال بعض الحكماء : بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق . وقال بعض البلغاء : صلوا أرحامكم فانها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم . وقال بعض الأدباء : من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك . وقال بعض الفصحاء : من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره . وقال محمد بن عبد الله الأزدي : وحسبك من ذل وسوء صنعة مناواة ذى القربى وإن قيل قاطع ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه لترجعه يوما إلى الرواجع ولا يستوى في الحكم عبدان : واصل وعبد لأرحام القرابة قاطع (وأما المصاهرة) وهي الثالث من أسباب الألفة فلأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقادا عن خبرة وإيثار فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المصاهرة قال الله تعالى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة» يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة . وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصري رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد . وقال تعالى : «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» اختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . هم ولد الرجل وولد ولده وروى عنه : أنهم بنو

امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم في الخدمة وسرعتهم في العمل ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى العمل بطاعتك . ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين . حكى عن خالد بن يزيد ابن معاوية أنه قال : كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الى . وفيها يقول :

أحب بنى العوام طرّا لأجلها ومن أجلها أحببت أخوالها كلها
فان تسلمى نسلم وان تنصرى يخطّ رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل : المرء على دين زوجته لما يستنزه الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباعدة والمشاقة طريقا . واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة فقد ينبغى لعقدها أحد خمسة أوجه وهى : المال والجمال والدين والألفة والتعفف . وقد روى سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك » فان كان عقد النكاح لأجل المال وكان أقوى الدواعى اليه فالمال إذن هو المنكوح فان اقترنت بذلك أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يلبث العقد وتدوم الألفة فان تجرّد عن غيره من الأسباب وعمرى عما سواه من المواد فأخلق بالعقد أن ينحل وبالألفة أن تزول ولا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لأن المال ان وصل اليه فقد ينقض سبب الألفة به فقد قيل : من ودك لشيء ولى مع انقضائه وان أعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الأمل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والألفة عداوة

وقد قيل : من ودك طمعا فيك أبغضك اذا أيس منك . وقال عبد الحميد :
من عظمك لا تشارك استقلك عند إقلالك فان كان العقد رغبة
في الجمال فذلك ادوم للألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال
صفة زائلة . ولذلك قيل : حسن الصورة أول السعادة . وقد روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعظم النساء بركة أحسنهن وجها وأقلهن
مهرا » فان سلمت الحال من الادلال المفضي الى الملل استدامت الألفة
واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث
عنه من شدة الادلال وقد قيل : من بسطه الادلال قبضه الادلال
وإما لما يخاف من محبة الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكى أن رجلا
شاور حكيمًا في التزوج فقال له : افعل وإياك والجمال البارع فانه مرعى
أنيق فقال الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : كما قال الأول :

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا الا وجدت به آثار منتجع

وإما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء
عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكماء : إياك ومخالطة النساء فان لحظ
المرأة سهم ولفظها سم . ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال :
يا صياد احذر أن تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه :
امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله
عنه امرأة تقول هذا البيت :

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهى شم الرياحين
فقال رضى الله عنه :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين
وإن كان العقد رغبة في الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها فنة
وأمدّها بدأ وعاقبة لأن طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له
فاستقامت له حاله وأمن زلله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم

فاظفر^(١) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان: أحدهما تربت يداك إن لم تظفر بذات الدين. والثاني أنها كلمة تذكر للبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم: ما أشجعه قاتله الله. وإن كان العقد رغبة في الألفة فهذا يكون على أحد وجهين إما أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظاهرة بتناصر الفئتين وإما أن يقصد به تألف أعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكيناً لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الأمانات وأهل المنازل وداعى الوجه الأول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبة وهما سببان في غير المتناكحين فإن استدأما السبب دامت الألفة وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الألفة إلا أن ينضم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها والمقتربة لها. وإن كان العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح وما سوى ذلك فأسباب معلقة عليه ومضافة إليه. وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا عكاف: ألك زوجة؟ قال: لا قال: فأنت إذن من إخوان الشياطين: إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثاً على التعفف عن الفساد وباعثاً على التكاثر بالأولاد. ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم: «إذا أفضيتم إلى نساءكم فالكيس الكيس» يعنى في طلب الولد. فلزم حينئذ في عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الأدوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه. فأما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط: أحدها الدين المفضى إلى الستر والعفاف والمؤدى إلى القناعة والكفاف. قال أبو هريرة رضى الله عنه لا يفرك^(٢) مؤمن مؤمنة

(١) الذى تقدّم فعليك بذات الخ وكلاهما مروي ١ هـ مصححه

(٢) بالفاء والراء والكاف أى لا يفيض كما فى النهاية وغيرها وقع فى السجح المطبوعة قبل هذا لا يبدل وهو خطأ ١ هـ مصححه

إن كره منها خلقا رضى منها خلقا . وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال : لا أرضاها لك قال : ولم وفى دارك نشأت ؟ قال : انها تتشرف قال : لا أبالى فقال : الآن أرضاك لها . وفى معنى هذا قول بعض العلماء : من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير . والشرط الثانى العقل الباعث على حسن التقدير والأمر بصواب التدبير . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «العقل حيث كان ألوف ومألوف» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عليكم بالودود والودود لا ينكحوا الخمفاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع» والشرط الثالث الأكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا فى الأكفاء» وروى أن أكرم بن صيفى قال لولده : يا بنى لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المساحح الكريمة مدرجة للشرف . وقال أبو الأسود الدؤلى لبنيه : قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا قالوا : وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ قال : اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها . وأنشد الرياشى :

فاؤل إحسانى اليكم تخيرى لما جده الأعراف باد عفافها

ثم ان السبب الباعث على التزوج لا يخلو من ثلاثة أحوال : (أحدها) أن يكون لطلب الولد فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عليكم بالأبكار فانهن أعذب أفواها وأنقى أرحاما وأرضى باليسير» ومعنى قوله أنتق أرحاما أى أكثر أولادا . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : عليكم بالأبكار فانهن أكثر حبا وأقل خنا وهذه الحال هى أولى الأحوال الثلاث لأن النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سوداء ولود خير من حسناء عاقر» والعرب تقول فى أمثالها : من لا يلد لا ولد . وقد كانوا يختارون

لمثل هذه الحال نكاح البعداء الأجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبى للخلقة ويحتذون نكاح الأهل والأقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اغتربوا ولا تَضُؤُوا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : يا بنى السائب قد ضَوَيْتُمْ فانكحوا فى الغرائب . وقال الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوى على سليلي

وكانت حكماء المتقدمين يرون أن أنجب الأولاد خلقا وخلقاً من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين . والعرب تقول : ان ولد الغيرى لا ينجب وان أنجب النساء الفروك وقالوا : إن الرجل اذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وإن كان مختصا بمعانة النساء فليس بألزم حالتى الزوجات لأنه قد يجوز أن يعانیه غيرهن من النساء ولذلك قيل : المرأة ريحانة وليست بقهرمانه وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة والأحمد فى مثل هذا الناس ذوات الأسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهم أقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به الاستمتاع وهى أذم الأحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحرث بن النضر الأزدي : شرّ النكاح نكاح الغلمة الا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لربية ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد أجدر وبالثناء أحق ولوتنزه فى مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر الى الاماء كان اكمل لمروءته وأبلغ فى صيانتة . وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الأمور وهى أخطر

الأحوال بالمنكوحه لأن للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتداء كراهية في الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن إشفافا عليهن وحمية لهن من أن يتنذهن اللثام بهذه الحال وكان من تحوُّب من قتل البنات لرقه ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده . ولما خطب الى عقيل بن علفه ابنته الجرباء قال :
إني وإن سيق إلى المهر * ألف وعبدان وذود عشر . أحب أصهارا إلى القبر
وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبي بنت يراعى شؤونها ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكتنحها وقبر يوارىها وأفضلها القبر

(فصل) وأما المواحاة بالمودة وهي الرابع من أسباب الألفة فلائها تكسب بصادق الميل إخلاصا ومصافاة وتحديث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماه وهذا أعلى مراتب الألفة ولذلك آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تضافرهم وتناصرهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء » وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المرء كثير بأخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقاء الاخوان جلاء الأحران . وقال خالد بن صفوان : إن أعجز الناس من قصر في طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بنى الغريب من ليس له حبيب . وقال ابن المعتز : من اتخذ إخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الأدباء : أفضل الذخائر أخ وفي . وقال بعض البلغاء : صديق مساعد عضد وساعد . وقال بعض الشعراء :

هموم رجال في أمور كثيرة وهمى من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت لجسميهما جسمان والروح واحد

وقيل : إنما سمي الصديق صديقاً لصدقه والعدو عدواً لعدوه عليك .
وقال ثعلب : إنما سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع
فيه خللاً إلا ملأته . وأنشد الرياشي قول بشار :

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلاً

والمواخاة في الناس قد تكون على وجهين : أحدهما أخوة مكتسبة
بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار . والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار .
فأما المكتسبة بالاتفاق فهي أوكد حالاً لأنها تتعقد عن أسباب تعود إليها
والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد إليها وما كان جارياً بالطبع
فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب
بالاتفاق ثم نعبه بالوجه الثانى المكتسب بالقصد . أما المكتسب
بالاتفاق فله أسباب ينبدئ بها ثم تنتقل في غاية أحواله المحدودة الى
سبع مراتب ربما استكملتن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة
من ذلك حكم خاص وسبب موجب . قال الشاعر :

ما هوى إلا له سبب يبتدى منه وينشعب

فأول أسباب الاخاء التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلقان بها
فان قوى التجانس قوى الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفاً ما لم
تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان كذلك لأن الائتلاف
بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتهى
التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل لعدم الائتلاف ثبت أن
التجانس وان تنوع أصل الاخاء وقاعدة الائتلاف . وقد روى يحيى
ابن سعيد عن عمر عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر
منها اختلف » وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقد متناكرة .
وقيل في منشور الحكم : الأضداد لا تتفق والأشكال لا تفرق . وقال

بعض الحكماء: بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل . ولبعضهم :
فلا تحتقر نفسى وأنت خليلها فكل امرئ يصبو الى من يشاكل
وقال آخر :

فقلت: أخى قالوا: أخ من قرابة فقلت لهم : إن الشكول أقارب
نسبي في رأي وعزى وهمتى وإن فرقنا فى الأصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس الموصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من
مراتب الاخاء وسبب الموصلة بينهما ووجود الاتفاق منهما فصارت
الموصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لأن عدم الاتفاق
منفر . وقد قال الشاعر :

الناس ان وافقتهم عذبوا أولا فان جناهم مر
كم من رياض لأنيس بها تركت لأن طريقها وعمر

ثم يحدث عن الموصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن
المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة
وهى المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال الاخاء
وما قبلها أسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة
ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان
كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام
وإن كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى
العشق وسببه الطمع . وقد قال المأمون رحمه الله تعالى :

أول العشق مزاح وولع ثم يزداد اذا زاد الطمع
كل من يهوى وإن عالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة
معدودة لأنها قد تؤدى الى مازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى
مخالطة الأرواح وإن تفرقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها

ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندي : الصديق إنسان هو أنت الا أنه غيرك . ومثل هذا القول المروى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه حين أقطع طلحة بن عبيدالله أرضا وكتب له بها كتابا وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر رضى الله عنه وقال : والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : بل عمر لكنه انا . وأما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وناعث يبعث عليها وقد يكون الداعي اليها من وجهين رغبة وفاقة فأما الرغبة فهي أن يظهر من الانسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بحميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة أقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وإنما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع هنا فليس كل من اظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشيء مناف له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في العقل أو متديا به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لأنه قد تقدم من كلام الحكماء : ليس في الطبع أن يكون مالميس في التطبع . ثم نقول من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع وإنما الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة أغاب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة ولذلك قيل : العادة طبع ثان . وقال ابن الرومي رحمه الله :

وأعلم بأن الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس اخلاقهم إذ ذن لفاح الحمأ اللازب

وأما الفاقة فهي أن يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته . وقد قالت الحكماء : من لم يرغب في ثلاث بلى بست : من لم يرغب في الاخوان

بلى بالعداوة والخذلان . ومن لم يرغب في السلامة بلى بالشدائد والامتهان .
ومن لم يرغب في المعروف بلى بالندامة والخسران . ولعمري إن إخوان
الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد لأنهم سهماء النفوس وأولياء
النوائب . وقد قالت الحكماء : رب صديق أودّ من شقيق . وقيل لمعاوية :
أيما أحب إليك ؟ قال : صديق يحبني إلى الناس . وقال ابن المعتز :
القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودّته قريب . وقال الشاعر :

لمودّة من يحبك مخلصا خير من الرحم القريب الكاشح
وقال آخر :

يخونك ذو القربى مرارا وربما وفي لك عند العهد من لاتأسبه
فاذا عزم على اصطفاء الإخوان سبر احوالهم قبل إخائهم وكشف
عن أخلاقهم قبل اصطفتائهم لما تقدم من قول الحكماء : اسبر تخبر ولا تبعثه
الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع
فان الملق مصاديد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجيئتا المتصنع
وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح
يؤمل ولأجل ذلك قالت الحكماء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه
واعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال خالد بن صفوان : إنما نفقت
عند إخواني لأنني لم استعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن
الاستحقاق . وقال حماد :

كم من أخ لك ليس تنكره ما دمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودّته يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذوغير دهرٌ عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودّة من يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة في العسر إما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسياء من قارب ومنسوب اليه أفاعيل

من صاحب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب »
وقال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه : الصاحب مناسب . وقال
عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان
على النار من الصاحب على الصاحب . وقال بعض الحكماء : اعرف
أخاك بأخيه قبلك . وقال بعض الادباء : يظن بالمرء ما يظن بقرينه .
وقال عدىّ بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء أهل السوء ويحانب
أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بلامه غيره
ولهذا قيل : التثبت والارتياح ومداومة الاختبار والابتلاء متعذر
بل مفقود . وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره
وخبت باطنه فقال :

ألم تر أن الماء يخبت طعمه وإن كان لون الماء أبيض صافيا
ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال : أما البيت
فحسن وأما الساكن فردى فأخذ بحمطة هذا المعنى فقال :

رب ما أبين التباين فيه منزل عامر وعقل خراب
وأنشدنى بعض أهل العلم :

لا تركن الى ذى منظر حسن فرب رائعة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته صفر العقارب أرواها وأنكرها

ثم قد تقدّم من قول الحكماء : من لم يقدّم الامتحان قبل الثقة والثقة
نبل الأنس أثمرت مودته ندما . وقال بعض البلغاء : مصارمة قبل اختبار
فضل من مؤاخاة على اغترار . وقال بعض الادباء : لا تثق بالصدق
بل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة . وقال بعض الشعراء :

لا تحمدنَّ أمراً حتى تجزبه ولا تذمّنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبسه خطأ وذمك المرء بعد الحمد تكذيب
فإذن قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل إخالهم وخبرة
أخلاقهم قبل اصطفتائهم فالخصال المعتبرة في إخالهم بعد المجانسة التي
هي أصل الاتفاق أربع خصال

(فالخصلة الأولى) عقل موفور يهdy الى مرشد الأمور فان الحق
لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : «البذاء لؤم وصحبة الأحمق شؤم» وقال بعض
الحكماء : عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق لأن الأحمق ربما ضر
وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد في مصرفته فمضرته لها حد يقف
عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضرراً مما
هو غير محدود . وقال المنصور للسيب بن زهير : ما مادة العقل فقال : مجالسة
العقلاء . وقال بعض البلغاء : من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال
مجادلة ذوى المحال . وقال بعض الأدباء : من أشار عليك باصطناع
جاهل او عاجز لم يخل أن يكون صديقاً جاهلاً أو عدواً عاقلاً لأنه يشير
بما يصرك ويحتال فيما يضع منك . وقال بعض الشعراء :

إذا ما كنت متخذاً خيلاً فلا تثقن بكل أخى إخاء
فان خُرت بين الناس فالصق نأهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له إذا ما تفاضلت الفضائل من كفاء
(والخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك
الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره . وقال بعض الحكماء :
اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والراى والأدب فانه رء لك
عند حاجتك ويد عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك .
وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

أخلاء الرخاء هم كثير ولكن في البلاء هم قليل
 فلا يغرك خلة من تُؤانحني فما لك عند نائبة خليل
 وكل أخ يقول انا وفي ولكن ليس يفعل ما يقول
 سوى خل له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول
 وقال آخر

من لم تكن في الله خُلته نخليله منه على خطر
 (والخصلة الثالثة) أن يكون محمود الأخلاق مرضىّ الفعال مؤثرا
 للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب العدا
 وتفسد الأخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة
 فان المتبوع تابع صاحبه . وقال عبد الله بن المعتز : إخوان الشر كشجر
 النارنج يحرق بعضه بعضا . وقال بعض الحكماء : مخالطة الأشرار على خطر
 والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلف
 فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء : صحبة الأشرار
 تورث سوء الظن بالأخيار . وقال بعض البلغاء : من خير الاختيار صحبة
 الأخيار ومن شر الاختيار صحبة الأشرار . وقال بعض الشعراء :

مجالسة السفه سَفَاهُ رأي ومن عقل مجالسة الحكيم
 فانك والقرين معا سواء كما قد الأديم من الأديم
 (والخصلة الرابعة) أن يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه
 ورغبة في مؤاخاته فان ذلك أوكد لحال المؤاخاة وأمد لأسباب
 المصافاة إذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب
 ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان مُعْنَى خائبا
 كما قال البحرى :

وطلبت منك مودة لم أعطاها إن المعنى طالب لا يظفر
 وقال العباس بن الأحنف :

فان كان لا يدنيك الا شفاعته فلا خير في ودّ يكون بشافع
وأقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني اذا لم ألزم الصبر طائعا فلا بدّ منه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه ونعين اصطفاؤه
وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل اليه والثقة به وبحسب
ما يرى من غلبة إحداها عليه يجعل مستعملا في الخلق الغالب عليه
فان الاخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال
يختص بها في المشاركة وثمة يسدها في الموازنة والمظافرة وليس تتفق
أحوال جميعهم على حدّ واحد لأن التباين في الناس غالب واختلافهم
في الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء : الرجال كالشجر شرا به واحد
وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن إسماعيل فقال :

بنو آدم كالنبت وندت الأرض ألوان
فمنهم شجر الصندل والكافور والبان
ومنهم شجر أفضل ما يحمل قطران

ومن رام إخوانا تتفق أحوال جميعهم رام معذرا بل لو اتفقوا
لكان ربما وقع به خال في نظامه إذ ليس الواحد من الاخوان يمكن
الاستعانة به في كل حال ولا المحبواون على الخلق الواحد يمكن أن
يتصرفوا في جميع الأعمال وإنما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد
قال بعض الحكماء : ليس بلييب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من
معاشرته بدا . وقال المأمون : الاخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء
لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء لا يحتاج
اليه أبدا . ولعمري إن الناس على ما وصفهم ولكن ليس من كان منهم
كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الأعداء المحذورين وإنما
يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا في عددا

الاخوان بالمظاهرة والمناسرة وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة .
قال بعض الحكماء : مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها
القاتل مذاقها . وقد قبل في مذنور الحكم : لا تغتر بمقاربة العدو فانه
كالماء الذى ان أطيل إسخانه بالنار لم يمنع من إطفائها . وقال يزيد
ابن الحكم الثقفى :

تكاشرنى ضحكا كانك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عنى ما رتوى الماء مرنوى
فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان
الآخران من كان منهم كالغذاء أو كالدواء لأن الغذاء قوام للنفس
وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء
لأن الحاجة اليه أعم . واذا تميز الاخوان وجب أن ينزل كل منهم
حيث نزلت به أحواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت
أسبابه فويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل
عليه . وقال الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا اليك وإنما يدعى الطبيب لشدة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الاخوان . فمنهم من يرى
أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويذا وأوفر تحببا وتوددا
وأكثر تعاونا وتفقدًا . وقيل لبعض الحكماء : ما العيش قال : إقبال الزمان
وعز السلطان وكثرة الاخوان . وقيل : حلية المرء كثرة إخوانه . ومنهم
من يرى أن الاقلال منهم أولى لانه أخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا
وخلفا . وقال الاسكندر : المستكثر من الاخوان من غير اختيار
كالمتوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير

الجوهر . وقال عمرو بن العاص : من كثر إخوانه كثر غرماؤه . وقال
ابراهيم بن العباس : مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار .
ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثر من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء : ليكن غرضك في اتخاذ الاخوان واصطناع
النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع
فواحد يحصل به المراد خير من ألف تُكثّر الأعداد

واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة وأسباب المودة كان
وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة إخوانه لأنه يروم
مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أصداده
من ذوى الحق والقص لأن الخيار في كل جنس هو الأقل فلذلك
قل وفور العقل والفضل . وقد قال الله تعالى : «إن الذين ينادونك من وراء
الحجرات أكثرهم لا يعقلون» قتل بهذا التعليل إخوان أهل الفضل لقلتهم
وكثر إخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال في ذلك الشاعر :

لكل امرئ شكل من الناس مثله فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل أناس آلهوت أشكالهم فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لأن كثير العقل لست بواجد له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفیه طائش اب فقدته وجدت له في كل ناحية عدلا
واذا كان الأمر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل في عدد
الاخوان أربعة أقسام : منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين
ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين *

فأما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور في معونته ومعدور في استعانته فهذا أعدل الاخوان : وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى . وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه : التارك للاخوان متروك وإذا كان كذلك فهو كالصورة المثلثة بروكك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمع خيره وإن كان باللوم أجدر . وقد قال الشاعر :

وأسوأ أيام الفتي يوم لا يرى له أحد يزرى عليه وينكر
غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا
وإن كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي :

إنما لقي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
وإما من يستعين ولا يعين فهو لئيمٌ كُلٌّ ومهين مستذل قد قطع عنه
الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة
من رجل مستثقل عند اقلاله ويُستقل عند استقلاله فليس لمثله
في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء
الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم . وقال بعض الحكماء :
شر ما في الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره
وقال ابن الرومي :

عذرنا النحل في إبداء شوك يرد به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكا بلا ثمر نراه ؟

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز
فضيلتي الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقila في نائبة ولا يقعد عن نهضة
في معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا وأكرمهم طبعاً فينبغي لمن أوجد

له الزمان مثله (وقل أن يكون له مثل لأنه البر الكريم والدر اليتيم)
أن يثني عليه خنصره ويعض عليه بناجذه ويكون به أشد ضنا منه
بنفائس أمواله وسني ذخائره لأن نفع الاخوان عام ونفع المال خاص
ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق . وقال الفرزدق :

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد ذهاب المال مكتسب
وقال آخر

لكل شيء عدمته عوض وما لفق الصديق من عوض
ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين يكرهما منه إذا رضى سائر
أخلاقه وحمد أكثر شيمه لأن اليسير مغفور والكمال معوز . وقد قال
الكندي : كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع ؟
مع أن نفس الانسان التي هي أخص النفوس به ومدبرة باختياره وإرادته
لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته في كل ما يجب
فكيف بنفسه غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد
قال أبو الدرداء رضى الله عنه : معاتبه الأخ خير من فقده ومن لك بأخيك
كله ؟ فأخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية :

أأخى من لك من بنى الدنيا بكل أخيك من لك ؟ *

فاستبق بعضك لا يملك كل من لم تُعطِ كأك

وقال أبو تمام الطائي :

ما غبن المغبون مثل عقله من لك يوما بأخيك كله ؟

وقال بعض الحكماء : طلب الانصاف من قلة الانصاف . وقال بعض
البلغاء : لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت
فضله وبطنت عقله عيب خفي تحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير
تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب
ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجرى

فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك
 مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقد قال الشاعر :
 ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدّ معاييه ؟
 وقال النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب ؟

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختباره واختبار الخصال
 الأربع فيه لأن ما أعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغي أن توحشك فترة
 تجدها منه ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه ما لم تتحقق تغيره
 وتيقن تنكره . وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر
 فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به
 ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا مالم منها . وقد قيل في منشور الحكم :
 لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر
 ابن محمد لابنه : يا بني من غضب من إخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك
 سوءا فاتخذك لنفسك خلا . وقال الحسن بن وهب : من حقوق المودة
 أخذ غمو الاخوان والاغضاء عن تقصير إن كان . وقد روى عن علي
 رضى الله عنه في قوله تعالى : « فاصفح الصفيح الجميل » قال : الرضا بغير
 عتاب . وقال ابن الرومي :

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى يلم بعين أو يكدر مشربا
 ومن قلة الانصاف أنك تبتغي ال
 مهذب في الدنيا ولست المهذبا
 وقال بعض الشعراء :

تواصلنا على الأيام باق ولكن هجرنا مطر الربيع
 يروعك صوبه لكن تراه على علاته داني السروع
 معاذ الله أن نلقى غضابا سوى دل المطاع على المطيع
 وأنشدني الأزدى :

لا يؤيسنك من صديق نبوة ينبو التقي وهو الجواد الخضير
فاذا نبا فاستبقه وتأنه حتى تقي به وطبعك أكرم
وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر
وإخاؤه غرر لأنه لا يبق على حاله ولا يخلو عن استحاله . وقد قال
ابن الرومي :

إذا أنت عاتبت الملول فأنما تحط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب أم تكن مودته طبعاً فصارت تكلفا
وهم نوعان منهم من يكون ماله استراحة ثم يعود إلى المعهود من
إخائه فهذا أسلم المملين وأقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته
وحين فترته ليرجع إلى الحسنى ويثوب إلى الإخاء وإن تقدم المثل بما
نظمه الشاعر حيث قال :

وقالوا : يعود الماء في النهر بعد ما عمت منه آثار وجعت مشارعه
فقلت : إلى أن يرجع الماء عائدا ويعشب شطاه تموت ضفادعه
لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمة بالظنون . وقال الشاعر :
إذا ما حال عهد أخيك يوما وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا فلا تبعد عن الخلق الكريم
ومنها من يكون ماله تركا واطراحا ولا يراجع إخاء ولا ودا ولا يتذكر
حفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو السلمي :

إني رأيت لها مواصلة كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها لعب الصدود بذلك العهد
وهذا أذم الرجلين حالا لأن مودته من وساوس الخطرات وعوارض
الشهوات وليس إلا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة
وحسن المذاكرة بعد الورطة كما قال العباس بن الأحنف :

تداركت نفسي فعزيتها وبغضتها فيك آمالها
وما طابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها
وما مثل من هذه حاله إلا كما قد قال إبراهيم بن هرمة :
فانك وأطراحك وصل سلمى لأخرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحلي مستعار لأذنيها فشأنهما الثقوب
فأدت حلي جارتها إليها وقد بقيت بأذنيها ندوب

وإذا صفت له أخلاق من سببه وتمهدت لديه أحوال من خبره
وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه
ووجبت عليه حرمانه . وقال عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الاخاء
لا عبودية الإق . وقال بعض الحكماء : من جادل بك بمودته فقد جعلك
عديل نفسه فأول حقوقه اعتقاد مودته ثم إيناسه بالانبطاع إليه في غير
محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الانتقال عنه ثم معاونته
فما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة فإن مراقبته في الظاهر نفاق
وتركه في الشدة لؤم . وقد قيل : يا رسول الله أى الأصحاب خير ؟ قال :
« الذى اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت ذكرك » .
وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : خير إخوانك من واساك وخير
منه من كافاك . وكان أبوهريرة رضى الله عنه يقول : اللهم إني أعوذ بك
من لا يلتبس خالص مودتى إلا بموافقة شهوتى ومن ساعدنى على سرور
ساعتى ولا يفكر فى حوادث غدى . وقال بعض البلغاء : عقود الغادر محلولة
وعهوده مدخولة . وقال بعض البلغاء : ما ودك من أهمل ودك ولا أحبك
من أبغض حبك . وقال بعض الشعراء :

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكننا الاخوان عند الشدائد
وقال صالح بن عبد القدوس : شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان
إذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

شر الأخلاء من كانت مودته مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا
اذا وترت أمرا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عبا
إن العدو وإن أبدى مسالمة اذا رأى منك يوما فرصة وثبا
وينبغي أن يتوقى الإفراط في محبته فان الإفراط داع الى التقصير
ولأن تكون الحال بينهما ناميه أولى من أن تكون متباهيه . وقد روى
ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما » وأبغض
بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما . وقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . وقال
أبو الأسود الدؤي :

وكن معدنا للخير وأصحح الأذى فانك راء ما عمات وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا فانك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض اذا أبغضت غير مباين فانك لا تدري متى أنت راجع
وقال عدي بن زيد :

لأنهم من مبغض قرب داره ولا من محب أن يملّ فيبعدها
وإنما يلزم من حق الإحاء بذل المجهود في النصيح والتناهي في رعاية
ما بينهما من الحق فليس في ذلك إفراط وإن تناهى ولا مجاوزة حد
وإن أكثر أوقى فتستوى حالاهما في المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما
أفضل من مشهدهما وأولى فاق فضل المشهد على المغيب ثم وفضل
المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ . وقال بعض الشعراء :
على لاخواني رقيب من الصفا تليد الليالى وهو ليس يئيد
يذكرنيهم في مغيبى ومشهدى فسيان منهم غائب وتهيد
وإني لأستحي أن أبره قريبا وأن أجفوه وهو بعيد
وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان

تقليل الزيارة داعية المهجران وكثرتها سبب الملل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضى الله عنه : يا أبا هريرة « زر غبا تردد حبا » وقال لبيد :

توقف عن زيارة كل يوم إذا كثرت ملك من تزور
وقال آخر

أقل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانه
إن الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه
حتى يراه بعد طول سروره بمكانه متاقلا بمكانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه
وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة
واطراح جميعه دليل على قلة الاكثراث بأمر الصديق وقد قيل : علة
المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالنا تركه وعنايه فيسمح بالمشاركة
ويستصلح بالمعاتبه فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث
معهما نفور ولم يبق معهما وجد . وقد قال بعض الحكماء : لا تكثرن
معاتبه إخوانك فيهنّ عليهم سخطك . وقال منصور النمرى :

أقل عتاب من استربت بؤده ليست تنال مودة بعتاب
وقال بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو ومشاربه ؟
فعش واحدا أوصل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
ثم من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم وتستزلتهم لأن من رام بريئا
من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا .
وقد قالت الحكماء : أى عالم لا يهفو وأى صارم لا يذبو وأى جواد لا يكبو ؟
وقالوا : من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق

الذى لا يزداد لنفسه إتعابا إلا ازداد من غايته بعدا . وقيل لخالد ابن صفوان أى إخوانك أحب إليك؟ قال : من غفر زللى وقطع على وبلغنى أملى . وقال بعض الشعراء :

ماكدت أخفص عن أنحى ثقة إلا ندمت عواقب الفحص
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه :

أحب من الاخوان كل مواتى وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا ليت أنى أصبته فقاسمته مالى من الحسنات ؟
تصفحت إخوانى وكان أقلهم على كثرة الاخوان أهل ثقاتى
وأنشد ثعلب

إذا أنت لم تسنقل الأمر لم تجد بكفيك فى إداره متعلفا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة إذا زلها أو شكتما ان تفرقا

وحكى الأصمعى عن بعض الأعراب أنه قال : تناس مساوى الاخوان
يدم لك ودهم . ووصى بعض الأدباء أخاه فقال : كن للود حافظا
وإن لم تجد محافظا وللخل واصلا وإن لم تجد مواصلا . وقال رجل
من إياد ليزيد بن المهلب :

إذا لم تجاوز عن أخ عد زلة فلست غدا عن عثرى متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه إذا كان عن مولاك خيرك عاجرا ؟
ظلمت أخا كلفته فوق وسعه وهل كانت الأخلاق الاغرائرا ؟
وقال أبو مسعود كاتب الرضى : كنا فى مجلس الرضى فشكا رجل
من أخيه فأنشد الرضى :

أعذر أخاك على ذنوبه واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السففيه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم الى حسيبه

واعلم بأن الحلم عند الغيظ أحسن من ركوبه
وحكى عن بنت عبدالله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن
عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش في زمانه : ما رأيت
قوما ألام من إخوانك قال : مه ولم ذلك ؟ قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك
وإذا أعسرت تركوك قال : هذا والله من كرمهم يأتوننا في حال القوة
بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف منا عنهم . فانظر كيف تأول بكرمه
هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا
محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأولوا
الهفوات من إخوانهم . وقد قال بعض الشعراء :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا
والداعى الى هذا التأويل شيثان : التغافل الحادث عن الفطنة والتألف
الصادر عن الوفاء . وقال بعض الحكماء : وجدت أكثر أمور الدنيا
لا تجوز إلا بالتغافل . وقال أكرم بن صيفى : من شدد نقر ومن تراخى
تألف والشرف فى التغافل . وقال شبيب بن شيبه : الأريب العاقل
هو الفطن المتغافل وقال الطائى :

ليس الغي بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى
وقال أبو العتاهية

إن فى صحة الاخاء من الناس وفى خلة الوفاء لقائه
فالبس الناس ما استطعت على النقص والا لم تستقم لك خله
عش وحيدا إن كنت لا تقبل العذر وإن كنت لا تجاوز زله
من أب واحد وأم خلقنا غير أنا فى المال أولاد عليه
ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يشبههم عن البغضاء

ويعظفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البرّ ويختلف بسبب اختلاف الأحوال فإن ذلك من سمات الفضل وشروط السؤدد فإنه ما أحد يعدم عدواً ولا يفقد حاسداً وبحسب قدر النعمة تكثر الأعداء والحسدة كما قال البحترى :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة إذا أنت لم تدلل عايتها بحاسد
فان أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه
من مكر حلیمهم وبادرة سفيهم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما .
وروى ابن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى
الناس » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه : لا تستكثر أن
يكون لك ألف صديق فالألف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو
واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومى هذا المعنى فقال :

تكثر من الاخوان ما اسطعت إنهم بطون اذا استجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير
وقيل لعبد الملك بن مروان : ما أفدت فى ملكك هذا ؟ قال : مودة
الرجال . وقال بعض الحكماء : من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال
بعض البلغاء : من استصلح عدوه زاد فى عدده ومن استفسد صديقه
نقص من عدده . وقال بعض الأدباء : العجب ممن يطرح عاقلا كافيا
لما يضمه من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته
وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه . وأنشد
عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قاتله العرب وهى للأفوه
واسمه صلاءة بن عمرو حيث يقول :

بلوت الناس قرنا بعد قرن فلم أر غير ختال وقالى
وذقت مرارة الأشياء جمعا فما طعم أمر من السؤال

ولم أرفى الخطوب أشدهولا وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي النونى

الى العدو بوجه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأحزم الناس من يلقى أعاديه فى جسم حقد وثوب من مودات
الرفق بمن وخير القول أصدقه وكثرة المنح مفتاح العداوات
وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله تعالى عنه :

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحمت نفسى من هم العداوات
إنى أحيى عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضه كأما قد حشا قلبى محبات
الناس داء دواء الناس قربهم وفى اعتزالهم قطع المودات
وليس وان كان بتألف الأعداء مأمورا والى مفاربتهم مندوبا ينبغى
أن يكون لهم راءنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على
تحرز فان العداوة اذا استحكمت فى الطباع صارت طبعا لا يستحيل
وجبله لا تزول وانما يستكفى بالتألف اطهارها ويستدفع به أضرارها
كالنار يستدفع بالماء إراقها ويستفاد به إنضاجها وان كانت محرقة
بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير . وقال الشاعر :

واذا عجزت عن العدو فداره وامزح له إن المزاح وفاق

فالنار بالماء الذى هو ضدّها تعطى النضاج وطبعها الاحراق

(فصل) وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فلا أنه يوصل
الى القلوب ألقاها ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى
التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى » لأن
فى التقوى رضا الله تعالى وفى البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله
تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته . وروى الأعمش
عن خيشمة عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»
وحكى أن الله تعالى أوحى إلى داود على نبينا وعليه السلام: ذكر
عبادى إحسانى إليهم ليجبوني فأنهم لا يحبون إلا من أحسن إليهم .
وأنشدنى أبو الحسن الهاشمى :

الناس كلهم عيا ل الله تحت ظلاله
فأحبههم طرا إليه أبترهم لعياله

والبر نوعان : صلة ومعروف . فأما الصلة فهى التبرع ببذل المال
فى الجهات المحموده لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس
وسخاؤها ويمنع منه شحها وإباؤها قال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه
فأولئك هم المفلحون » . وروى محمد بن ابراهيم التيمى عن عمرو بن
الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السخى قريب من الله
عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل
بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار »
وقال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم : « رفع الله عن أببك العذاب
الشديد لسخائه » وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير إمساك بغب
عمامته اليه وقال : يا زبير أنا رسول الله اليك والى غيرك يقول أنفق أنفق
عليك ولا توك فأوك عليك . وروى أبو الدرداء قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم غربت فيه شمسه إلا ومكان ينادىان
اللهم أعط منقفا خلفا وممسكا تلقا » وأنزل فى ذلك القرآن « فأما من أعطى
واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب
بالحسنى فسنيسره للعسرى » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى من
أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه
فعند هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لسادات الناس : فى الدنيا
الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء . وقيل فى منشور الحكم : الجود عن موجود .

وقيل في المثل : سودد بلا جود كملك بلا جنود . وقال بعض الحكماء :
الجود حارس الاعراض . وقال بعض الأدباء : من جاد ساد ومن
أضعف ازداد . وقال بعض الفصحاء : جود الرجل يحببه إلى اصداده
وبخله يبغضه إلى أولاده . وقال بعض الفصحاء : خير الأموال ما استرق
حرا وخير الأعمال ما استحق شكرا . وقال صالح بن عبد القدوس :

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فاني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وحدّ السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى مستحقه
بقدر الطاقة وتدير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب
إلى الكرم ينكر حدّ السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وإن
الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضى إلى الجهل بحدود الفضائل
ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع
وقد ورد الكتاب بدمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما . وإذا كان السخاء
محدودا فمن وقف على حدّه سمى كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر
عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا . وقد قال الله تعالى : «ولا تحسبن
الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرّ لهم سيطوقون
ما بخلوا به يوم القيامة» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
«أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل» . وروى عنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال : «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء» وسمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم رجلا يقول : الشحيح أعذر من الظالم فقال : لعن الله
الشحيح ولعن الظالم .

وقال بعض الحكماء : البخل جلباب المسكنة . وقال بعض الأدباء :
البخيل ليس له خليل . وقال بعض البلغاء : البخيل حارس نعمته
وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء :

إذا كنت جماعا لملك ممسكا فأنت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموما إلى غير حامد فيأكله عفوا وأنت دفين
وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع إمساك فيه فقال بعض الشعراء:
أراك تؤمل حسن الثناء ولم يرزق الله ذاك البخيل
وكيف يسود أخو بطنة يمتن كثيرا ويعطى قليلا ؟

وقد بينا حب الثناء وحب المال لأن الثناء يبعث على البذل وحب
المال يمنع منه فإن ظهرا كان حب الثناء كاذبا. وقد قال بعض الشعراء :
جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك وأخلاق الممالك
أردت شكرا بلا بر ولا صلة لقد سلكت طريقا غير مسلوكة
ظننت عرضك لم تفرع بقارعة وما أراك على حال بمترك
لئن سبقت إلى مال حظيت به فمأسبت إلى شيء سوى النوك
وقد يحدث عن البخيل من الأخلاق المذمومة وإن كان ذريعة إلى
كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذما وهى : الحرص والشره وسوء الظن
ومنع الحقوق . فأما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف فى الطاب .
وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق
ما بين الحرص والشره . وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم
ابن مسروق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يجزيه
من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه » . وقال بعض الحكماء :
الشره من غرائز اللؤم . وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل
فإن كان بالخالق كان شكاً يؤل إلى ضلال وإن كان بالخلق كان
استخانة يصير بها مختانا وخوانا لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه
من نفسه فإن وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وإن رأى فيها سوءا اعتقده
فى الناس . وقد قيل فى المثل : كل إناء ينضح بما فيه . فإن قيل قد تقدم

من قول الحكماء إن الحزم سوء الظن قليل تأويله قلة الاسترسال اليهم
لا اعتقاد سوء فيهم

وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد
إلى ترك مطلوبها فلا تدع لحق ولا تنجيب إلى انصاف. وإذا آل البخيل
إلى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه
خير مرجو ولا صلاح مأمول. وأما السرف والتبذير فإن من زاد على
حدّ السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير. وقد قال الله تعالى :
« ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « ما عال من اقتصد » . وقد قال المأمون رحمه الله : لا خير
في السرف ولا سرف في الخير . وقال بعض الحكماء : صديق الرجل
قصده وسرفه عدوه . وقال بعض البلغاء : لا كثير مع إسراف ولا قليل
مع احتراف * واعلم أن السرف والتبذير قد يفتقر معناهما فالسرف هو
الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم
وذم التبذير أعظم لأن المسرف يخطئ في الزيادة والمبذر يخطئ في الجهل
ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وخطأها فهو كمن جهلها
بفعاله فتعدّها وكما أنه بتبذيره قد يضع الشيء في غير موضعه فهكذا قد
يعدل به عن موضعه لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق
وغير حق . وقد قال معاوية رضي الله عنه : كل سرف فبازائه حق مضيع .
وقال بعض الحكماء : الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد . وقال
سفيان الثوري رضي الله عنه : الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء
ببذل ما في يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل إلى طلب ولا
يكف عن بذل . وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل على
نبينا وعليه السلام : أتدرى لم اتخذتك خليلاً؟ قال : لا يارب قال : لأني
رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ . وروى سهل بن سعد

الساعدي رضى الله عنه قال : أتى رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا رسول الله : مرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال : ازهد
في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس . وقال أيوب
السختياني : لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس
والتجاوز عنهم . وقيل لسفيان : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : الزهد في الناس
وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بني استقل الكثير مما تعطى واستكثر
القليل مما تأخذ فان قرة عيون الكرام في الاعطاء وسرور اللثام في الأخذ
ولا تعدّ الشحيح أميناً ولا الكذاب حراً فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة
مع الكذب . وقال بعض الحكماء : السخاء سخا أن أشرفهما سخاؤك عما
بيد غيرك . وقال بعض البلغاء : السخاء ان تكون بمالك منبرعا وعن
مال غيرك متورعا . وقال بعض الصالحاء : الجود غاية الزهد والزهد غاية
الجود . وقال بعض الشعراء :

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة وإن كان ذا قدر فليس له شرف
والبذل على وجهين : أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال .
والثاني ما كان عن طلب وسؤال . فأما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء
وأشرفهما عطاء . وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال : ما كان
منه ابتداء فأما ما كان عن مسألة فخياء وتكرم . وقال بعض الحكماء :
أجل النوال ما وصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء :

وفى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله فكفأك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون اتسعة أسباب :

فالسبب الأول — أن يرى خلة يقدر على سدّها وفاقة يتمكن من
إزالتها فلا يدعه الكرم والتدين إلا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل
نجاحها رغبة في الأجر إن تدين وفي الشكر إن تكرم . وقال أبو العاتية :

ما الناس الا آلة معتملة للخير والشر جميعا فعله
والسبب الثاني — أن يرى في حاله فضلا عن حاجته وفي يده زيادة
عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا
وغنما مستجدا . وقد قال الحسن البصري رحمه الله : ما أنصفك من
كلنك إجلاله ومنعك ماله . وقيل لهند بنت الحسن : من أعظم الناس
في عينك ؟ قالت من كان لى اليه حاجة . وقال الشاعر :

وما ضاع مال ورث الحمد أهله ولكن أموال البخیل تضيع
والسبب الثالث — أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفظته وإشارة
يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف .
وقد حكى أن رجلا ساءل بعض الولاة فقال : ما أهزل برزونك ؟ فقال : يده
مع أيدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذى بلغ ما لا يبلغه صريح
السؤال . ولذلك قال أكنم بن صيفى : السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء
التغافل . وحكى أن عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب
اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا وأسعنا فىمن نحب ونكرم
فقلت له : نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا إن المهم مقدم
فقال عبيد الله : ما أحسن ما شكنا أمره بين أضعاف مدحه ثم قصى
حاجته . وقال بعض الشعراء :

ومن لا يرى من نفسه مذكرا لنا رأى طلب المستنجد بن ثقيل
والسبب الرابع — أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صنعة
فيرى تأدية الحق عليه طوعا إما أنفة وإما شكرا ليكون من أسر الامتنان
طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عنيقا . قال بعض الحكماء : الاحسان
رق والمكافأة عتق . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى :

وليسأت أبادى الناس عندى غنيمة ورب يد عندى أشد من الأسر

والسبب الخامس — أن يؤثر الازدعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه
توطيدا لرأسه هو لها محب وعلى طلبها مكب . وقد قال الشاعر :
حب الرأس داء لا دواء له وقلما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه إجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها
الا بالرغبة والاسعاف . وقد قال بعض الأدباء : بالاحسان يرتبط الانسان .
وقال بعض البلغاء : من بذل ماله أدرك آماله . وقال بعض الشعراء :
أترجو أن تسود بلا عناء وكيف يسود ذو الدعة البخيل ؟

والسبب السادس — أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نمار
خصمائه ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة إخوانا إما
أصيانة عرض وإما لحراسة مجد . وقد قال أبو تمام الطائي :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرئ والدرهم
ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغنم
وقال بعض الأدباء : من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه :

والسبب السابع — أن يرب به سالف صنيعة أولاه ويراعى به
قديم نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما أسداه فان مقطوع
البرضائع ومهمل الاحسان ضال . وقد قال الشاعر :

وسمت امرأ بالبرثم أطرحته ومن أفضل الأشياء رب الصنائع
وقال محمد بن داود الأصهباني :

بدأت بنعمى أوجبت لي حرمة عليك فعد بالفضل فالعود أحمد
والسبب الثامن — المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يرضى عليه
بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التي هي عنده أحظى والى نفسه
أشهى لأن النفس الى محبوبها أشوق والى ممايلته أسبق . وقد قال الشاعر :
فا زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل
وهذا وان دخل في أقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس

والسادس من هذه الأسباب وإنما ذكرناها لدخولها تحت اقسام العطاء والسبب التاسع — ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وإنما هي منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال الشاعر :

ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف لكن يلذ طعم العطاء
وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوباً الى السخاء فيحمد أو خارجاً عنه فيذم؟ وقال قوم: هذا هو السخىّ طبعاً والحواد كرمًا وهو أحق من كان به ممدوحاً واليه منسوباً . وقال أبو تمام :

من غير ما سبب يدنى كفى سبباً للحر أن يجتدى حرّاً بلا سبب
وقال الحسن بن سهل : اذا لم أعط الا مستحقاً فكأنى أعطيت
غيريما وقال : الشرف في السرف فقليل له : لا خير في السرف فقال :
ولا سرف في الخير . وقال الفضل بن سهل : العجب لمن يرجو من
فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار :

وما الناس الا صاحبك فمنهم سخىّ ومغلول اليمين من البخل
فسامح يدا ما أمكنتك فانها تقل وتثرى والعواذل في شغل
وقال آخرون : هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير
المذموم لأن العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لأن المال
يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد
يمنع مستحقاً وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد
لاعطاء غير المستحق وحسبك ذماً بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز
وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى : «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك
ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً» فنهى عن بسطها سرفاً
كما نهى عن قبضها بخلاً فدل على استواء الأمرين ذماً وعلى اتفاقهما
أو ما . وقال الشاعر :

وكان المال يأتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا: ولأن العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم المنوع وقلة شكر المعطى أما المنوع فلا أنه قد فضل عليه من سواه وأما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما أمل بالاتفاق أضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم وإحباط الشكر وليس فيما أفضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير أن يكون شرًا يبقى ولمثل هذا كان منع الجميع إرضاء للجميع وعطاء يكون المنع أَرْضَى مِنْهُ خسران مبین . فأما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشرروطه معتبرة من وجهين أحدهما فى السائل والثانى فى المسئول . فأما ما كان معتبرا فى السائل فتلاثة شروط : الشرط الأول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم . وقد قال بعض الحكماء : الضرورة توقع الصورة . وقال بعض الشعراء :

ألا قبح الله الضرورة إنها تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق
ولله دَرّ الإِتساع فانه يبين فضل السبق من غير سابق
وقال الكميت :

اذا لم يكن الا الأُسنة مركب فلا رأى للضطر الا ركوبها
فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين أن
يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح
فى الطلب وتراعى ما استقام به الحال وإن ناله ذل ولحقه وهن فيتأول
صاحبها قول البحترى :

وربما كان مكروه الأمور الى محبوبها سببا ما مثله سبب
والنفس الشريفة تطلب الضيافة وتراعى النزاهة وتحتمل من الضر

ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون
كما قال الشاعر :

وقد يكتسى المرء خز الثياب ومن دونها حالة مضنيه
كما يكتسى خده حمرة وعلته ورم في الريه
فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فان البهائم الوحشية
تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر :

وليس الليث من جوع بغاد على جيف تطيف بها الكلاب
فكيف بالإنسان الفاضل الذى هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه
نفسا هل يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلا . وقد قال الشاعر :
على كل حال يأكل المرء زاده على البؤس والضراء والحدنان
وقد قيل لبعض الزهاد : لو سألت جارك أعطاك " فقال : والله ما أسأل
الدنيا من يملكها فكيف ممن لا يملكها . ووصف بعض الشعراء قوما فقال :
إذا افتقروا أغضوا على الضر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعا الى الفقر
فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح
اللؤم ومحض الدناءة وقلمما تجد مثله ماحوظا أو ممولا محفوظا لأن الحرمان
قاده الى أضييق الأرزاق واللؤم ساقه الى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه
ماء إلا أراقه ولا ذل الاذاقه كما قال عبد الصمد بن المعدل لابی تمام الطائي :

أنت بين اثنتين تبرز للناس وكلتا هما بوجه مذل
لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لنوال
أى ماء لحز وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال
ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسبا يونه
ولقد ر علي ما يصونه وقد قال الشاعر :

لا تطالبن معيشة بتذل فليأتينك رزقك المقدر
واعلم بأنك آخذ كل الذى لك فى الكتاب مقدر مسطور

والشرط الثاني — من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن إرجائه
ويقتصر الوقت عن إبطائه فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة ولا في التمادى
مهلة فيصير من المعذورين وداخلا في عداد المضطرين . فأما اذا كان
الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط . وقال الشاعر :

أبلى إغضاء الجفون على القذى يقيني أن لا عسر الا مفرج
ألا ربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرج

والشرط الثالث — اختيار المسؤل أن يكون مرجو الاجابة مأمول
النجاح إما لحرمة السائل أو كرم المسؤل فان سأل لثيما لا يرعى حرمة
ولا يولى مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم . وقد قال بعض
البلغاء : المخذول من كانت له الى اللثام حاجة . وقد قال بعض البلغاء :
أذل من اللثيم سائله وأقل من البخيل نائله . وقال بعض الشعراء :

من كان يأمل أن يرى من ساقط نيل سنيا

فلقد رجا أن يحتجى من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتمدة فى المسؤل فثلاثة :

الشرط الأول — أن يكتفى بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح
ايصون السائل عن ذل الطلب فان الحال باطقة والتعريض كاف .
وقد قال الشاعر :

أقول وستر الدجى مسبل كما قال حين شكا الضفدع

كلامى ان قتله ضائع وفى الصمت حنفى فما أصنع

وربما فهم المسؤل الاشارة فألجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل
ليخجل فيمسك ويستحي فيكف فيكون كما قال أبو تمام :

من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له بواب

والشرط الثاني — أن يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة
والتقريب ليكون مشكورا إن اعطى ومعذورا إن منع . وقد قال بعض

الحكماء : القى صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره .
وقال ابن لنكك : ان أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة فلم
يقضها له وظهر له منه ضجر فقال :

لاتدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسؤلًا
لاتجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولًا
تلقى الكريم فتستدل بشره وترى العبوس على اللئيم دليلاً
واعلم بأنك عن قليل صائر خبرا فكن خبرا يروق جميلاً
والشرط الثالث — تصديق الأمل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار
حاله وحال سائله فانهما لا يخلوان من أربع احوال : (فالحال الأولي) أن
يكون السائل مستوجبا والمسئول متمكناً فالاجابة ههنا تستحق كرماً
وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل إلا لمن استولى عليه البخل وهان
عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان :

إنى رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خزالثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرة في مجلس أنتم به فتقنعوا
فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا
في صنيع مشكور وبرّ مذخور . وقد قيل لبخيل : لم حبست مالك ؟
قال : للنوائب فقليل له : قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء :
مالك من مالك الا الذى قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولو فتشوا رأيت أعمالك أعمى لك
وقد اسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بأن لاحق له
مذموما كمشكور ومأثوما كجور . وقال ابو العتاهية :

خزن البخيل على صالحه اذ لم يثقل برّه ظهري
ما فاتنى خيرا مريء وضعت عنى يداه مؤنة الشكر
فاذا لم يكن للرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان بالناخير مضراً

عجل بذله وقطع مطله وكانت إجابه فعله وقوله عملا . وقد قالت الحكماء :
من مروءة المطلوب منه أن لا يلجئ الى إلحاح عليه . وقال محمد بن حازم :

ومتنظر سؤالك بالعطايا وأشرف من عطاياها السؤال
إذا لم يأتك المعروف طوعا فدعه فالتزّه عنه مال

وإن كان في الوقت مهلة وفي التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب
الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الأولى تعجيل الوعد قولاً ثم يعقبه
الانجاز فعلاً ليكون السائل مسروراً بتعجيل الوعد ثم بأجل الانجاز
ويكون المسؤل موصوفاً بالكرم ملحوظاً بالوفاء . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العدة عطية » . وقال الفضل بن سهل
لرجل سأله حاجة : أعذك اليوم وأحبوك غداً بالانجاز لتذوق حلاوة الأمل
وأترين بثوب الوفاء . ووعد يحيى بن خالد رجلاً بحاجة سأله إياها فقيل
له : تعد وأنت قادر ؟ فقال : إن الحاجة إذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه
نجاحه لم يجد سرورها لأن الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه
الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها
طعم عند المصططع اليه . وقال بعض البلغاء : إذا أحسنت القول فأحسن
الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمره الاحسان ولا تقل ما لا تفعل
فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه أو عجز تلزمه . ومنهم من ذهب
الى أن تعجيل البذل فعلاً من غير وعد أولى وتقديمه من غير رقب
ولا انتظار أخرى وإنما يقدم الوعد أحد رجلين إما معوز ينتظر جدة
وإما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه
يصح ولا رأى يتضح مع ما يغيره الدليل والنهار وتتقلب به الحال من
يسار وإعسار . وقال بعض الشعراء :

يا أيها الملك المقدم* أمره شرقاً وغرباً
أمن بختم صفيقي مادام هذا الطين رطباً

واعلم بأن جفافه مما يعيد السهل صعبا
قالوا: ولأن في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من مرارة
الانتظار وفي العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بزه
ويوهن شكره . وقال الشاعر :

إن الحوائج ربما أزرى بها عند الذى تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة فاعلم بأن تمامها تعجيلها
(والحال الثانية) أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول غير
متمكن ففى الرد فسحة وفى المنع عذر غير أنه يلين عند الرد لينا يقيه الدم
ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل بعرف ولا معذور ينصف .
وقد قال أبو العتاهية يصف الناس :

يارب إن الناس لا ينصفوننى فكيف وإن أنصفتهم ظالمونى
فإن كان لى شىء تصدوا لأخذه وإن جئت أبغى شيئهم منعونى
وإن نالهم بذلى فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتمونى
وإن طرقتنى نكبة فكفوا بها وإن صحبتنى نعمة حسدونى
سأمنع قلبى أن يحن إليهم وأغض عنهم ناظرى وجفونى
وأقطع أيامى بيوم سهولة أقصى بها عمرى ويوم حرونى
ألا إن أصفى العيش ما طاب غبه وما نلتته فى لذة وسكونى

(والحال الثالثة) أن يكون السائل مستوجبا والمسئول غير متمكن
فيأتى بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يستد به خلة أو يدفع به مذمة
أو يوضح من اعدار المعوزين وتوقع المتألمين ما يجعله فى المنع معذورا
وبالتراجع . شكورا . وقد قال أبو نصر العتبي رحمه الله تعالى :

الله يعلم إنى لست ذا بخل ولست ملتمسافى البخل لى عللا
لكن طاقة مثلى غير خافية والنمل يعذر فى القدر الذى حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدّم القدرة على فوت الصنيعة
وزوال العادة حتى صار اضنى جسدا وأزيد كمدا كما قال الشاعر :

وكنّت كجاز السوء قص جناحه يرى حشرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجوّ تخفق حوله فيذكر إذ ريش الجاحين وافر

(والحال الرابعة) ان يكون السائل غير مستوجب والمسئول متمكنا
وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالردّ قدح عرض أوقبح هجاء ممض
كان البذل اليه مندوبا صيانة لا جودا فقد روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة » وإن أمن
من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل
الرجاء بالخيبة والأمل بالايأس ولما فيه من اعتباد الرد واستسهال المع
المفضى الى الشح . وأنشد الأصمعي عن الكسائي :

كأنك في الكتاب وجدت لاء محزمة عليك فلا تحلّ

فما تدري اذا أعطيت مالا أيكثر من سماحك أم يقتل ؟

اذا حضر الشتاء فأنت شمس وان حصر المصيف فأنت ظل

ومن الناس من اعتبر الأسباب وغلب حال السائل وندب الى
المنع اذا كانت العطاء في غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرّضت
ولا يعجز عنها اذا لزمته وتعينت . وقد قال بعض الشعراء :

لا تجحد بالعطاء في غير حق ليس في منع غير ذى الحق بخل

إنما الجود أن تجود على من هو للجود والندى منك أهل

فأما من اجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده
مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فلا غبار بحق السائل بعد الوعد
ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الردّ فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل
ومقت القادر وهجنة الكذب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما في المطل

من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر. والعرب تقول في أمثالها : المطل أحد المنعين واليأس أحد النجحين . وقال بشار بن برد :
أظلت علينا منك يوما غمامة أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يحلى فييأس طامع ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها
ثم اذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويسر أن
كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . وقال الشاعر :

فانك لاتدرى اذا جاء سائل أنت بما تعطيهِ أم هو أسعد ؟
عسى سائل ذو حاجة إن منعتهُ من اليوم سؤلًا أن يكون له غد
وليكن من سروره اذا كانت الأرزاق مقدرة أن تكون على يده جارية
ومن جهته واصله لاتنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه بياس . وحكى أن
رجلا شكَا كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال : انظر من كان منهم ليس
رزقه على الله عز وجل فحوّله الى منزلى . وقال ابن سيرين لرجل كان
يأتيه على دابة ففقد الدابة : ما فعل برزوك ؟ قال : اشتدت على مؤنته
فبعته قال : أفتراه خلف رزقه عندك . وقال ابن الرومى رحمه الله :

إن لله غير مرعاك مرعى نرتعيه وغير مائك ماء

إن لله بالبرية لطفًا سبق الأمهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله
عز وجل كالذى حكاه أبو بكره عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن
أعرابيا أتاه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنة أكس بنيأتى وأمهنه

وكن لنا من الزمان جنة أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضى الله عنه : فان لم أفعل يكون ما ذا ؟ فقال :

* إذن أبا حفص لأذهبنه *

فقال : فاذا ذهبت يكون ما ذا ؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنه يوم تكون الأعطيات هَنَّة
وموقف المسئول بينهنه إما إلى نار وإما جنسه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال : يا غلام أعطه
قيصى هذا لذلك اليوم لالشعره أما والله لا أملك غيره . وإذا كان
العتاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعمرى عن امتنان
ونشر فكان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل . وأما المعطى اذا التمس
بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء
لأنه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفى هذين من
الذم والسمعة ما ينافى السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا مترجحا
لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل
قوله تعالى : «ولا تمنن تستكثر» أنه الذى يعطى عطية يلتمس بها أفضل
منها . وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك لا تمنن
بعملك تستكثر على ربك وقال أبو العتاهية :

وليس يد أوليتها بغير غنى
غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا
واعلم أن الكريم يجتدى بالكرامة واللفظ واللئيم يجتدى بالمهانة
والعنف فلا يجوز الا خوفا ولا يجيب الاعنفا كما قد قال الشاعر :

رأيتك مثل الجوز يمنع ليه صحيجا ويعطى خيره حين يكسر
فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سبيلا الى
إعطائك فيجرى عليه سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما
ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الأحنف :
صرت كأنى ذبالة نصبت تضى للناس وهى تحترق

وأما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع أيضا نوعين قولاً

وعملا : فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودّد بجمل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرّا محمودا . وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما في تأويل قوله تعالى : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » أنها الكلام الطيب . وكان سعيد بن جبير يتأول أنها الصلوات الخمس . وروى سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق » وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قول الأعرابي هذا :

وحى ذوى الأضغان تسب قلوبهم تحيتك الحسنى فقد ترفع النعل
فان دحسوا بالمركر فاعف تكرما وان حبسوا عنك الحديث فلا تسئل
فان الذى يؤذك منه سماعه وان الذى قالوا وراءك لم يقل
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان
لسحرا » وقيل للعتابي : انك تلقى العامة بشرو وتقريب قال : دفع صنيعه
بأيسر مؤنة واكتساب إخوان بأيسر مبدول . وقيل فى منشور الحكم :
من قل حياؤه قل أحباؤه . وقال بعض الشعراء :

أبني ان البشر شيء هين وجه طليق وكلام لين
وقال بعضهم :

المرء لا يعرف مقداره ما لم تب للناس أفعاله
وكل من يمننى بشره فقلما ينفعنى ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم وليس فى هذه الأمور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الأول لأنها وان كثرت فهى أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلمها فى اكتساب الأجر وجميل الذكر ونفع

على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل معروف صدقة » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله » وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا يزهديك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جمود الكافر . وقال الخطيئة :
(١) من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشي :

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كنور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

فينبغي لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغمام إمكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فانت فأعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فأورثت نجلا . وقد قال الشاعر :

ما زلت أسمع : كم من واثق نجمل حتى ابتليت فكنت الواثق النجلا
ولو فطن لنوائب دهره وتحمظ من عواقب مكره . كانت مغامره
مذخورة ومغارمه مجبورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من فنع عليه باب من الخير فليمتزه فانه لا يدري متى يغلق عليه »
وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شيء ثمرة وثمره المعروف تعجيل السراح » . وقيل لأنوشروان : ما أعظم المصائب عندكم ؟ فقال :
ان تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد . من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها . وقال بعض الشعراء :

(١) قوله جوازيه هو الصواب وفي الأصل المطبوع جوازه وهو تحريف كنهه مصححه

إذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل خافقة سكوت
ولا تغفل عن الاحسان فيها فما تدري السكون متى يكون
وإن درت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون
وروى أن بعض وزراء بني العباس مطل راغبا اليه في عمل يستكفيه
إياه فكتب اليه بعد طول المطل به :

أما يدعوك طول الصبر مني على استئناف منفعتي وشغلي
وعلمك أن ذا السلطان غاد على خطرين من موت وعزل
وأنت أن تركت قضاء حقى الى وقت التفرغ والتخلي
ستصبح بادما أسفا معزى على فوت الصنيعة عند منلى
وكتب بعض ذوى الحرمان الى وال قد قصر فى رعاية حرمة يقول :
أعلى الصراط تريد رعية حرمتى أم فى الحساب تمن بالانعام ؟
للتنع فى الدنيا أردت فانتبه لحوائجى من رقدة النجوم
وكتب أبو على البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة
الأشغال يقول :

لنا كل يوم نوبة قد تنوبها وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فأنما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل
واعلم أن المعروف شروط لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك
ستره عن إذاعة يستطيل لما واخفاؤه عن إشاعة يستدل بها . قال
بعض الحكماء : اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فأنشره
ولقد قال دعبل الخزاعى :

اذا انتقموا أعلنوا أمرهم وان أنعموا أنعموا باكتسام
يقوم القعود اذا أقبلوا وتقعده هيبتهم بالقيام
على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعى نشره
لما جبلت عليه النفوس من إظهار ما خفى وإعلان ما كتم . وقال
سهل بن هارون :

خلّ اذا جئته يوما لتسأله أعطاك ماملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرها ان الجميل اذا أخفيتها ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبرا وتقليله عن أن
يكون مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا أشرا . وقال العباس
ابن عبد المطلب رضى الله عنه : لا يتم المعروف الا بثلاث خصال
تعجيله وتصغيره وسوتره فاذا عجلته هنأته واذا صغرت عظمته واذا
سترته أتمته . وقال بعض الشعراء :

زاد معروفك عندى عظما أنه عندك مستور حقير
وتأسيت كان لم تأته وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبه الامتنان به وترك الاعجاب بنفعه
لما فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر . فقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال : « إياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر
ويحق الأجر ثم تلا . « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . وسمع
ابن سيرين رجلا يقول لرجل : فعلت اليك وفعلت . فقال ابن سيرين
اسكت فلا خير فى المعروف اذا أحصى . وقال بعض الحكماء : المن
مفسدة الصنيعة . وقال بعض الأدباء : كدر معروف امتنان وضيع حسبا
امتهان . وقد قال بعض البلغاء : من منّ بمعروفه سقط شكره ومن أعجب
بعمله حبط أجره . وقال بعض الفصحاء : قُوّة المِنَّ من ضعف المِنَّ .
وقال بعض الشعراء :

أفسدت بالمنّ ما أسديت من حسن ليس الكريم اذا أسدى بمنان
وقال أبو نواس :

فامض لا تمنّ علىّ يدا منك المعروف من كدره
وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه :
لا تحملن لمن يمن من الأنام عليك منّ

واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جُنته
 ممن الرجال على القلوب أشد من وقع الأسنة
 ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيئا وان كان قليلا نذرا اذا
 كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقك يسيره فمع منه أعجزه
 كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه . فقد روى عن
 النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يمنعكم من المعروف صغيره » .
 وقال عبد الله بن جعفر : لا تستجى من التمليل فان البخل أقل منه ولا
 تجب عن الكثير فانك أكثر منه . وقد قال الشاعر :

اعمل الخير ما استطعت وان كان قليلا فلن تحيط بكه
 ومضى تفعل الكثير من الحب . را اذا كنت تاركا لأقله ؟

على أن من المعروف ما لا كلنة على موليه ولا مشقة على مسديه
 وإنما هو جاه يستظل به الأدنى ويرتفق به التابع . وقد قال الشاعر :

ظُلُّ الفتى ينفع من دونه وماله في ظله حظ

واعلم أنك لن تستطيع أن توسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم
 إحسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية
 والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا . وقد روى عن
 النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تنفع الصنعة الا عند ذى حسب
 ودين » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اذا أراد الله بعبد خيرا جعل
 صنائعه فى أهل الحفاظ » وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

إن الصنعة لا تكون صنعة حتى يصاب بها طريق المصنع
 فاذا صنعت صنعة فاعمل بها لله أول ذوى القرابة أودع
 وقيل فى منشور الحكم : لا خير فى معروف الى غير عروف . وقد
 ضرب الشاعر به مثلا فقال :

كحمار السوء إن اشبعته ربح الناس وان جاع نهق

وقد قال بعض الحكماء : على قدر المغارس يكون اجتناء الفارس
فأخذه بعض الشعراء فقال :

لعمرك ما المعروف في غير أهله وفي أهله إلا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس في شكر الصنعة عندهم وفي كفرها إلا كبعض المزارع
فمزرعة طابت وأضعف نبتها ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من أسدى إليه المعروف واصطنع إليه الاحسان فقد صار بأسر
المعروف موثوقا وفي ملك الاحسان مرقوقا ولزمه إن كان من أهل
المكافأة أن يكافئ عليه وإن لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بنشره
ويقابل الفاعل بشكره . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« من أودع معروفا فليُنشره فإن نشره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره »
وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليّ
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنمّل بهذين البيتين :

ارفع ضعيفك لا يحركك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أويتني عليك وإن من أثني عليك بما فعلت فقد جزي

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ردى عليّ قول اليهودي فأتله الله لقد
أتاني جبرائيل برسالة من ربي تعالى « أيما رجل صنع إلى أخيه صنعة
فلم يجد لها جراء إلا الدعاء والنساء فقد كافأه » . وقيل في منشور الحكم :
الشكر قيد النعم . وقال عبد الحميد : من لم يشكر الانعام فاعدده من الأتعم
وقيل في منشور الحكم : قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء : كفر
النعم من أمارات البطر وأسباب الغير . وقال بعض الصحاء : الكريم
شكور أو مشكور والثلثم كفور أو مكفور وقال بعض البلغاء : لا زوال
للنعمه مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الأدباء :

شكر الاله بطول الشناء وشكر الولاة بصدق الولاء

وشكر النظير بحسن الجزاء وشكر الدنى بحسن العطاء
وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغنى عن الشكر ما جدد لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره فقال : اشكروا لى أيها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر إفضال من أنعم عليه
فقد أدى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة
ذلك إتماما لشكره ليكون للزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا .
حكى أن الحاج أتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فأمر
بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل
الى قطرى بن الفجاءة وكان من أصحابه فقال له : عد الى قتال الحاج عدو
الله فقال : هيات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشأ يقول :

أأقاتل الحاج عن سلطانه بيد تقرّ بأنها مولاته ؟
انى اذا لأخو الدناءة والذى شهدت بأقبح فعله غدراته
ماذا أقول اذا وقفت إزاءه فى الصف واحتجت له فعلاته
أأقول : جار على لا إنى اذا لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدّث الأقوام أن صنائعا غرست لدى فخنظلت نخلاته
وقيل فى منشور الحكم : المعروف رق والمكافأة عتق . ومن أشكر الناس
الذى يقول :

لأشكرن لك معروفا هممت به إن أهتأمتك بالمعروف معروف
ولا ألوملك ان لم يمضه قدر فالشىء بالتدر المحتوم مصروف
وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدّم البر قد يكون
على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور فى وصول بره وإسداء
عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه
فيكون كما قال العتاتى :

قد أوردت فيك آمالي بوعدك لي وليس في ورق الآمال لي ثمر
وقد يكون تارة من فرط شكر الرأجي وحسن مكافأة الآمل فلا
يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف
لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا ان يفوت نفسه غنا ولا يحرمها ربحا
فهذا وجه ثان . وقد يكون تارة ارتهانا للأمول وحثا للسؤل وبحسب
ما أسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس . وقال بعض الأدباء من
حكما المتقدمين : من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا
انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومي :

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
خفيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد
كفر النعمة وحمد الصنيعة وإن من أذم الخلائق وأسوأ الطرائق
ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع . فقد روى أبو هريرة رضى الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يشكر الله من لا يشكر
الناس » . وقال بعض الأدباء : من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة .
وقال بعض الفصحاء : من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد .
وقال بعض البلغاء : من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة . وأنشدنى
بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه :

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر أبى لها
وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة

(فأما القاعدة الثالثة) فهي المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر. قال الله تعالى: «وما جعلناهم جسدا لاياً كلون الطعام وما كانوا خالدين» فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم يستقم له دين واذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياء بقدر ما تعذر من المادة عليه لأن الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله. ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها اعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئموا أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكفوا ائتلافهم في المعاش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى أطلع بها على عواقب الأمور وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز إخبارا وإذكارا فقال سبحانه وتعالى: «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» اختلف المفسرون في تأويل ذلك فقال قتادة: اعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد: اعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته. وقال تعالى: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» يعني معاشهم متى يزرعون ومتى يغرسون. وقال تعالى: «وقدر فيها اقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين» قال عكرمة: قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد. وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد: قدر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أرزاقهم. ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معاشهم دينا يكون عليهم حكما وشرعا يكون لهم قيدا ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب

مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبا وتستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى: «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض». قال المفسرون في هذا الموضع: هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا إليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة. ثم انه جات قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب: فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهي شيئا نبت نام وحيوان متناسل. وقال الله تعالى: «وأنه هو أغنى وأقنى» قال أبوصالح: أغنى خلفه بالمال وأقنى جعل لهم قنية وهي أصول الأموال. وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين: أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة وهذان هما فرع لوجهي المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه: نماء زراعة وتناج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة. وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال: سمعته يقول: معاش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وإمارة فمن خرج عنها كان كلا عليها. وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز

أما الأول من أسبابها وهي الزراعة فهي مادة أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعاً وأوفى فرعاً ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال: «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» وقال صلى الله عليه وسلم: «نعمت لكم النخلة تشرب من عين حرارة وتغرس في أرض خؤارة». وقال صلى الله عليه وسلم في النخل:

«هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل» وقال بعض السلف: خير المال عين خسارة في أرض خسارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت. وروى هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعنى الزرع. وحكى عن المعتضد أنه قال: رأيت على بن أبي طالب رضى الله عنه في المنام يناولنى المسحاة وقال: خذها فانها منفايح خزان الأرض. وقال كسرى للموبذ: ما قيمة تاجى هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا أن تكون مطرة في نيسان فانها تصلح من معاش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. ولقى عبدالله بن عبد الملك ابن شهاب الزهرى فقال له ادلنى على مال اعجله فأنشأ ابن شهاب يقول:

لتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوما أن تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة اذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فللقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلبثت أصله وتوالى ثمره

وأما الثانى من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا الى الأموال المتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لأنه يستقل فى الثقلة بنفسه ويستغنى عن العلوقة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر لثقله مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لحلقه فى تعديل المصالح فيهم وإرشادا لعباده فى قسم المنافع بينهم. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة» ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: مهرة مأمورة أى كثيرة

النسل ومنه ما تأول الحسن وقتادة قوله تعالى : «أمرنا مترفياً» أى كثرتنا عددهم وأما السكة المأبورة فهي النخلة المؤبرة الحمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : فى الغنم «سمنها معاش وصوفها ريش» وروى عن أبي ظبيان أنه قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما مالك يا أبا ظبيان قال : قلت عطائى ألفتان قال : اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل أن تليك غلمة من قریش لا تعدّ العطاء معهم مالا والسائبات التناج . وحكى أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : إني اتخذت غنماً أبتغى نسلها ورسلتها وإنها لا تنمى فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت : سود فقال لها : غفري وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى مناحك الأدميين : اغتربوا لا تضووا

وأما الثالث من أسبابها وهى التجارة فهى فرع لمادتى الزرع والتناج فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : تسعة أعشار الرزق فى التجارة والحرث والباقى فى السائبات وهى نوعان تقاب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه ذوو الأقدار وزهد فيه ذوو الأخطار والثانى تقاب بالمال بالأسفار ونقله الى الأمصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطراً وأعظم غمراً فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ان المسافر وماله لعلی قات الا ما وقى الله» يعنى على خطر . وفى التوراة يابن آدم احدث سفراً أحدث لك رزقا

أما الرابع من أسبابها وهى الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آلات للصناعة فأشرفهم نفساً متبهي لأشرفها جنساً كما أن أرذلهم نفساً متبهي لأرذلها جنساً لأن الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو الى ما يحائسه . وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج

الى أقاصى الأرض قال لأرسطاطاليس : اخرج معى قال : قد نحل جسمى وضعفت عن الحركة فلا تزعجنى قال : فما أصنع فى عمالى خاصة قال : انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة . وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر وتدييره . فأما صناعة الفكر فقد ينقسم قسمين : أحدهما ما وقف على التدييرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها . والثانى ما أدت الى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه

وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين : عمل صناعى وعمل بهيمى . فالعمل الصناعى أعلاهما رتبة لأنه يحتاج الى معاطاة فى تعلمه ومعاناة فى تصوّره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والأخرانما هو صناعة كدّ وآلة مهنة وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرذلة ونقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكتثم بن صيفى : لكل ساقطة لاقطة وكل قال المتلمس :

ولا يقيم على ضميم يسام به إلا الأذلان غير الحى والودد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له احد

واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين : أحدهما ان تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة . والثانى أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التى ركبهم الله عز وجل عليها فى ارتياد موادهم ووكلمهم الى نظرهم فى طلب مكاسبهم وفرق بين همهم فى التماسها ليكون ذلك سببا لألقهم . فسبحان من تفرّد فينا بالطفيف

حكيمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته. واذ قد وضع القول في أسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور :

أحدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى الى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذه احوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى الله تعالى الى كلمات فدخل في أذني وقرن في قاري من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلم الله على كفاف » وروى حميد عن معاوية بن حيدة قال : قلت يا رسول الله : ما يكتفيني من الدنيا قال : ما يستجوعتك ويسترعورتك فان كان دار فذاك وإن كان تمار فبخ فلق من خبز وجر من ماء وأنت مسئول عما فوق الأزار . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى : « اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » أن كل من ملك بينا وزوجه وخادما فهو ملك . وروى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى صحيح لأنه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار محبوب الا عن إذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا نوحى الحلال منه وإجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له . وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات فذر ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته لله » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال : أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها . وحكى عبد الله بن المبارك قال : كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي : ان استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه

من استوعب الحلال تأقت نفسه الى الحرام . وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى : «فان له معيشة ضنكا» فقال عكرمة يعنى كسبا حراما وقال ابن عباس : هو إنفاق من لا يوقن بالخلف . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب فاذا أحسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل : من قل توقيه كثرت مساويه . وقال بعض البلغاء : خير الأموال ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الأموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام وكان الأوزاعى الفقيه كثيرا ما يمثّل بهذه الأبيات :

المال ينفد حله وحرامه يوما ويبقى بعده آثامه
ليس التقي بمتق لالهه حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب مايجنى ويكسب أهله ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبيّ لنا به عن ربه فعلى النبيّ صلاته وسلامه

وحكى عن ابن المعتز السامى قال : الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط . فالفقراء موتى الا من أغناه الله بغز القناعة . والأغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الأوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى .

والأمر الثانى أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد فى التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كاد الحسد يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا» وقال بزرجمهر : ان كان شىء فوق الحياة فالصحة وان كان شىء مثلها فالغنى وان كان شىء فوق الموت فالمرض وان كان شىء مثله فالفقر . وقيل فى منشور الحكم : القبر خير من الفقر ووجد فى نيل مصر مكتوب على حجر :

عقب الصبر نجاح وغنى ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى ومن نهكت البلوى ومن ذلة الفقر
ومن أمل يمتد في كل شارق يرجعني منه بحظ يد صفر
إذا لم تدنسني الذنوب بعارها فلست أبالي ما تشعث من أمري
وإذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد
غير اسمه لأن الله تعالى إنما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم إلى
القضاء بعد الاعواز. وقد روى معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال:
ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يارسول
الله: خرج معنا حاجا فإذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فإذا ارتحلنا
لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم: فمن كان
يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا: كلما يارسول الله قال: كلكم خير
منه. وقال بعض الحكماء: ليس من توكل المرء إضاعته للعزم ولا من
الحزم إضاعة نصيبه من التوكل. وإن كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه
حال من علم بحاسبة نفسه يتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق
الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد
روى أبو الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من يوم طلعت
فيه شمس إلا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا
الثقلين يأياها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى»
وروى زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أجمعين
أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انتظار الفرج من الله بالصبر
عبادة ومن رضي من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضي عن الله عز وجل منه
بالقليل من العمل» وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من
نيل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصى الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال:

يا عائب الفقر ألا تزدرج عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى لتنال الغنى ولست تعصى الله كي تفقر

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى وأن قليل المال خير من المثرى
لثأؤك مخلوقا عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر
وهذه الحال إنما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته
حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالتقليل لم يقنع
بالكثير كما كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما :
يا أنحى من استغنى بالله اكفى ومن انقطع الى غيره تغنى ومن كان من
قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم
نفسك العفاف وإياك وجمع الفضول فإن حسابه يطول . وقال بعض
الحكماء : هيات منك الغنى ان لم يقنعك ما حوت فأما من أعرضت
نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى إكراهها
سبيل ولا للحمل عليها وجه إلا بالرياضة والمروءة وأن يستنزها الى اليسير
الذى لا تنفر منه فاذا استقرت عليه أنزلها الى ما هو أقل منه لتنتهى بالتدريج
الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة . وقد تقدم
قول الحكماء : ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكم ما فى الأمر الثانى من
التقصير عن طلب الكفاية (وأما الأمر الثالث) فهو ان لا يقنع بالكفاية
ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك أربعة اسباب : أحدها منازعة
الشهوات التى لاتنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة
طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك
ذريعة الى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده
وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانىه من استدامة كده وأتعبه

مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تتكف عنه بقناعة . وقد روى عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أراد الله به خيرا حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا أراد به شرا وكفه الى نفسه » وقد قال الشاعر :

وإنك إن أعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

(والسبب الثاني) أن يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا أعذر وبالحمد أخرى واجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب وأحسن التقدير في حالتي فائدته وافادته على قدر الزيادة وبقدر الامكان لأن المال آلة للكارم وعون على الدين ومناهل للاخوان ومن فقدته من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرغبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به . وقد روى عبدالله ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن حساب أهل الدنيا هذا المال » وقال مجاهد : الخير في القرآن كله المال « وإنه لحب الخير لشديد » يعنى المال « وأحببت حب الخير عن ذكر ربى » يعنى المال « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » يعنى مالا وقال شعيب النخعي عليه السلام : « إني أراكم بخير » يعنى المال وانما سمي الله تعالى المال خيرا اذا كان في الخير مصروفا لأن ما أدى الى الخير فهو في نفسه خير وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى : « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد : الحسنة في الدنيا المال وفي الآخرة الجنة وقال الحسن البصري وسفيان الثوري : الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقال ابن عباس : الدراهم والدنانير خواتم الله في الأرض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها

قضيت حاجتك . وقال قيس بن سعد : اللهم ارزقني حمدا ومجدا فإنه لا حمد إلا بفعل ولا مجد إلا بمال . وقد قيل لأبي الزناد : لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا فقال : هي وإن أدنتني منها فقد صانتني عنها . وقال بعض الحكماء : من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض . وقيل في منشور الحكم : من استغنى كرم على أهله . ومرة رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه فقيل له بعد ذلك : أكانت لك إلى هذا حاجة قال : لا ولكني رأيت ذا المال مهيبا . وسأل رجل محمد بن عمير ابن عطار وعتاب بن ورقاء في عشر دبات فقال محمد : على دية وقال عتاب : الباقي على فقال محمد : نعم العون على المجد اليسار . وقال الأحنف بن قيس :

فلو كنت مُثَرَّى بمال كثير لجدت وكنت له باذلا

فإن المروءة لا تستطاع إذا لم يكن لها فاضلا

وكان يقال : الدراهم مراهم لأنها تداوى كل جرح ويطيب بها كل صالح . وقال ابن الجلال :

رزقت مالا ولم ترزق مروءته وما المروءة إلا كثرة المال

إذا اردت رقي العلياء يقعدني عما ينوءه باسمي رقة الحال

وقيل في منشور الحكم : الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة . وقال اوس بن حجر :

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها وأحرا إذا حالت بأف أثنؤلا

فاني وجدت الناس إلا أقلمهم خفاف عهود يكثرلون التنقلا

بنى أم ذى المال الكثير يرونه وإن كان عبدا سيد القوم محفلا

وهم لمقل المال أولاد علة وإن كان محضا في العشيرة مخولا

وقال بشر الضرير

كفى حزنا أنى أروح وأغتدى ومالى من مال أصون به عرضى

وأكثر ما لقي الصديق بمرحبا وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وقال آخر

اجلك قوم حين صرت الى الغنى وكل غنى في العيوب جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى عشية يقرى أو غداة ينيل
وقد اختلف الناس في تفضيل الغنى والفقير مع اتفاقهم على أن
ما أحوج من الفقر مكروه وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى
تفضيل الغنى عن الفقر لأن الغنى مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل
من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون
الى تفضيل الفقر على الغنى لأن الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا
أفضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة .
وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج عن حد
الفقر الى أدنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الأمرين ويسلم من مذمة
الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وأن خيار الأمور
أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق في موضعه بما أغنى عن إعادته
(والسبب الثالث) أن يطلب الزيادة ويقتنى الأموال ليتخبرها لولده
ويخلعها لورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه
إشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقّ يجمعها مأخوذ
بوزرها قد اسحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب : منها سوء
ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم الا من جهته . وقد قيل : قتل القنوط صاحبه
وفي حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد : كيف تبقى على
حالتك والدهر في إحالتك . ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نواب
الزمان ومصابئه وقد قيل : الدهر حسود لا يأتى على شيء إلا غيره . وقيل
في منشور الحكم : المال ملول . وقال بعض الحكماء : الدنيا ان بقيت لك
لاتبقى لها . ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل : إنما
مالك لك أول الوارث أو للجائحة فلا تكن أشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد

اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك . ومنها ما لحقه من شقاء جمعه
وناله من عناء كده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقد قيل :
رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر :
ومن كلفته النفس فوق كفافها فما ينقضى حتى المات عناؤه
ومنها ما يؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه .
وقد حكى أن هشام بن عبد الملك لما ثقل بكي ولده عليه فقال لهم :
جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم
عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا
المعنى محمود الوراق فقال :

تمتع بمالك قبل المات والا فلا مال إن أنت متا
شقيت به ثم خلفته لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
بفادوا عليك بزور البكاء وجدت عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتم كل ما في يديك وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال : يا رسول الله ولنى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عباس يا عم
النبي صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس
يا عم النبي نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها يا عباس يا عم النبي
صلى الله عليه وسلم إن الامارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها جزاء
يوم القيامة فقال : يا رسول الله الا من عدل فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : كيف تعدلون مع الأقارب . وقال رجل للحسن البصرى
رحمه الله : انى أخاف الموت وأكرهه فقال : انك خلفت مالك ولو قدمته
لسرك اللحاق به . وقيل فى منشور الحكم : كثرة مال الميت تعزى ورثته
عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومى فقال وزاد :

أبقيت مالك ميراثا لو ارثه فليت شعرى ما أبقي لك المال

القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد واستحكم القول في الميراث والقال
ولتهم عنك دنيا أقبلت لهم وأدبرت عنك والأيام أحوال
(والسبب الرابع) أن يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا
باحتيجانه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشدّهم حرمانا له قد توجهت إليه
سائر الملالوم حتى صار وبالا عليه ومذاق له وفي مثله قال الله تعالى :
«والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم
بعذاب أليم» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تبا للذهب تبا للفضة فشق
ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أى مال نتخذ فقال
عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد
شق عليهم فقالوا : أى مال نتخذ فقال : لسانا ذا كرا وقلبا شا كرا وزوجة
مؤمنة تعين أحدكم على دينه . وروى شهر بن حوشب عن أمامة قال :
مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : كية ثم مات آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وإن كان قد مات على عهده
من ترك أموالا جمة وأحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان في هذين لأنهما
تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما إليه حاجة فصار ما احتجناه
وزرا عليهما وعتابا لهما وقد قال الشاعر :

إذا كنت ذامال ولم تك ذاندى فانت اذاً والمقترون سواء
على أن في الأموال يوما تباعة على أهلها والمقترون براء
وأنشدت عن الربيع للشافعي رضى الله عنه :

إن الذى رزق اليسار فلم يصب حمدا ولا أجزا لغير موفق
والجد يدنى كل شئ شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم أمرؤ ذوهمة عليا وعيش ضيق

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
 فإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأورق في يديه فحقق
 وإذا سمعت بأن محدودا أتى ماء ليشر به بخفّ فصّدق
 وآفة من بلج بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والآذخار حتى
 انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن يستولى
 عليه حب المال وبعد الأمل فيبعثه حب المال على الحرص في طلبه
 ويدعوه بعد الأمل على الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم
 وسبب لكل لؤم لأن الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة
 والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : شر ما أعطى العبد شح
 هالغ وجبن خالغ . وقال بعض الحكماء : الغنى البخيل كالقوى الجبان .
 وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر
 على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط في الشبهات لفلة تحرزه
 منها وهذه ثلاث حالات هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع
 أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى إذلال نفسه
 وإسقاط خالقه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحريص
 الجاهل والقنوع الزاهد يستوفيان أكلهما غير متقص منه فعلام التهافت »
 وقال بعض الحكماء : الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من
 وجه رجل حرصا فرايت أن فيه مصطنعا . وقال آخر : الحريص أسير مهانة
 لايفك أسره . وقال بعض البلغاء : المقادير الغالبة لاتنال بالمغالبة . والأرزاق
 المكتوبة لاتنال بالشدة والمكالبه فذل للمقادير نفسك واعلم بأنك غير نائل
 بالحرص الآ حظك . وقال بعض الأدباء : رب حظ أدركه غير طالبه
 ودّر أحرزه غير حالبه . وأنشدنى بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم :

يا أسير الطمع الكا ذب في غل الهوان
 إن عز اليأس خير لك من ذل الأمانى

سامح الدهر اذا عجز* وخذ صفو الزمان
ربما أعدم ذوالحر ص وأثرى ذواتوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لأنه ان وصل بالحرص الى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل واذا لم يصل رأى إضاعة العناء لوما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من عنائه أقوى رجاء وأبسط أملا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والأمل » وقيل للشيخ عليه السلام : ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب فالأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب . ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضاء والقناعة بالقسم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقتصدوا في الطلب فان ما رزقتموه اشد طلبا لكم منكم له وما حرمتوه فلن تنالوه ولو حرصتم » وروى أن جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك : اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى من لم يتأدب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب في بعض الكتب : ردوا أبصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا . وقال مجاهد في تأويل قوله تعالى : « فلنجنيه حياة طيبة » قال بالقناعة . وقال أكرم بن صيفى : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والمروءة . وقال بعض السلف : قد يخيب الجاهد الساعى ويظفر الوادع الهادى فأخذه البحرى فقال :

لم ألق مقدورا على استحقاقه . في الحظ إما ناقصا أوزائدا

وعجبت للحدود يحرم ناصبا كلفا ولليحدود يغنم قاعدا
 ماخطب من حرم الارادة قاعدا خطب الذي حرم الارادة جاهدا
 وقال بعض الحكماء: إن من قنع كان غنيا وإن كان مقترا ومن لم يقنع
 كان فقيرا وإن كان مكثرا . وقال بعض البلغاء: اذا طلبت العز فاطلبه
 بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز
 نصره ومن لزم القناعة زال فقره . وقال بعض الأدباء: القناعة عز المعسر
 والصدقة حرز الموسر . وقال بعض الأدباء :

إنى أرى من له قنوع يدرك ما نال من تمنى
 والرزق يأتى بلا عناء وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه : فالوجه الأول أن يقنع بالبلغة
 من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل
 أهل القناعة وقال الشاعر :

اذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة الا رضيت بدونها
 وقال مالك بن دينار : أزهّد الناس من لا يتجاوز رغبته من الدنيا
 بلغت وقال بعض الحكماء : الرضا بالكفاف يؤدّي الى العفاف . وقال
 بعض الأدباء : رب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة .
 وأنشدني بعض أهل الأدب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه
 أفادتني القناعة كل عز وأى غنى أعز من القناعة
 فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعة

والوجه الثانى أن تنتهى به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول
 والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه
 وسلم انه قال : « ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد
 'تاه رزقه وإن هتك الحجاب لم يزد فى رزقه » وقال بعض الحكماء : طلب

ما فوق الكفاف إسراف . وقال بعض البلغاء : من رضى بالمقدور قنع بالميسور . وقال البحترى :

تطلب الأكثر في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالأقل
وأنشدت لأبراهيم بن المدبر :

إن القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى
فاذا صبرت عن المني فاشكر فقد نلت المني

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة الى الوقوف على ما سنع فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة : أما الرغبة فلا أنه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سئحت وأما الرهبة فلا أنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت . وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة . وقد روى الحسن بن علي عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاءه مما فات استراح بدنه ومن رضى بما رزقه الله تعالى قرت عينه » وقال أبو حازم الأعرج : وجدت الدنيا شيئين : شيئا هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئا هو لغيري وذلك مما لم أنه فيا مضى ولا أناله فيا بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي أتى هذين أفنى عمري واهلك نفسي . وقال أبو تمام الطائي :

لا تأخذني بالزمان فليس لي تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
لو جار سلطان القنوع وحكمه في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه يأتي ولم تبعث اليه رسولا

وأنشدنى بعض أهل الأدب لابن الرومى :
 جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
 جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين
 ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسئول وأفضل مأمول أن يحسن إلينا
 التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الزوة
 وموكلات الشهوة . روى شريك بن ابى نمر عن أبى الجذع عن أعمامه
 وأجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير أمتى الذين
 لم يُعْطُوا حتى يَظْطَرُّوا ولم يُقْتَرُوا حتى يَسْأَلُوا » وقال أبو تمام الطائى :
 عندى من الأيام ما لو أنه أضحى بتارب مرقد ما غمضا
 لا تطلبن الرزق بعد شماسه فترومه شعبا اذا ما غيضا
 ما عؤس الصبر امرؤ الا رأى ما فاته دون الذى قد عؤسا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلّة لا يستعنى
 محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لأن
 لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبية فان أغفل
 تأديبها تفويضها الى العقل أو توكلها على أن تنقاد الى الأحسن بالطبع
 أعدهم التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار
 من الأدب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لأن الأدب مكتسب
 بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال
 بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة
 ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيا وزكى الطبع اليه
 مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه
 مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « بعثت لأتم مكارم الأخلاق » . وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : من أذكك قال : ما أدبني أحد ولكني رأيت جهل الجاهل بخابته . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ان الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها . وقال أردشير بن بابك : من فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسان ومترين به في كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان . وقال مهيبود شبه العالم الشريف العديم الأدب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعمق كان أشد لوعورته وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المستفيع به آتفافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتفوق به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الأدب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها . وحكى الأصمعي رحمه الله تعالى أن أعرابيا قال لابنه : يا بني الأدب دامة أيد الله بها الألباب وحليته زين الله بها عواطل الأحساب فالعقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرته كما لا تستغنى الأرض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء : الأدب صورة العقل فصوّر عقلك كيف شئت . وقال آخر : العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الأدب كالشجر المشعر . وقيل : الأدب أحد المصيبين . وقال بعض البلغاء : الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب لأن من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله . وقال بعض الأدباء : ذك قلبك بالأدب كما تذكي النار بالحطب واتخذ الأدب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويقول نفعل وبرحى عدلك . وقال بعض العلماء : الأدب وسيلة الى كل

فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض النصحاء : الأدب يستتر
قبيح النسب . وقال بعض الشعراء فيه :

فما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الأدب
وما كرم المرء إلا التقى ولا حسب المرء إلا النسب
وفي العلم زين لأهل الحجا وآفة ذى الحلم طيش الغضب
وأشد الأصمعى رحمه الله :

وإن يك العقل مولودا فلست أرى ذا العقل مستغنيا عن حادث الأدب
إني رأيتهما كالماء مختلطا بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته في موالده غريزة العقل حاكي البهم في الحسب
والتأديب يلزم من وجهين : أحدهما مالزم الوالد لولده في صغره . والثاني
ما لزم الانسان في نفسه عند نشأته وكبره . فأما التأديب اللازم للأب
فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها وينشأ عليها فيسهل عليه
قبولها عند الكبر لاستئناسه بمبادئها في الصغر لأن نشأة الصغير على
الشيء تجعله متطبعا به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرا .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مانحل والد ولده نحلة
أفضل من أدب حسن يفيد إياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه
منه» وقال بعض الحكماء : بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال
وتفترق البال . وقال بعض الشعراء :

إن الغصون اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومته الخشب
قدينفع الأدب الأحداث في صغر وليس ينفع عند الشيبة الأدب
وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر
وأما الأدب اللازم للانسان عند نشأته وكبره فأدبان : ادب مواضعة
واصطلاح . وأدب رياضة واستصلاح . فأما أدب المواضعة

والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الأدباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضع الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانباً للأدب مستوجبا للذم لان فراق المؤلف في العادة ومجانبة ما صار متفقاً عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزاً في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسناً ويرون ما سواه قبيحاً فصار هذا مشاركاً لما وجب بالعقل من حيث ترجه الذم على تاركه ومخالفاً له من حيث انه كان جائزاً في العقل أن يوضع على خلافه . وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولاً على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد أهمها الله تعالى إرشاداً لها قال الله تعالى : « فألهما بفورها وتقواها » . قال ابن عباس رضي الله عنهما : بين لها ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسند ذكر تعليل كل شيء في موضعه فانه أولى به وأحق

فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيء ومساوى أخلاقه لأن النفس بالشهوات أمره وعن الرشد زاجره . وقد قال الله تعالى : « إن النفس لامارة بالسوء » وقال صلى الله عليه وسلم : « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك » ودعت أعرابية لرجل فقالت : كبت الله كل عدوك الا نفسك فأخذه بعض الشعراء فقال :

قلبي الى ما ضرني داعي . يكثر اسقامي واوجاعي

كيف احتراسى من عدوى اذا كان عدوى بين أضلاعى
 فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها
 وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الأخلاق بها فاذا صرف حسن الظن
 عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن
 معصيتها . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : العاجز من عجز
 عن سياسة نفسه . وقال بعض الحكماء : من ساس نفسه ساد ناسه .
 فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه
 من اتهام طاعتها ورد من صحتها فان النفس وإن كان لها مكر يردى فلها
 نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن مساوئها كان سوء
 الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى
 عن مساوئها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا . وقد قال الجاحظ
 فى كتاب البيان يجب أن يكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى حسن
 الظن بها مقتصدا فانه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمها فأودعها
 ذلة المظلومين وإن تجاوز بها الحق فى مقدار حسن الظن أودعها
 تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من
 الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل . وقال الأحنف بن قيس : من ظلم
 نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم . وذهب قوم
 الى أن سوء الظن بها أبلغ فى صلاحها وأوفر فى اجتهادها لأن للنفس
 جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها
 لأنها محبوبة تجور إدلالا وتغر مكرافان لم يسيئ الظن بها غلب عليه جورها
 وتموه عليه غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا
 وقد قالت الحكماء : من رضى عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم :
 لم أرض عن نفسى مخافة سخطها ورضا الفتى عن نفسه إغضاها
 ولو آتني عنها رضيت لقصرت عما تزيد بثله آدابها

وتبينت آثار ذاك فأكثر عذلى عليه فطال فيه عتابها
وقد استحسّن قول أبى تمام الطائى :

ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا إساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لؤما بل
رأوا ذلك أبلغ فى الفضل وأبعث على الازدياد . فإذا عرف من نفسه
ما تتجق وتصوّر منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب إذا كان غيا ولا صرف
عنها ما تكره إذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان فى ملكها وغلبها
بعد أن كان فى غلبها . وقد روى أبو حازم عن أبى هريرة رضى الله
عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشديد من غلب نفسه .
وقال عون بن عبد الله : إذا عصبك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت
ولا يغرنك شاء من جهل أمرك . وقال بعض البلغاء : من قوى على
نفسه تنهى فى القوه ومن صبر عن شهوته بالغ فى المرقه فحينئذ يأخذ
نفسه عند معرفة ما أكنت وخبره ما أجنّت بتقويم عوجها وإصلاح
فسادها . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت يا رسول الله : منى
يعرف الانسان ربه قال : إذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام
من زيغ يحدث عن إغفال أو ميل يكون عن إهمال ليتم له الصلاح
وتستديم له السعادة فإن المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمّل بعد المراعاة
ذائع وسندكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوى
على ما يلزم مراعاته من الأخلاق ويجب معاناته من الأدب وهى ستة
فصول متفرعة :

(الفصل الأول) فى مجانبة الكبر والاعجاب لأنهما يسلبان الفضائل
ويكسيان الرذائل وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح ولا قبول لتأديب
لأن الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يحل نفسه
عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استراحة المتأديبين فلذلك

وجب تقديم القول فيهما بإبانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فتقول :
 أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الإخوان
 وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه
 وسلم لعمة العباس : أنهلك عن الشرك بالله والكبر فإن الله يحنج منهما
 وقال أردشير بن بابك : ما الكبر إلا فضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به
 فيصرفه الى الكبر وما أشبه ما قال بالحق . وحكى أن مطرف بن عبدالله
 ابن الشخير نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشى الحيلاء
 فقال : يا أبا عبدالله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب : أما
 تعرفني فقال : بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قدرة وحشوك
 فيما بين ذلك بول وعذره فأخذ ابن عوف هذا الكلام فظمه شعرا فقال :

عجبت من معجب بصورته وكان بالأمس نطفة مذرة
 وفي غد بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قدرة
 وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذرة

وقد كان المهلب أفضل من أن تخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة
 من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال . فأما الحمق الصريح
 والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس في حلقة
 العلاء بن عبد الرحمن انخرق وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال : أندرون
 لم جلست اليكم قالوا : جاست لتسمع قال : لا ولكني أردت أن أتواضع
 لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عذل
 وقد قال ابن المعتز : لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوى الكمال
 استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حتميرا وليس بغافل

وأما الإعجاب فيخفى المحاسن ويظهر المساوى ويكسب المذام
 ويصد عن الفضائل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 «إن العجب لياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» . وقال تلى بن

أبي طالب كرم الله وجهه : الا عجب ضد الصواب وآفة الألباب وقال
 بزرجهم : النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم
 صاحبه منه العجب . وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد
 حساد عقله . وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي
 اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطغى من المحاسن ما انتشر ويسلب
 من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل
 فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد . حكى عمر بن حفص
 قال : قيل للحجاج : كيف وجدت منزلك بالعراق قال : خير منزل لو كان الله
 بلغنى قتل أربعة فتقررت اليه بدمائهم قيل : ومن هم قال : مقاتل بن مسمع
 ولى سجنسنان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد
 البصرة فبسط الناس له أرديتهم فشى عليها وقال لرجل يماشيه : لمثل هذا
 فليعمل العاملون . وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمى خوف أهل البصرة
 أمرا فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد
 أكثر الله فينا مثلك فقال : لقد كافتم الله شططا . ومعبد بن زرارة كان
 ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة فقالت له : يا عبد الله كيف
 الطريق الى موضع كذا فقال : ياهناه مثلى يكون من عبيد الله .
 وأبو شمال الأسدى أضل راحلته فالتسها الناس فلم يجدوها فقال : والله
 ان لم يرد الى راحلتى لا صليت له صلاة أبدا فالتسها الناس فوجدوها
 فقالوا : قدر الله راحلتك فصل فقال إن يمينى يمين مصر . فانظر الى
 هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى حق صاروا به نكالا فى الأولين
 ومثالا فى الآخرين . ولو تصوّر المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة
 وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لنا من عتوه وسكونا
 من نفوره . وقال الأحنف بن قيس : عجبت لمن جرى فى مجرى البول
 مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال :

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته أنظر خلاك فان النتن تثير
لو فكر الناس فيما في بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرومة وهو نجس من الأقدار مصروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك والعين مرفضة والشعر ملعوب
يا ابن التراب وما كول التراب غدا أقصر فانك ما كول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره
وعظم فيها خطره لأنه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها
كل كبير . وقال محمد بن علي : لا ينبغي للشریف أن يرى شيئا من
الدنيا لنفسه خطيرا فيكون مهانا بها . وقال ابن السماك لعيسى بن
موسى : تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان
متصاذان بمعنى واحد : التواضع والشرف

وللكبر أسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد وفوذ الأمر وقلة مخالطة
الأكفاء . وحكى ان قوما مشوا خلف علي بن أبي طالب رضى الله
عنه فقال : أبعادوا عنى خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال
ومشوا خلف ابن مسعود فقال : ارجعوا فانها زلة للنابع وفتنة للمتبع .
وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبي صلى الله عليه وسلم
فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم : هوّن عليك فانما أنا ابن
امرأة كانت تأكل الفديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما
لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاسراف النفس وتذليلا
لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى
الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد
الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس
لقد رأيتنى أرمى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة
من التمر والزبيب فأظل اليوم وأى يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف :

والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضي الله عنه : ويحك يا ابن عوف اني خلوت فحدثتني نفسي فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعترفها نفسها . وللاعجاب أسباب : فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتلق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يركى رجلا فقال له : قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المدح ذبح . وقال ابن المقفع : قابل المدح كمدح نفسه . وقال بعض الحكماء : من رضى أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن السأخ مننه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والتماذج فانه الذبح إن كان أحدكم مادحا أحاد لا محالة فليقل أحسب ولا أركى على الله احدا » وقبل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة : عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب . وقال بعض الشعراء :

باجاهلا غرّه إفراط مادحه لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به وأنت أعلم بالمحصول من ريك
وهذا أمر ينبغى للعاقل ان يضبط نفسه عن أن يسنفزها ويمنعها
من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح . وقال
الشاعر :

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سأم نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل
بها عن الفضائل المدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر
من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق

ألزم الأمرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا يخدع بها ميمز . وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الالباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ولتكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحزنا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به . وقد روى مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكونوا عيايين ولا تكونوا لعانيين ولا متمادحين ولا متمادوتين » . وحكى الأصمعي : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا مدح قال : اللهم أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون . وقال بعض الشعراء :

إذا المرء لم يمدحه حسن فعالة فمادحه يهذى وإن كان منصفحا
وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه : إقا
لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه . وإقا ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع . وإقا للتلذذ بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولأى ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفاضح . وقال بعض الشعراء :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أعمالا تدم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ولا كل من ضم الوديعه يصلح
ويذغى للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب
ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التى صرفه
حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا ويجعلون ما ينبهونه عليه

من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه » . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينا . وقيل لبعض الحكماء : أتحب أن تهدي اليك عيوبك قال : نعم من ناصح . ومما يقارب معنى هذا القول ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما : من ترى أن نوليّه حمص فقال رجلا : صحيحا منك صحيحا لك قال : تكون أنت ذلك الرجل قال : لا تنفع بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى . وقبل فى منشور الحكم : من أظهر عيب نفسه فقد زكّاها . فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعناض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من أوكّد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفونها الى المحبة ويشينها عن البغض . وقال بعض الحكماء : من برئ من ثلاث نال ثلاثا : من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة . وقال مصعب ابن الزبير : التواضع مصايد الشرف . وقيل فى منشور الحكم : من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لأن لتقلب الأحوال سكرة تظهر من الأخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب . وقد قال بعض الحكماء : فى تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال . وقال الفضل بن سهل : من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها . وقال بعض البلغاء : الناس فى الولاية رجلان رجل يجعل العمل بفضله ومروءته ورجل يجعل بالعمل لنقصه ودنائه فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل بعمله لبس به تجبرا وتكبيرا

(الفصل الثاني في حسن الخلق) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموا بحسن الخلق والسجاء فانه لا يكل الا بهما». وقال الأحنف بن قيس: ألا اخبركم بأدواء الداء قالوا بلى قال: الخلق الدني واللسان البذي. قال بعض الحكماء: من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة. وقال بعض البلغاء: الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء. وقال بعض الحكماء: عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فان النواء فيهم قليل. وقال بعض الشعراء:

إذا لم تنسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد

إذا ما المرء لم يخلق لبيا فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهبات عليه الأمور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال بعض الحكماء: من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المسعدين وقلة الأعداء المحجفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحبكم إلى أحسنكم أخلاقا الموطؤون أكتافا الذين يألقون ويؤلقون» وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة ابن الجاني طلق الوجه فليل النور طيب الكلمة. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأوصاف فقال: «أهل الجنة كل حين لين سهل طلق». ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر:

أصفوا وأكدر أحيانا لمختبرى وليس مستحسننا صفوا بلا كدر

وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وإنما يريد الكف والانتقباض في موضع يلام فيه

المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور. وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجهها عند الله تعالى». وقال سعيد بن عروة: لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المظهر وعجز المخبر أحب الى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين. وقال الشاعر:

خَلَّ النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى الا عدوا أو صديقا

وقال إبراهيم بن محمد

وكم من صديق وده باسائه خُون بظهر الغيب لا يتدغم
يضاحكنى عجا اذا ما لقيته وَتَقَدَّعْنِي مِنْهُ اِذَا غَبَتْ اَسْهُم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا وفي غيبه ان غاب صاب وعلتم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا. فمن أسباب ذلك الولاية التي تحدث في الأخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا إما من لؤم طبع وإما من ضيق صدر. وقد قيل: من تاه في ولايته ذل في عزله وقيل: ذل العزل يضحك من تيه الولاية. ومنها العزل فقد يسوء منه الخلق ويضيق به الصدر إما لشدة أسف أو لقلة صبر. حكى حميد الطويل: أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال: إني وجدت لها حلو الرضاع مرة الفطام. ومنها الغنى فقد تتغير

به أخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا . وقد قيل : من نال استطال
وأنشد الرياشي :

غضبان يعلم أن المال ساق له ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني فأكرم الناس من كانت له ورق
وقال بعض الشعراء

لئن تكن الدنيا أنالك ثروة فأصبحت ذايسر وقد كنت ذاعسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر . وكتب قتيبة بن
مسلم الى الجحاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع
عنهم الأرزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا : أفلنا فكتب
الى الجحاج فيهم فكتب اليه إن كنت آنت منهم رشدا فأجر عايم
ما كنت تجرى . واعلم أن الفقر جند الله الأكبر يذل به كل جبار عنيد
تتكبر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لولا أن الله
نعلى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشيء الفقر والمرض والموت»
ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا
على فائت الغنى . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «كاد الفقر أن
يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر» . وقال أبو تمام الطائي :

واعجب حالات ابن آدم خلقه يضل اذا فكرت في كنهه الفكر
فيفرح بالشيء القليل بقاؤه ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالأمانى وان قل صدقها فقد قيل : قلما
تصدق الأمانة ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء .
وقد قال أبو العتاهية :

حرك منك اذا اغتممت فانن مراوح

وقال آخر

إذا تمنيت بت الليل مغتبطا ان المنى رأس أموال المفاليس
ومنها المموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال
ولا تقوى على صبر . وقد قيل : اللهم كالسم . وقال بعض الأدباء : الحزن
كالداء المخزون فى فؤاد المخزون . وقال بعض الشعراء :

هبومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم
إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم
إذا كنت فى نعمة فارعها فان المعاصى تزيل النعم
وحام عليها بشكر الإله فان الإله سريع النعم
حلاوة دنيك مسمومة فما تأكل الشهد إلا بسم
فكم قدر دب فى مهلة فلم يعلم الناس حتى هم
ومنها الأمراض التى يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى
الأخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المنبى :

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فيأليت جودها كان بخلا
ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره فى الجسد كذلك يكون تأثيره
فى أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه
من أثقال فكذلك نعجز النفس عن أثقال ما كنت تصبر عليه من مخالفة
الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ماضاهاه . وقال منصور النيرى :

ما كنت أوفى شبابى كنه عزته حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم تشجى لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما أبقي حلاوة ذكراه التى تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت إلا لها نبوة عنه ومرتدع
فدكدت تقضى على فوت الشباب أسى . لولا يعزبك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما . وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذى تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبغض فيؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد (الفصل الثالث فى الحياء) اعلم أن الخير والشر معانٍ كامنة تعرف بهما دالة كما قالت العرب فى أمثالها : تخبر عن مجهوله مرآته وكما قال سلم بن عمرو الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه فى وجهه شاهد من الخير
فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا
أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا أن يكونا الى الشر
سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن أبى أمامة قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : «الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان
شعبتان من النفاق» ويشبه أن يكون العى فى معنى الصمت والبيان
فى معنى التشدد كما جاء فى الحديث الآخر « إن أبغضكم الى الثرثارون
المتفهمون المتشدقون » . وروى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «الحياء من الايمان والايمن
فى الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار» وقال بعض الحكماء : من كساه
الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء : حياة الوجه بحيائه كما أن
حياة الغرس بمائه . وقال بعض البلغاء العلماء : يا عجباً كيف لا تستحي من
كثرة ما لا تستحي وتنتق من طول ما لا تنتق . وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه اذا قل ماءه
حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه
وليس لمن سلب الحياء صاّد عن قبيح ولا زاجر عن محذور فهو
يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى وبذلك جاء الخبر . روى شعبة عن

منصور بن ربيع عن أبي منصور البدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى يا ابن آدم إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معانى الكلام ومواضع الخطاب. وفى مثل هذا الخبر قول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما آستجبا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء

وآختلف أهل العلم فى معنى هذا الخبر. فقال أبو بكر بن محمد الساسى فى أصول الفقه معنى هذا الحديث: أن من لم يستح دعاه ترك الحياء الى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحى المرء فان الحياء يردعه وسمعت من يحكى عن أنى بكر الرازى من أصحاب أبى حنيفة: أن المعنى فيه إذا عرضت عليك أفعالك التى هممت بفعلها فلم تستح منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منها بفعل الحياء حكما على أفعاله وكلا لقولين حسن والأول أشبه لأن الكلام خرج من النبى صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج الأمر. لكن قد جاء الحديث بما يضاهى القول الثانى وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحببت أن تسمعه أذنك فأته وما كرهت أن تسمعه أذنك فاجتنبه» ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الأول فى الحديث المتقدم أصح إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعانى بل اختلاف معانيها أدخل فى الحكمة وأبلغ فى الفصاحة إذا لم يضاد بعضها بعضا. وأعلم أن الحياء فى الانسان قد يكون من ثلاثة أوجه: أحدها حياة من الله تعالى والثانى حياة من الناس والثالث حياة من نفسه. فأما حياة من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره

والكف عن زواجه . وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقليل يارسول الله فكيف نستحي من الله عز وجل حق الحياء قال : من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء» وهذا الحديث من أبلغ الوصايا . وقال أبو الحسن الماوردي مصنف الكتاب : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة فقلت يارسول الله أوصني فقال : استحي من الله عز وجل حق الحياء ثم قال : تغير الناس قلت : وكيف ذلك يارسول الله قال : كنت أنظر الى الصبي فأرى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصوّرتها وأذهلني السرور عن حفظها ووددت لو أني حفظتها . فلم يبدأ بشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ماسلبه الصبي من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبي لأن ما يأتبه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع إنذارها وقطع أعارها وواصل نأديها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجه ونصيها من أوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى اسندامتها بالتوفيق . وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يارسول الله عطني : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «استحي من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك» وهذا الحياء يكون من قوّة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «قلة الحياء كفر» يعنى من الله لما فيه من مخالفة أوامره . وقال صلى الله عليه وسلم : «الحياء نظام الايمان فاذا آنحل نظام الشيء تبدّد ما فيه وتفرّق»

وأما حيائه من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من تقوى الله اتقاء الناس»

وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال: لا خير فيمن لا يستحي من الناس. وقال بشار بن برد: ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء حياءً وحباً في السواد أمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكراً في غد حديث الأعادي وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الشئ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له» يعني والله أعلم لقلة مروءته وظهور شهوته. وروى الحسن عن أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم «إن مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلقاه وجليسه». وقال بعض الشعراء:

ورب قبيحة ما حال باني وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلب في الأمور كما يشاء

وقال آخر

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالفاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع
وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات. وقال بعض الحكماء: ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك. وقال بعض الأدباء: من عمل في السرّ عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر. ودعا قوم رجلاً كان يألف عشرتهم فلم يحبهم وقال: إني دخلت البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني. وقال بعض الشعراء:

فسرّى كاعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلى مثل ضوء نهاري
وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريّة فتى كل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهوراً وبالجيل مذكوراً وقال بعض الشعراء:

وإني ليشين عن الجهل والحناء وعن شتم ذي القربى خلائق أربع

حياء وإسلام وتقوى وإبنى كريم ومثلى من يضر وينفع
وان أخل بأحد وجوه الحياء لحقه من التقص باخلاله بقدر ما كان
يأحقه من الفضل بكماله . وقد قال الرياشي : يقال إن أبا بكر الصديق
رضي الله عنه كان يمثل بهذا الشعر :

حاجة دون أخرى قد سنحت لها جعلتها للتي أخفيت عنوانا

وإبنى لأرى من لآحياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

(الفصل الرابع في الحلم والغضب) روى محمد بن حارث الهلالى
أن جبريل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إني أتيتك
بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض
عن الجاهلين . وروى سفيان بن عيينة أن النبي صلى الله عليه وسلم
حين نزلت هذه الآية قال : « يا جبريل ما هذا قال : لا أدري حتى أسأل
العالم ثم عاد جبريل وقال : يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك
وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » . وروى هشام عن الحسن
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضميم كان
إذا خرج من منزله قال : اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك » وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب الحليم الحلي
ويبغض الفاحش البذي » وقال عليه الصلاة والسلام : « من حلم ساد
ومن تفهم ازداد » . وقال بعض البلغاء : ما ذب عن الأعراض كالصنح
والإعراض وقال بعض الشعراء :

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا

وأصنح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا

ومن هاب الرجال تهيؤه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوى الأبواب لما فيه من

سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد. وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره . وحدّ الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب . وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة : أحدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة . وقد قيل في منشور الحكم : من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل اسمعه كلاما : يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصالح موضعا فانا لانكافي من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه . وشم رجل الشعبي فقال : إن كنت كما قلت فغفر الله لي وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك . واغتاطت عائشة رضي الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت : لله درّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء . وقسم معاوية رضي الله عنه قُطْنا فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فخلف أن يضرب بها رأس معاوية فأماه فأخبره فقال له معاوية : أوف بنذكرك وليرفق الشيخ بالشيخ . والثاني من أسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه » . وقال بعض الحكماء : ليس من الكرم عقوبة من لا يجد متناعا من السطوة . وقال بعض الباغاء : أحسن المكارم عفو المقتدر . وجود المفتقر . والثالث من أسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف لنفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء : شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم . وقد قيل : إن الله تعالى سمي يحيي عليه السلام سيدها لحلمه . وقد قال الشاعر :

لا يبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة لاصفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسئء وذلك عن ضرب من الكبر
والاعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولى العراق جلس
يوما لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى أين عمرو بن جرموز وهو الذى
قتل أباه الزبير فقيل له : أيها الأمير إنه قد تباعد فى الأرض فقال أو يظن
الجاهل أنى أقيده بأبى عبد الله فليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعّد
الناس ذلك من مستحسن الكبر. ومثل ذلك قول بعض الزعماء فى شعره :

أوكلما طُنَّ الذباب طردته ان الذباب إِذْنٌ عَلَى كريم
وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يحببه فقال : والله ما منعه
ن جوابى الا هوانى عليه وفى مثله يقول الشاعر :
نجا بك لؤمك منجى الذباب حتمه مقاذيره أن ينالا
وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه فقال له الرجل : إياك أغنى فقال
له : وعنك أعرض وفى مثله يقول الشاعر :
فاذهب فأنت طليق عِرْضِكَ إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن على

إذا نطق السفيفه فلا تجبه نخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيفه فظنّ أنى عييت عن الجواب وما عييت
والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من
صيانة النفس وكمال المروءة . وقد قال بعض الحكماء : احتال السفيفه خير
من التحلى بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكته . وقال بعض
الأدباء ما أخفش حلیم ولا أوحش كريم . وقال لقيط بن زرارۃ :
وقل لبني سعد فمالي ومالككم ترقون منى ما استطعت وأعتق
أغركموا أنى بأحسن شيمة بصير وانى بالفواحش أخرج
وإن تك قد سلبتني فقهرتنى هنيئا مريئا أنت بالفحش أحق
والسادس من أسبابه التفضل على السبب فهذا يكون من الكرم

وحب التألف كما قيل لاسكندر : إن فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتكما فقال : هما بعد العقوبة أعذر في تنقي وتلي فكان هذا تفضلا منه وتألفا . وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال : ما عاداني أحد قط إلا أخذت في امره باحدى ثلاث خصال : ان كان أعلى منى عرفت له قدره وان كان دونى رفعت قدرى عنه وان كان نظيرى تفضلت عليه فأخذ الخليل فنظمه شعرا فقال :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه إلى الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة : شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوق فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فأحلم دائما أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم
والسابع من أسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من
الحزم كما حكى أن رجلا قال لضرار بن القعقاع : والله لو قلت واحدة لسمعت
عشرا فقال له ضرار : والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكى أن على
ابن أبى طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى من أحق
الناس قال : من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فمن أعقل الناس
قال : من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال . وقال الشعبي : ما أدركت
أمرى فأبرها ولكن لا أسب أحدا فيسبها . وقال بعض الحكماء :
فى إعراضك صون إعراضك . وقال بعض الشعراء :

وفى الحلم ردع للفسيفى عن الأذى وفى الخرق إغراء فلانك أخرقا
فتندم اذا لا ينفعنك ندامة كما ندم المغبون لما تفرقا
وقال آخر

قل ما بدالك من زور ومن كذب حلمى اصم وأذنى غير صماء
والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون

من ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقتضاه الحزم . وقد قيل
في منشور الحكم : الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر :
أرفق اذا خفت من ذى هفوة خرقا ليس الحليم كمن في أمره خرق
والتاسع من أسبابه الرعاية ليد سائلة وحرمة لازمة وهذا يكون
من الوفاء وحسن العهد . وقد قيل في منشور الحكم : أكرم الشيم ارعاها
للذمم . وقال الشاعر :

إن الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذى الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفاً وترى اللئيم بجانب الإنصاف
والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء .
وقد قيل في منشور الحكم : من ظهر غضبه قل كيده . وقال بعض الأدباء :
غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله . وقال بعض الحكماء :
إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً . وقال
إياس بن قنادة :

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكراً اضّر له من شتمه حين يشتم
فهذه عشرة أسباب تدعو الى الحلم وبعض الأسباب أفضل من
بعض وليس اذا كان بعض أسبابه مفضولاً ما يقتضى أن تكون
نتيجته من الحلم مذمومة وإنما الأولى بالإنسان أن يدعو للحلم أفضل
أسبابه وإن كان الحلم كله فضلاً . وإن عرا عن أحد هذه الأسباب
كان ذلاً ولم يكن حلماً لأننا قد ذكرنا في حدّ الحلم أنه ضبط النفس
عند هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك
من ذل النفس وقلة الحمية . وقد قالت الحكماء : ثلاثة لا يعرفون

الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب . وقال الشاعر :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب
 وأنشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بواذر تحي صفوه أن يكدرا
 ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدر

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه . ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة حتى استوى حاله قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع ولا لوفور حلمه في القلوب موقع .

وقد قال المنصور : اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة . وقال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم . وقال عمرو ابن العاص : أكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار . وقال مصعب ابن الزبير : ما قل سفهاء قوم الا ذلوا . وقال أبو تمام الطائي :

والحرب تركب رأسها في مشهد عدل السفيف به بألف حليم

وايس هذا القول إغراء بتحكم الغضب والالتقياد اليه عند حدوث ما بغضب فيكسب بالالتقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه وأطفأ ثأثرته بحلمه وוכל من استحق المقابلة الى ولا غيره لعدم مسيء مكافئ كما ان لعدم محسن مجازيا تقول . والعرب :

دخل بيتا ما خرج منه أى ان خرج منه خير دخله خير وإن خرج منه شر دخله شر . وأنشد ابن دريد عن ابى حاتم :

إذا أمن الجهال جهلك مرة فعرضك للجهال غم من الغم
فعم عليه الحلم والجهل وألقه بمنزلة بين العداوة والسلم
إذا أنت جارت السفينة كما جرى فأنت سفينة مثله غير ذى حلم
ولا تعضبن عرض السفينة وداره بحلم فإن أعيأ عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من أحكم أبيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير إنما يستعمل فيما لا ييجد الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى أطراحه ومتاركته إما لخوف شره أو للزوم أمره فأما من أمكن أطراحه ولم يضرب إبعاده فالهوان به أولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصار الحلم مديرا للأمر المغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأي مغمور الروية مقطوع الحجمة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ما يناله من أثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه مما غضب له . وقد قال بعض الحكماء : من كثر شططه كثر غلطه . وروى أن سلمان قال لعلى رضى الله عنه : ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال : أن لا تغضب . وقال بعض السلف : أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب . وقال بعض البلغاء : من رد غضبه هد من أغضبه . وقال بعض الأدباء : ما هيج جاشك كغيظ أجاشك . وقال رجل لبعض الحكماء عظمى قال :

لا تغضب فينبغى لذى اللب السوى والحزم القوى أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل عوادى شرته بحزمه فيردها ليحظى بانجلاء الحيرة ويسعد بحميد العاقبة . وقال بعض الادباء : فى إغضائك راحة أعضائك . وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فبذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكهون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكونه ولذلك أفضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب

واعلم أن لتسكين الغضب اذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم . منها أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى أدبه ويأخذ بنديه فعند ذلك يزول الغضب . قال الله تعالى : « وأذكر ربك اذا نسيت » قال عكرمة : يعنى اذا غضبت . وقال الله تعالى : « وإما يترغبك من الشيطان نزع فاستعد بالله » ومعنى قوله يترغبك أى يغضببك فاستعد بالله إنه هو السميع العليم يعنى أنه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب . وذكر أن فى التوراة مكتوبا : يا بن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق . وحكى أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزيره وقال : اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب إنما أنت بشر ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . وقال بعض الحكماء : من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله . ونال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين أسألك بالذى أنت بين يديه أدل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على

عقابك منك على عقابي لما عفوت عني فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى . وروى أن رجلا شكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال : اطلع في القبور واعتبر بالنشور . وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : من أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير . ومنها أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب أو شتم وكانت الفرس تقول : اذا غضب القائم فيجلس واذا غضب الجالس فيلقم . ومنها أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الدم ومذمة الانتقام . وكتب أبويزال الى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وإن نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس في غضبك من قولك أن تخطئ ومن لوك أن يتغير ومن جسدك أن يحف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلمها . وقال بعض الحكماء : الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الأدباء : إياك وعزة الغضب فانها تفضي الى ذل العذر . وقال بعض الشعراء :

واذا ما آعترتك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : ينادى مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » . وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث : إن الله قد أعطاك ما تحب من الخافر فأعط الله ما يحب من العفو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخير ثلاث خصال فمن كثّر فيه فقد استكمل الإيمان من اذا رضى لم يدخله

رضاه في باطل واذا غضب لم يخرج غضبه من حق واذا قدر عفا .
 وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال : عمر أردت ان يستغفرني الشيطان
 لعزة السلطان فأنا لك اليوم ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله .
 ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى إضاعة
 ذلك بتغيير الناس عنه وبعدهم منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب
 في التألف وجميل الشاء . وروى ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ازداد أحد بغضوا الا عزوا فاعفوا
 يعزكم الله . وقال بعض البلغاء : ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام
 ولا من شروط الكرم إزالة النعم . وقال المأمون لابراهيم بن المهدي : إني
 شاورت في أمرك فأشاروا عليّ بقتلك الا أني وجدت قدرك فوق
 ذنبك فكرهت القتل للآزم حرمتك فقال : يا أمير المؤمنين إن المشير أشار
 بما جرت به العادة في السياسة الا أنك أبيت أن تطالب النصر الا من
 حيث ما عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك
 وأنشأ يقول :

البرّ بي منك وطأ العذر عندك لي فيما فعلت فلم تعدل ولم تلم
 وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
 إن جحدك معروفا مننت به إني لفي اللؤم أحطى منك بالكرم
 تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به فلا عدمتك من عاف ومنتقم

(الفصل الخامس في الصدق والكذب) قال الله تعالى وهو أصدق
 القائلين : « ثم نبتله فنجعل لعنة الله على الكاذبين » وقال تعالى : « إنما
 يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » . وروى عن النبي صلى
 الله عليه وسلم أنه قال للحسن بن عليّ رضي الله عنهما : « دع ما يريك الى
 ما لا يريك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة » . وروى عنه
 صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رجم الله أمراأ أصلح من لسانه وأقصر

من عنانه والزم طريق الحق مقوله ولم يعوّد الخطل مفصله . . وروى صفوان بن سليم قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل : أيكون بخيلا قال نعم قيل : أيكون كذابا قال لا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » أى لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى منشور الحكم : الكذاب لص لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء : الصادق مصون جليل والكاذب مهان ذليل . وقال بعض الأدباء : لا سيف كالحق ولا عون كالصدق . وقال بعض الشعراء :

وما شئ إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لاخير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبت نتائجه لأنه ينتج النيممة والنيممة تنتج البغضاء والبغضاء تؤل الى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل : من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلية فالصدق هو الإخبار عن الشئ على ما هو عليه والكذب هو الإخبار عن الشئ بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواعى فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لأن الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجوز أن تستفيض الأخبار الكاذبة لأن اتفاق الناس فى الصدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعى فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطاة وقع فى النفس صدقه لأن الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس فى الدواعى النافعة

ممكن ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذى لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لأن الدواعى اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس فى جارى العادة ان يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجوز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ماسنح به الخاطر من دواعيها

أما دواعى الصدق فمنها العقل لأنه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يحلب نفعا ولم يدفع ضررا ، والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من إتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسنا من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب فى العقل كالذى أنشدنيه الأزدي لبعض الشعراء :

توهمه فكرى فأصبح خذه وفيه مكان الوهم من فكرتى أثر
وصاحفه كفى فألم كفه فمن لمس كفى فى أنامله عقر
ومر بقلبي خاطرا بفرحته ولم أر شيئا قط يحرحه الفكر
وكقول العباس بن الأحنف وان كان بدون هذه المبالغة :

تقول وقد كتبت دقيق خطى اليها لم تجتبت الجليلا
فقلت لها أنحلت فصار خطى مساعدة لكتابه نحلا

لأنه نخرج مخرج المبالغة فى التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وإن شواهد الحال تخرجه عن تلبس الكذب فلذلك استحسنا فى الصنعة ولم يستقبح فى العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه . ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لأن الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظره العقل بل جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جرّ نفعا او دفع ضررا والعقل إنما حظر ما لا يحلب نفعا ولا يدفع ضررا . ومنها المروءة فانها

مانعة من الكذب باعثة على الصدق لأنها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فأولى من فعل ما كان مستقبعا . ومنها حب الاشتهار بالصدق حتى لا يردّ عليه قول ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء :
 لكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين
 والصدق أفضل قرين . وقال بعض الشعراء :

عود لسانك قول الصدق تحظ به إن اللسان لما عودت معتاد
 موكل بتقاضى ما سئنت له في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضرّ فيرى أن الكذب أسلم وأغنى فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا لاطمع وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل وأقرب لما يخاف لأن القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يحسن من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تحزوا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة وتجنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن يضعني الصدق وفلما يضع أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وفلما يفعل . وقال بعض الحكماء : الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمتته . وقال الجاحظ : الصدق والوفاء توءمان والصبر والحلم توءمان فهنّ تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد . ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة . وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة . وقد قال الجاحظ :
 لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع لاتهماون :
 بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى إبطال الحق . ومنها أن يقصد

بالكذب التشفى من عدوه فيسمه بقبايح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى أن معزة الكذب غنم وأن إرسالها في العدو سهم وسم وهذا أسوأ حالا من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين الكذب المعز والشر المضّر ولذلك ورد الشرع برّد شهادة العدو على عدوه . ومنها أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى ألغى فصار الكذب له عادة ونفسه اليه متقادة حتى لو رام مجانبه الكذب عسر عليه لأن العادة طبع ثان . وقد قالت الحكماء : من استحل رضاع الكذب عسر فطامه . وقيل في منشور الحكم : لا يلزم الكذاب شيء الاغلب عليه

واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده . ومنها أنك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ماتخاذه الشك فيه . ومنها أنك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصره المحتجين ولا برهان الصادقين . ولذلك قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الكذاب كالسراب . ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لأن هذه أمور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من إثارتها . ولذلك قالت الحكماء : العيان أنم من اللسان . وقال بعض البلغاء : الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا . وقال بعض الشعراء :

تريك أعينهم ما في صدورهم إن العيون يؤدى سرها النظر
واذا تسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت
الى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع
بين معزة الكذب منه ومضرة الكذب عليه . وقد قال الشاعر :

حسب الكذوب من البلية* بعض ما يحكى عليه
فاذا سمعت بكذبة من غيره نسبت اليه

ثم إنه إن تحزى الصدق اتهم وإن جانب الكذب كذب حتى لا يعتد له حديث مصدق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر :

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكذب يصدق في شيء وإن كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان حاذقا

وقد وردت السنة بأشخاص الكذب في الحرب وإصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فإن السنة لا ترد بأباحة الكذب لما فيه من التنفير وإتمام ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال : من ماء فوزى عن الاخبار بنسبه بأمر محتمل فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذى يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه وصدق في خبره . وكالذى حكى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فلتقاء العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا بكر من هذا فقال : هاد يهدينى السبيل فظنوا انه يعنى هداية الطريق وهو إنما يريد هداية سبيل الخير فصديق في قوله وورى عن مراده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فى المعاريض لمدوحة عن الكذب » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن فى المعاريض ما يكفى أن يعف الرجل عن الكذب . وقال بعض أهل التأويل فى قوله تعالى : « لا تؤاخذنى بما نسيت » أنه لم ينس ولكنه معارض الكلام . وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يصرح فيه بالكذب وأعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرة ويزيد عليه فى الأذى والمضرة وهى الغيبة والنميمة والسعاية . فأما الغيبة فإنها خيانة وهتك ستر يحدثنان عن حسد وغدر . قال الله تعالى : « ولا يغتب

بعضكم بعضا يحب أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتا» يعنى أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا . وروى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما . وروت أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل أن يحترم لحمه على النار» . وقال عدى بن حاتم الغيبة رعى اللثام . وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فأكهة النساء . وقال رجل لابن سيرين رحمه الله انى اغتبتك فاجعلنى فى حل فقال : ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك . وقال ابن السماك : لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك . وقال الشاعر :

لا تلتمس من مساوى الناس ما استروا فيهلك الله سترا عن مساويكما
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكما
وربما عذر المغتاب نفسه بأنه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد
بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ثلاثة ليست غيبتهم
بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه» فيبعد من الصواب
ويحانب الأدب لأنه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك ستره كان بصونه
أولى وجاهر من أسروأخفى وربما دعا المغتاب ذلك الى إظهار ما كان
يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفده ذلك إلا فساد أخلاقه من غير
أن يكون فيه صلاح لغيره . وقد قيل لأنوشروان : ما الذى لا خير فيه
قال : ما ضرني ولم ينفع غيرى أو ضر غيرى ولم ينفعنى فلا أعلم فيه خيرا .
وقيل فى منشور الحكم : لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب . وقد روى
العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : «هى أن تقول لأخيك ما فيه فان كنت

صادقا فقد اغتبهته وإن كنت كاذبا فقد بهته». وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم» إنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه. ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله: ما أقصرها فقال: مهلا إياك والغيبة فقالت يارسول الله: إنما قلت ما فيها قال: أجل ولولا ذلك لكان بهتاننا. وسئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم فقال: اللئيم إذا غاب عاب وإذا حضر اغتاب. فأما الخبر فمحمول على الإنكار لأفعال هؤلاء ولا يكون الإنكار غيبة لأنه نهى عن منكر وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر. وأما النيمة فهي أن تجمع إلى مذمة الغيبة رداة وشرا وتضم إلى أوامرها دناءة وغدرا ثم تؤول إلى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين. وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال: من شراركم المشاءون بالنيمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب». وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان» الشغار المحترش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات التمام. وقيل: التمام الذى يكون مع القوم يتحدثون فيهم حديثهم والقتات هو الذى يستمع عليهم وهم لا يعلمون فيهم حديثهم. والمنان هو الذى يصنع الخير ويمتنع به. وقيل فى منشور الحكم: النيمة سيف قاتل. وقال بعض الأدباء: لم يمش ماش شر من واش. فأما السعاية فهي شر الثلاثة لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة ولؤم النيمة التغرير بالنفوس والأموال والقدح فى المنازل والأحوال. وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع» الديوث هو الذى يجمع

بين الرجال والنساء سمي بذلك لأنه يديث بينهم . والقلاع هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء سمي بذلك لأنه يأتي الرجل المتمكن عند الأمير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه . وقال بعض الحكماء : الساعي بين منزلتين قبيحتين إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون قد كذب يخالف المروءة . وقال بعض الحكماء : الصدق يزين كل أحد إلا السعاة فإن الساعي أذم وأثم ما يكون إذا صدق . وقال بعض البلغاء : النيمة دناة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب أهلهما . ووقع الفصل بن سهل على قصة ساع سعى إليه : نحن نرى قبول السعاية شرا منها لأن السعاية دلالة والقبول إجازة فاتقوا الساعي فإنه إن كان في سعائته صادقا كان في صدقه آثما إذ لم يحفظ الحرمه ويستر العورة . وقال الاسكندر لرجل سعى إليه برجل : أنحب أن قبل منك ماتقول فيه على أن تقبل منه ما يقول فيك قال لا قال : فكف عن الشر يكف عنك الشر . وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان في بلدك ساعيا ولست أخبرك وهو في أرضك فقال : يارب دلني عليه حتى أخرجه فقال : يا موسى أكره النيمة وأثم (الفصل السادس في الحسد والمنافسة) اعلم أن الحسد خلق ذميم مع إضراره بالبدن وإفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد » وناهيك بحال ذلك شرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دب إليكم داء الأثم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وإن التحابب ينفيه وأن السلام يبعث على التحابب فصار السلام إذن نافيا للحسد . وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله

تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم » قال مجاهد : معناه ادفع بالسلام إساءة المسيء . وقال الشاعر :
 قد يلبث الناس حيناً ليس بينهم ودد فيزرعه التسليم واللفظ
 وقال بعض السلف : الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء يعنى
 حسد إبليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به في الأرض يعنى
 حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء : من رضى بقضاء
 الله تعالى لم يستخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض
 البلغاء : الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الأدباء :
 ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقاب
 هائم . فأخذه بعض الشعراء فقال :

إن الحسود الظلوم في كرب يخاله من يراه مظلوما

ذا نفس دائم على نفس يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا أنه خلق دنى يتوجه نحو الأكفاء
 والأقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرماً
 والسلامة منه مغنماً فكيف وهو بالنفس مضراً وعلى الهم مضراً حتى ربما
 أفضى بصاحبه الى التلف من غير نكايه في عدو ولا إضرار بحسود .
 وقد قال معاوية رضى الله عنه : ليس في خصال الشر أعدل من الحسد
 يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود . وقال بعض الحكماء : يكفيك
 من الحاسد أنه يغتم في وقت سرورك . وقيل في منشور الحكم : عقوبة
 الحاسد من نفسه . وقال الأصمعي : قلت لأعرابي ما أطول عمرك قال :
 تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشيخ القاضي : إني لأحسدك على
 ما أرى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال : ما نفعك
 الله بذلك ولا ضرني . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى :

اصبر على كيد الحسو د فان صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس الأمر على ما ظنوا لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير إدخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لأن غايته أن يعدم الأفاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد بالمنافسة إذن فضيلة لأنها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء فأخيار الأفاضل وقدروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر :

نافس على الخيرات أهل العلا فانما الدنيا أحاديث

كل أمرئ في شأنه كادح فوارث منهم وموروث

وَأَعْلَمُ أَنَّ دَوَاعِيَ الْحَسَدِ ثَلَاثَةٌ : أَحَدُهَا بَغْضُ الْمَحْسُودِ فَيَأْسَى عَلَيْهِ بِفَضِيلَةٍ تَظْهَرُ أَوْ مَنَقِبَةٍ تُسَكَّرُ فِيْهِ حَسَدًا قَدْ خَامَرَ بَغْضًا وَهَذَا النَّوعُ لَا يَكُونُ عَامًّا وَإِنْ كَانَ أَضَرُّهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ يَبْغِضُ كُلَّ النَّاسِ . وَالثَّانِي أَنَّ يَظْهَرُ مِنَ الْمَحْسُودِ فَضْلٌ يَعْجِزُ عَنْهُ فَيَكْرَهُ تَقَدُّمَهُ فِيهِ وَاسْتِخْصَاصَهُ بِهِ فَيُحْسَدُ ذَلِكَ حَسَدًا لَوْلَاهُ لَكُفٌّ عَنْهُ وَهَذَا أَوْسَطُهَا لِأَنَّهُ لَا يَحْسَدُ إِلَّا كُفَاءً مِنْ دُنَا وَانَّمَا يَخْتَصُّ بِحَسَدٍ مِنْ عِلَالٍ وَقَدْ يَمْتَرِجُ بِهِذَا النَّوعُ ضَرْبٌ مِنَ الْمُنَافَسَةِ وَلَكِنَّهَا مَعَ عَجْزٍ فَلِذَلِكَ صَارَتْ حَسَدًا . وَالثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَاسِدِ شَحٌّ بِالْفَضَائِلِ وَبُخْلٌ بِالنَّعَمِ وَلَيْسَتْ إِلَيْهِ فَيَمْنَعُ مِنْهَا وَلَا بِيَدِهِ فَيَدْفَعُ عَنْهَا لِأَنَّهَا مَوَاهِبٌ قَدْ مَنَحَهَا اللَّهُ مِنْ شَاءٍ فَيَسْخَطُ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فِي قَضَائِهِ وَيَحْسَدُ عَلَى مَا مَنَحَ مِنْ عَطَائِهِ وَإِنْ كَانَتْ نَعَمُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ أَكْثَرَ وَمَنَحَهُ عَلَيْهِ أَظْهَرَ وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْحَسَدِ أَعْمَهُ وَأَخْبَثُهُ إِذْ لَيْسَ لِمُصَاحِبِهِ رَاحَةٌ وَلَا لِرِضَاهُ غَايَةٌ فَإِنْ اقْتَرَنَ بِشَرٍّ وَقَدَرَةُ كَانَ بُورًا وَانْتِقَامًا وَإِنْ صَادَفَ عَجْزًا وَمَهَانَةً كَانَ جَهْدًا وَسَقَامًا . وَقَدْ قَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ

الحسود من الهم كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه . واعلم أنه بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لأن ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذى نعمة محسود» وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : ما كانت نعمة الله على أحد الا وجه لها حاسدا فلو كان الرجل أقوم من القدح لما عدم غامزا . وقد قال الشاعر :

إن يحسدونى فانى غير لائهم قبل من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم ومات أكثرنا غيظا بما يحسد

وربما كان الحسد منها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال أبو تمام الطائي :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود

فأما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فأمر هو له حسم إن صادفها عزم . فمنها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل في آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وإن كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف ينحلي خلقه غير أنه إذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق . قال أبو تمام الطائي :

فلم أجد الأخلاق الاتخلقا ولم أجد الإفضال الاتفضالا
ومنها العقل الذى يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه

ويستنكف من هجنة مساويه فيذل نفسه أنفة ويطهرها حمية فتدعن
لرشدتها وتجيئ الى صلاحها . وهذا انما يصح لذى النفس الأبية والهمة
العالية وان كان ذو الهمة يجل عن ذناة الحسد . وقد قال الشاعر :

أبى له نفسان : نفس زكية ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس
ومنها أن يستدفع ضرره ويتوق أثره ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ
ومن الحسد أبعد فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكده ليكون أطيب
نفسا وأهنأ عيشا . وقد قيل : العجب لغفلة الحساد عن سلامة
الأجساد . وقد قال الشاعر :

بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقع
ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم إما على
نفسه من عداوة او على عرضة من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويأمرهم
إن صلحوا اجدى نفعا وأخلص ودا . وقال ابن العميد رحمه الله تعالى :
داوى جوى يجوى وليس بحازم من يستكف النار بالحلفاء
وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم إني اليكم وإن أيسرت مفتقر
ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للقدور ولا يرى أن يغالب قضاء الله
فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه في أمره فيرد محروما مسلوبا . وقد قال
أردشير بن بابك : اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه . وقال محمود الوراق :

قدر الله كائن حين يقضى وروده
قد مضى فيك علمه وانتهى ما يريده
وأخو الحزم حزمه ليس مما يزيده
فأرد ما يكون إن لم يكن ما تريده

فان أظفرتة السعادة بأحد هذه الأسباب وهدته المرشد الى استعمال
الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا

واعتاض من الذم حمدا فان من استنزل نفسه عن مذمة وصرفها عن لائمة فهو أظهر حزما وأقوى عزما ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خياركم كل مُقَتِّنِ تَوَّابٍ . وإن صدته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كرده فقد باء بأربع مدام : إحداهن حسرات الحسد وسقام الحسد ثم لا يجد لحسرتة انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء . وقال ابن المعتز : الحسد داء الحسد . والثانية انخفاض المنزل وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه . وقد قيل في منشور الحكم : الحسود لا يسود . والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة ماثورا وبال مقت مزجورا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه » . والرابعة إسقاط الله تعالى في معارضته واجتباء الأوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا انعمه من الناس أهلا . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقال عبدالله ابن المعتز : الحاسد مغتاذ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده . واذا بلى الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وابتعد عن ملاسته وإدانائه لعضل دائه وإعواز دوائه فقد قيل : حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض الحكماء : من ضرّ بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الأعيان صعب المرام . وقال عبد الحميد : أسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الوراق :

أعطيت كل الناس من نفسى الرضا الا الحسود فانه أعيان
ما إن لى ذنبا اليه علمته الا تظاهى نعمة الرحمن

وأبي فما يرضيه الا ذلتي وذهاب أموالى وقطع لسانى
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ثلاثة لا يسلم أحد
منهن : الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت
فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ»

(فصل) وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان : أحدهما
ما تكون المواضعة فى فروعه والعقل موجب لأصوله . والثانى ما تكون
المواضعة فى فروعه وأصوله وذلك متضح فى الفصول التى نذكرها اذا
سبرت وهى ثمانية :

(النصل الأول فى الكلام والصمت) اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن
مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بوارده
ولا يقدر على ردّ شوارده فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالامساك
عنه أو بالاقلال منه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «رحم
الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم» . وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ :
يا معاذ أنت سالم ماسكت فاذا تكلمت فعليك أولك . وقال على بن أبى
طالب كرم الله وجهه : اللسان معيار أطاشه الجهل وأرحمه العقل . وقال
بعض الحكماء : الزم الصمت تعدّ حكما جاهلا كنت أو عالما . وقال
بعض الأدباء : سعد من لسانه صموت وكلامه قوت . وقال بعض العلماء :
من أعوز ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته أو لمجته ولا يفكر الا
فى عاقبته أو فى آخرته . وقال بعض البلغاء : الزم الصمت فانه يكسبك
صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة
الاعتذار . وقال بعض الفصحاء : اعقل لسانك الا عن حق توضحه أو
باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها . وقال الشاعر :

رأيت العز فى أدب وعقل وفى الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن اذا لم يسعد الحسن البيان

كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان
واعلم أن للكلام شروطاً لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بها ولا يعزى
من النقص إلا بعد أن يستوفىها وهي أربعة : فالشرط الأول أن يكون
الكلام لداع يدعو إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر . والشرط
الثاني أن يأتي به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته . والشرط
الثالث أن يقتصر منه على قدر حاجته . والشرط الرابع أن يتخير اللفظ
الذي يتكلم به . فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد
أوهن فضيلة باقيها وسند كرتليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه .
فأما الشرط الأول وهو الداعي الى الكلام فلأن ما لا داعي له هذيان
وما لا سبب له هجر ومن سآخ نفسه في الكلام اذا عتّ ولم يراع صحة
دواعيه وإصابة معانيه كان قوله مرذولاً ورأيه معلولاً كالذى حكى
ابن عائشة : أن شاباً كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت فأعجب
ذلك الأحنف فخلت الحلقة يوماً فقال له الأحنف : تكلم يا بن أخي
فقال : يا عم أرايت لو أن رجلاً سقط من شرف هذا المسجد هل كان
يضره شيء فقال : يا بن أخي ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الأحنف بقول
الأعور الشبي :

وكأن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكالذى حكى عن أبي يوسف الفقيه أن رجلاً كان يجلس إليه
فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف : ألا تسأل قال : بلى متى يفطر الصائم
قال : اذا غربت الشمس قال : فان لم تغرب الى نصف الليل قال : فتبسم
أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتى الخطنى جد جرير :

عجبت لازراء العي بنفسه وصمت الذى قد كان بالقول أعلمها
وفى الصمت ستر للعي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلمها

ومما أطرفك به عنى أنى كنت يوما فى مجلسى بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابى إذ دخل على رجل مسنّ قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال لى : قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت : أسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال : أخبرنى عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقع مع ماظهر من حاله الا بجواب مثله فأقبلت عليه وقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظمّرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ أقبل على وقال : جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد أيام عاد وقال : ما وجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هذين . فانظر الى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم وأعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع اساموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لسان العاقل من وراء قلبه فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له » وقال عمر بن عبدالعزيز : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطايا . وقال بعض الحكماء : عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا شئ أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب . وقال أبو تمام الطائى :
ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول : اذا جالست الجاهل فأنصت لهم واذا جالست العلماء فأنصت لهم فان فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم . وأما الشرط

الثانى فهو أن يأتى بالكلام فى موضعه لأن الكلام فى غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بأنه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضى التأخير كان عجلة وخرقا وان أخر ما يقتضى التقديم كان توانيا وعجزا لأن لكل مقام قولا وفى كل زمان عملا . وقد قال الشاعر :

تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعدها نزر

وأما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية ومالم يكن من الكلام محصورا كان إما حصرا ان قصر أو هذرا ان كثر . وروى أن أعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كم دون لسانك من حجاب قال : شفتاى وأسنانى قال : فان الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام فنضر الله وجه امرئ أوجز فى كلامه فاقصر على حاجته . وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال : إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما نتكلم به . وقال بعض الحكماء : من كثر كلامه كثر آثامه . وقال ابن مسعود : أنذركم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء : كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل وإياك وما يسخط سلطانك ويوحش إخوانك فمن أسخط سلطانه تعرض للنيه ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحزبه . وقال بعض الشعراء :

وزن الكلام اذا نطقت فانما يبدى عيوب ذوى العيوب المنطق
ولخالفه قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير
يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر أشنع وربما كان فى الغالب أخوف
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار

جهنم الا حصائد ألسنتهم» . وقال بعض الحكماء : مقتل الرجل بين فكيه .
وقال بعض البلغاء : الحصر خير من الهذر لأن الحصر يضعف الحجّة
والهذر ي تلف المهجّة . وقد قال الشاعر :

رأيت اللسان على أهله اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال بعض الأدباء : يارب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها
وما ينقص من هيئات الرجال يزيد في بهائها وألبائها . وقد ذهب بعضهم
الى أن الكلام اذا كثّر عن قدر الحاجة وزاد على حدّ الكفاية وكان
صوابا لا يشوبه خطأ وسليما لا يتعوّده زلل فهو البيان والسحر الحلال .
وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه : كلا إن من تكلم
فأحسن قدر على أن يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر
على أن يتكلم فيحسن . ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب : من اذا
أخذ شبرا كناه واذا وجد طومارا أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد :
يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بني اذا أقللت من الكلام أكثرت من
الصواب فقال : يا أبت فان أنا أكثرت وأكثرت يعنى كلاما وصوابا
فقال : يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك . وأنشدت
لابي الفتح البستي :

تكلم وستد ما استطعت فانما كلامك حى والسكوت جحاد
فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لياس بن معاوية : ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال : أفتسمعون
صوابا أو خطأ قالوا : لا بل صوابا قال : فالزيادة من الخير خير . وقال
أبو عثمان الجاحظ : للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن
الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق
أبو عثمان لأن الاكثار منه وإن كان صوابا يملّ السامع ويكل الخاطر

وهو صادر عن إعجاب به لولاه لأقصر عنه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء : من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة المذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه السامة والملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبغضكم الى المتفهيق المكثار والملح المهذار » . وسأل رجل حكيمًا فقال متى أتكلم قال : اذا اشتيت الصمت فقال متى أصمت قال : اذا اشتيت الكلام . وقال جعفر بن يحيى : اذا كان الايجاز كافيًا كان الاكثار عيا وإن كان الاكثار واجبًا كان التقصير عجزا . وقيل في منشور الحكم : اذا تم العقل نقص الكلام . وقال بعض الأدباء : من أطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره . وقال بعض البلغاء : عى تسلم منه خير من منطلق تندم عليه فاقصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم . وقال بعض الفصحاء : فم العاقل ما جم اذا دم بالكلام أحجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق . وقال بعض الشعراء :

إن الكلام يغفر القوم جالوته حتى يلبج به عى وإكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذى يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بتهديب ألفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعنه العباس : يعجبني جمالك قال : وما جمال الرجل يارسول الله قال : لسانه . وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل كان الا بهيمة مهملة أو صورة مثلة . وقال بعض الحكماء : اللسان وزير الانسان . وقال بعض البلغاء : يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وقال بعض الشعراء :

وإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام إلا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم
الفصاحة حتى يصير متدرباً بها معتاداً لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ
ولا مختل المعنى لأن البلاغة ليست على معان مفردة ولا لألفاظها غاية
وإنما البلاغة أن تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصيحة
فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة . وقد قيل لليوناني
ما البلاغة قال : اختيار الكلام وتصحيح الأقسام وقيل ذلك للرومي فقال :
حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندي فقال :
معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربي فقال : ما حسن إيجازه وقل مجازه
وقيل للبدوي فقال : ما دون السحر وفوق الشعر نفت الحردل ويحط
بجندل وقيل للحضري فقال : ما كثر إيجازه وتناسبت صدوره وأعجازه .
وقال ابن المنفع : البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر . وسأل الحجاج ابن
القنبرية عن الإيجاز قال : أن تقول فلا تبطئ وأن نصيب فلا تخطئ .
وقال الشاعر :

خير الكلام فليل على كثير دليل

والعنى معنى قصير يحويه لفظ طويل

وفي الكلام فضول وفيه قال وقيل

وأما صحة المعاني فتكون من ثلاثة أوجه : أحدها إيضاح تفسيرها
حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة . والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل
فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو فيها . والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة
تكون من وجهين : أحدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه
المقابلة لأن المعاني تصير متشاكلة . والثاني مقابلته بما يضاده وهو
حقيقة المقابلة وليس للمقابلة إلا أحد هذين الوجهين . الموافقة في
الاختلاف والمضادة مع الاختلاف . فأما فصاحة الألفاظ فتكون

بثلاثة أوجه : أحدها بجانب الغريب الوحشي حتى لا ينجح سمع ولا ينفر منه طبع . والثاني تنكب اللفظ المستبدل والعدول عن الكلام المستزدل حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبوعن فهمه عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان أما أنا فلم أر قوما أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاما . والثالث أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة . أما المطابقة فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مسنترتها ولا حالة في مركزها بل وجدتها قلقت في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على التردد في غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكاف اختيار الكلام المشور لم يعبك يترك ذلك أحد وإذا أنت نكلفتها ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت أقل عيبا منه وأزرى عليك من أنت فوقه . وأما المناسبة فهي أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ إما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك الألفاظ كانت نافرة عنها وان كانت أفصح وأوضح لاعتياد ما سواها .

وقال بعض البلغاء : لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك . وأما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة واشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الأدباء فضلا عن أن يكون في عداد البلغاء

واعلم أن للكلام آدابا إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولما الناس عن محاسن فضله بمساوى أدبه فعدلوا عن مناقبه

ذكر مثالبه . فمن آدابه أن لا يتجاوز في مدح ولا يسرف في ذم وإن كانت
النزاهة عن الذم كرهاً والتجاوز في المدح ملقاً يصدر عن مهانة والسرف
في الذم انتقام يصدر عن شرٍّ وكلاهما شين وإن سلم من الكذب .
يروى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل
رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأختم عن قيس بن عاصم فمدحه
فقال قيس : والله يا رسول الله لقد علم أني خير مما وصف ولكن حسدني
فدمه عمرو وقال : والله يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت
في الأخرى لأني رصيت في الأولى قتلت أحسن ما علمت وسخطت
في الأخرى قتلت أقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«إن من البيان لسحراً» على أن السلامة من الكذب في المدح والذم منعذرة
لا سيما إذا مدح نقرّاً وذم تحقفاً . وحكى عن الأحنف بن قيس أنه قال :
سهرت ليماتي أفكر في كلمة أرضى بها سلطاناً ولا أسخط بها رباً فمأجدها .
وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه
فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال : يرضيه بما يسخط الله عز
وجل . وسمع ابن الرومي رجلاً يصنف رجلاً ويخالج في مدحه فأنشأ يقول :

إذا ما وصفت امرأ لا مريء فلا تغل في وصفه واقصد

فأنك إن تغل تغل الظنن ن فيه إلى الأمد الأبعد

فيضؤل من حيث عظمتة انمضل المغيب على المشهد

ومن آدابه أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد
أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فإن من أطلق بهما لسانه
وأرسل فيهما عمانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار
وعده نكثاً ووعيده عجزاً . وحكى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر
بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : هل تدرون ما يقول لما قالوا
لا يانبي الله قال : إنه يخطبها لنفسه ويقول لها زوجيني نفسك أسكنك

أى تغرف دمشق شئت قال سليمان : كذب العصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب . ومن آدابه أنه ان قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان إرسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولأن يفعل ما لم يقل أجل من أن يقول ما لم يفعل . وقال بعض الحكماء : أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام أى يكتفى بالفعل من القول . وقال محمود الوراق :

القول ما صدقه الفعل والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول اذا لم يكن يقله من تحته الأصل

ومن آدابه أن يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين والالطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان اين اللفظ فى الترهيب وخشونته فى الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا . وقد قال أبو الأسود الدؤلى لابنه : يا بنى ان كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك . ومن آدابه أن لا يرفع كلامه صوتا مستكرها ولا يترجج له انزعاجا مستهجننا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد حكى أن الحجاج قال لأعرابي : أخطيب أنا قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد . ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه وبستهجن فصيح له ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون . وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى : «واذا مروا باللغو مروا كراما» قال : كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغى الى فحش فان سماع الفحش داع الى إظهاره وذريعة الى إنكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان إعراضه أحد النكيرين

كما أن سماعه أحد الباعثين وأنشدني أبو الحسن بن الحارث الهاشمي
تحرّ من الطرق أو ساطها وعد عن الموضع المشتبه
وسمعت من عن قبيح الكلام كصون اللسان عن النطق به
فأنك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ومما يجري مجرى خش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم
تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وإن كان عقب التأمل سليما
وبعد الكشف والروية مستقيما كالذي رواه الأزدي عن الصولي
لبعض المتكلمين من الشعراء :

إنني شيخ كبير كافر بالله سيرى
أنت ربّي وإلهي رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أي لا بس لأن الكفر النغطية ولذلك سمي الكافر
بالله كافرا لأنه قد غطي نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم
عليها أن تسير وقوله أنت ربّي يعني ربّي ولدك من التربية وإلهي رازق
الطفل الصغير كما أنه رازق الولد الكبير. فانظر الى هذا التكلف الشنيع
والتعمق البشيع ما اعراض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية
الالؤما ان حسن فيه الظن أو ذما ان قوى فيه الارتباب وقبلما يكون
ذلك الا من خلع بطر ومرتاب اشر . فأما الحديث المروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تصلوا على النبي فخارج من هذا النوع
من التلبيس وفي تأويله وجهان : أحدهما أنه أراد النهي عن الصلاة
في المكان المرتفع المحدود مأخوذ من النبوة . والثاني أنه أراد الطريق
ومنه سمي رسل الله انبياء لأنهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبيس
إذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان من قول غيره تلبيسا
شنيعا لأن موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه عن التجوز
والاسيرسال في أمر أو نهى الى ما لا يجوز أن يرد به شرع وينهى عنه

نبي وليس يتمتع ذلك في غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره .
ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء
الأدباء فإن لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم . فلا تجد لساقط
الأمثالا ساقطا وتسبها مستقبها وللسقاط أمثالا تمثلهم للشيء
المريب كما قال الصنوبري :

إذا ما كنت ذابول صحيح الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علمنا : إحداهما أن الأمثال من هواجس الهمم وخطرات
النفوس ولم يكن لدى المهمة السافطة الامثل مرئول وتنبيه معلول .
والثانية أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه
تكون أمثالهم فلها تين العالين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة .
وربما ألف المتخصص مثالا عاميا او تسبها ركيكا اكثره ما بطرق سمعه من
مخالطة الأراذل فيسترسل في ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذي حكى
عن الأصمعي أن الرشيد سأله يوما عن أنساب بعض العرب فقال على
الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع : أسقط الله جنبيك
أتخطب أمير المؤمنين بثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة
علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاوره الخلداء من الأصمعي الذي
هو واحد عصره وقريع دهره . وللا أمثال من الكلام موقع في الأسماع
وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لأن
المعاني بها لأتحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها
واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز
وجعلها من دلائل رساله وأوضح بها الحجة على خلفه لأنها في العقول
معقولة وفي القلوب مقبولة ولها أربعة شروط : أحدها صحة التشبيه .
والثاني أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا . والثالث أن يسرع
وصولها لفهمه ويعجل تصورها في الوهم من غير ارتياء في استخراجها

ولا كد في استنباطها . والرابع أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرا واحسن موقعا . فاذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة كانت زينة للكلام وجلاء للعاني وتدبرا للأفهام

(الفصل الثاني في الصبر والجزع) اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى : «يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» يعنى اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم . ورابطوا فيه تأويلان : أحدهما على الجهاد . والثاني على انتظار الصلوات . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا أدلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الصبر ستر من الكرب وعون على الخطوب» وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا يذبو . وقال عبد الحميد : لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أفضل العدة الصبر على الشدة . وقال بعض البلغاء : من خير خلا لك الصبر على اختلالك . وقيل فى منشور الحكم : من أحب البقاء فليعد للصائب قلبا صبوراً . وقال بعض الحكماء : بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ . وقال عبيد بن الأبرص :

صبر النفس عند كل ملم إن فى الصبر حيلة المحتال
لانضيقتن فى الأمور فقد تكشفت غماؤها بغير احتيال

رب ما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة: الصبر صبران فاللثام أصبر أجساما والكرام أصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوى الجسد على الكد والعمل لأن هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غلوبا وللاُمور متحملا ولحاشه عند الحفاظ مرتبطا

واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو في كل قسم منها محمود: فأول أقسامه وأولاهها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والالتقاء عما نهى الله عنه لأنه به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين وتؤدي الفروض ويستحق الثواب كما قال في محكم الكتاب: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال. وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه. وقال أبو العاتية رحمه الله تعالى:

أراك أمرأ ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يحب مقيم

تدل على التقوى وأنت مقصر فيما من يداوى الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فإن من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره. والقسم الثاني الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد كده الهم بها فإن الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فإن صبر طائعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليختر ربا سواي» وقال علي بن أبي

طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس : إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور . وقد ذكر ذلك أبو تمام في شعره فقال :

وقال عليّ في التعازي لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وخشية فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
وقال شبيب بن شيبه للمهدي : إن أحق ما تصبر عليه ما لم تجد إلى دفعه سبيلا وأنشد :

ولئن تصبكت مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر
وقال آخر

تصبرت مغلوبا وإني لموجع كما صبر الظمآن في البلد القفر
وليس اضطباري عنك صبرا استطاعة ولكنه صبر أمرّ من الصبر
والقسم الثالث الصبر على مافات إدراكه من إرادة مرجوة وأعوز نيله من مسرة مأمولة فإن الصبر عنها يعقب السلو منها والأسف بعد اليأس خرق . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . وقال بعض الحكماء : اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم نقله . وقال بعض الشعراء :

إذا ملك القضاء عليك أمرا فليس يحاله غير القضاء
فإنك والمقام بدار ذل ودار العز واسعة القضاء
وقال بعض الحكماء : إن كنت تجزع على مافات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فأخذه بعض الشعراء فقال :

لا تطل الحزن على فائت فقلما يجدى عليك الحزن
سيان محزون على فائت ومضمر حزنا لما لم يكن
والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر

حلولة من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وإن الأغلب من الخوف مدفوع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج » . وقال الحسن البصري رحمه الله : لا تتحمل على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه . وأنشد الجاحظ لحارثة بن زيد :

إذا الهم أمسى وهو داء فأمضه ولست بممضيه وأنت تعادله
ولا يُنزِلُ أمر الشديدة بامرئ إذا هم أمرا عوقته عواذله
وقل للنفوذ ان تجذبك ثورة من الروع فافرخ أكثر الهمم باطله
والقسم الخامس الصبر فيما يتوفعه من رغبة يرجوها وينتظر من
نعمة يأملها فانه إن أدهشه التوقع لما وأذهله التطوع اليها انسدت عليه
سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه وأعظم
لبلائه وإذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية
الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف قصده . وقد
روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصبر ضياء » يعنى والله أعلم
أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الأمور . وقال أكرم بن صيفى :
من صبر ظفر . وقال ابن المقفع : كان مكتوبا فى قصر أردشير الصبر
مفتاح الدرك . وقال بعض الحكماء : بحسن التأنى تسهل المطالب . وقال
بعض البلغاء : من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى . وقال محمد بن بشير :
إن الأمور إذا سدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتجبا
لا تياسن وإن طالت مطالبة * إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
والقسم السادس الصبر على مانزل من مكروه أو حل من أمر مخوف
فبالصبر فى هذا تفتتح وجوه الآراء وتستدفع مكاييد الأعداء فان من
قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه .

وقد قال الله تعالى : «وَأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور»
وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : « ان استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل وإن لم
تستطع فاصبر فإن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع
الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر » وقال على بن أبى طالب
رضى الله عنه : الصبر مستأصل الحدثان والجزع من أعوان الزمان .
وقال بعض الحكماء : بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور . وقال
بعض البلغاء : عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج . وروى ابن عباس
رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه
فى البناء شكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : الستم تذهبون فرغا
وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال : ففى ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على
نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى إبليس
لعنه الله فقال : أستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال : ففى هذا راحة لكم
نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار
فشكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : الآن جاءكم الفرج فما لبثوا أن
أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا فى نبى من
أنبياء الله يعمل بأمره ويقف على حده فكيف بما جرت به الأقدار
من يد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهى
الامنقرضة وعند بلوغ الغاية الامنحسرة . وأنشد بعض الأدباء لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

خلى لا والله ما من ملة تدوم على حى وإن هى جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنوائب فصا برها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلت

وكانت على الأيام نفسى عزيزة فلما رأته صبرى على الذل ذلت
 فقلت لها يا نفس موتى كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت
 ولتسهل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما
 وصادفت عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها . فمنها استشعار النفس
 بما تعلمه من نزول الفناء وتقضى المسار وأن لها آجالا منصرفة ومددا
 منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء . وروى ابن مسعود
 رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما مثلى ومثل الدنيا
 الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها » .
 وسئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الدنيا فقال : تغز وتضر وتتمر
 وسأل بعض خلفاء بنى العباس جليسا له عن الدنيا فقال : اذا أقبلت
 أدبرت وقال عمرو بن عبيد : الدنيا أمد والآخرة أبد . وقال أنوشروان :
 إن أحببت أن لا تغتم فلا تقن ما به تهتم فأخذه بعض الشعراء فقال :
 ألم تر أن الدهر من سوء فعله يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
 فمن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خير قضية ووصيه تنفى الهموم الركداء
 قال الهموم تكون من طبع الورى فى لبث ما فى طبعه أن ينفدا
 فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا للكسر فانكسرت فلا تك مكدا

وأنشدنى بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم :

إنما الدنيا هبات وعوار مستترده
 شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

ولما قتل بزرجمهر وجد فى جيب قميصه رقعة فيها مكتوب : اذا لم
 يكن جد فقيم الكد وان لم يكن للأمر دوام فقيم السرور واذا لم يرد
 الله دوام ملك فقيم الحيلة وقال ابن الرومى :

رأيت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا كذلك بالسقم
إذا طاب لي عيش تنقص طيبه بصدق يقيني أن سيذهب كالخلم
ومن كان في عيش يراعى زواله فذلك في نؤس وإن كان في نعم
ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وإنها نتقدر
بأوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول
بصبر وإن كان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب
حتى تنجلي وهو عنها غافل . وحكى أن الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه
بعد زمان فقال للوكل به : قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من
بؤسى مثله والأمر قريب والحكم لله تعالى فأخذ هذا المعنى بعض
الشعراء فقال :

لو أن ما أتمو فيه يدوم لكم ظننت ما أنا فيه دائما أبدا
ليكني عالم أنى وأنكم سنستجد خلافاً للحالين غدا
وأنشد لبعض الشعراء :

عواقب مكروه الأمور خيار وأيام ضرّ لا تدوم قصار
وليس بيباق بؤسها وبعيمها إذا كر ليل ثم كر نهار
وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حصرته الوفاة :
ألم تر أن ربك ليس تحصي أياديهِ الحديثة والقديمة
تسلّ عن الهموم فليس شيء يقوم ولا همومك بالمقیمه
لعل الله ينظر بعد هذا اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو أعظم
من رزيته وأشدّ من حادثته ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله تعالى في أثناء كل محنة منحة» .
وقيل للشعبي في نائبة كيف أصبحت قال : بين نعمتين خير منشور وشر
مستور . وقال بعض الشعراء :

لا تكروه المكروه عند حلوله إن العواقب لم تزل متباينه
 كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طيِّ المكاره كامنه
 ومنها أن يتأسى بذوى الغير ويتسلى بأولى العبر ويعلم أنهم الأكثر
 عددا والأسرعون مددا فيستجد من سلوة الأسى وحسن العزا ما يخفف
 شجوه ويقل هالعه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الصقوا بذوى
 الغير لتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مرأى الشعراء قال البحترى :
 فلا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعادى من فصيح وأعجم
 فخر به وحشى سقت حمزة الردى وموت على من حسام ابن ملجم
 وقال أبو نواس

المرء بين مصائب لا تنقضى حتى يوارى جسمه فى رسمه
 فمؤجل يلقى الردى فى أهله ومعجل يلقى الردى فى نفسه
 ومنها أن يعلم أن النعم زائرة وأنها لا محالة زائلة وأن السرور بها
 اذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا أدبرت وأنها لا تفرح باقبالها
 فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل
 فى منشور الحكم : المصروح به هو المحزون عليه . وقيل : من بلغ غاية ما يجب
 فليتوقع غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء : من علم أن كل نائبة الى انقضاء
 حسن عزاءه عند نزول البلاء . وقيل للحسن البصرى رحمه الله : كيف ترى
 الدنيا قال : شغانى توقع بلائها عن الفرح برخائها فأخذها أبو العتاهية فقال :

تزيده الأيام إن أقبلت شدة خوف لتصاريفها
 كأنها فى حال إسعافها تسمعه وقعة تخويفها

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون
 بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل
 صاحباً بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقه وقد

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما قرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم وحزن آخرون » وقال البحترى :

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا نحول نبيه

وقال المتنبي

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وأشد بعض أهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة أيكمة اذا أخضر منها جانب جف جانب

فلا تفرحن منها الشئ تفيده سيذهب يوما مثل ما أنت ذاهب

وما هذه الأيام الا بغائع وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها أن يعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبه وذلك لاحدى عاتين إما لأن الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه . وقد قيل : من زاد في عقله نقص من رزقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما انتقصت جارحة من إنسان الا كانت ذكاء في عقله » وقال أبو العتاهية :

ما جاوز المرء من أطرافه طرفا الا تخونه النقصان من طرف

وأشدنى بعض أهل الأدب لابراهيم بن هلال الكاتب :

اذا جمعت بين أمرأين صناعة فأحببت أن تدري الذى هو أحق

فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الأرزاق حين تفرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

وإما لأن ذا الفضل محسود وبالأذى مقصود فلا يسلم فى بره

من معاد واشتطاط مناو . وقال الصنوبرى :

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد

جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدث الانتقام لأجل التقدم وقد قال الشاعر :

فلا غرو أن يمضى عليم بجاهل فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيدة من الحنكة ببلاء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكبل بأدنى شدته ورخائه ويتعظ بحالة غموه وبلائه . حكى عن ثعلب قال : دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لى يا أبا العباس اسمع ما أقول :

نوائب الدهر أدبأتى وإنما يوعظ الأديب

قد ذقت حلوا وذقت مرًا كذاك عيش القتي ضروب

لم يعض بؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب

كذلك من صاحب الليالى تغذوه من درها الخطوب

فقلت لمن هذه الأبيات قال لى ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شأنه فلا يغير برقاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من قلب واستحالة فإن من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها . وأنشد بعض الأدباء :

إنى رأيت عواقب الدنيا فتركت ما أهوى لما أخشى

فكرت فى الدنيا وعالمها فاذا جميع أمورها تنفى

وبلوت أكثر أهلها فاذا كل أمرئ فى شأنه يسعى

أسنى منازلها وأرفعها فى العز أقربها من المهوى

تعفو مساوئها محاسنها لا فرق بين النعى والبشرى

ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى

أتراك تدري كم رأيت من الأحياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصائب بأحد هذه الأسباب تخففت عنه أحزانه وتسهلت

عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء . وقال بعض الحكماء : من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا . وقال بعض الشعراء :

ما يكون الأمر سهلا كله إنما الدنيا سرور وحزون
هون الأمر تعش في راحة قلما هونت الا سيهون
تطلب الراحة في دار العنا ضل من يطلب شيئا لا يكون
فان أغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضعف
عليه من شدة الأسى وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه
سلوا . وقال ابن الرومي :

إن البلاء يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق
فاذا ساعده جزعه بالأسباب الباعثة عليه وأمدّه هلعه بالذرائع
الداعية اليه فقد سعى في حنقه وأعان على تلفه . فمن أسباب ذلك
تذكر المصائب حتى لا يتناساه وتصوّره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من
التذكار سلوة ولا يخلط مع التصوّر تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه : لا تستفزوا الدموع بالتذكر . وقال الشاعر :

ولا يبعث الأحران مثل التذكر

ومنها الأسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد
لمفقوده بدلا فيزداد بالأسف ولها وبالحسرة هلعاً . ولذلك قال الله تعالى :
« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » . وقال بعض الشعراء :

إذا بليت فثق بالله وأرض به إن الذي يكشف البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرة ما لا مرئ حيله فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لا تيأسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى : « فاصبر
صبرا جميلا » انه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث . روى أنس بن مالك

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما صبر من بث » . وحكى كعب
 الأحبار أنه مكتوب في التوراة من أصابته مصيبة فشكا الى الناس
 فأنما يشكو ربه . وحكى أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت
 صراخا في دار فقالت ما هذا فقيل لها : مات لهم إنسان فقالت : ما أراهم
 الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون . وقد
 قيل في منشور الحكم : من ضاق قلبه آتسع لسانه . وأنشد بعض أهل العلم :
 لا تكثر الشكوى الى الصديق وارجع الى الخالق لا المخلوق
 لا يخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعراء :

لا تشك دهرك ما صححت به إن الغنى هو صحة الجسم
 هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع القسم
 ومنها اليأس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة
 قنوط الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر . وقد قيل :
 المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومي :
 إصبري أيتها النفس* فان الصبر أحجى
 ربما خاب رجاء وأتى ما ليس يرجى
 وأنشدني بعض أهل العلم :

أتحسب أن البؤس للحر دائم ولودام شيء عده الناس في العجب
 لقد عرفتك الحادثات ببؤسها وقد أدبت ان كان ينفعك الأدب
 ولو طلب الانسان من صرف دهره دوام الذي يخشى لأعياء ما طلب
 ومنها أن يغرى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى
 التحف بالأمن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خص
 من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويا وأفرد بالحادثة بعد ان كان مكافيا
 فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه النظرة

ملاحظة من شاركه في الرزية وساواه في الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر وحن منه الفرج . وأنشدت لامرأة من العرب :

أيها الانسان صبرا إن بعد العسر يسرا .
كم رأينا اليوم حرّا لم يكن بالأمس حرّا
ملك الصبر فأضحى مالكا خيرا وشرّا
إشرب الصبر وان كا ن من الصبر أمرا

وأنشدت لبعض أهل الأدب :

يراع القى للخطب تبدو صدوره فيأسى وفي عقباه يأتى سروره
ألم تر أن الليل لما تراكت دجاء بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن اليأس ان كنت عالما لبيا فان الدهر شتى أموره

واعلم أنه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا . أخبرني بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض إخوانه يشكو له طول حبسه فردّ عليه جواب رفعتة بهذا :

صبرا أبا أيوب صبر مبرح فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة ولعلها أن تنجلي ولعلها
فأجابه أبو أيوب يقول :

صبرتنى ووعظتنى وأنا لها . وستنجلي بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها كرمابه اذ كان يملك حلها
فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا أياما حتى أطلق مكرما . وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم :

إذا اشتملت على اليأس القلوب . وضاق لما به الصدر الحبيب

وأوطنت المكاره واطمأنت وارست في مكاتها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضرّ وجها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمين به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات اذا تاهت فموصول بها الفرج القريب

(الفصل الثالث في المشورة) اعلم أن من الحزم لكل ذى لب
أن لا يبرم أمرا ولا يعضى عزما الا بمشورة ذى رأى الناصح ومطالعة
ذى العقل الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم
مع ما تكفل به من إرشاده ووعد به من تأييده فقال تعالى : « وشاورهم
في الأمر » .

قال قتادة : أمره بمشاورتهم تألفا لهم وتطييبا لأنفسهم . وقال الضحاك
أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل . وقال الحسن البصرى رحمه
الله تعالى : أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وإن
كان عن مشورتهم غنيا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« المشورة حصن من الندامة وأمان الملامة » . وقال على بن أبى طالب
رضى الله عنه : نعم الموازنة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد . وقال
عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرجال ثلاثة : رجل ترد عليه الأمور
فيسدّها برأيه . ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل
الرأى . ورجل حائر بأمره لا ياتمّر رشدا ولا يطيع مرشدا . وقال عمر بن
عبد العزيز : إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما
رأى ولا يفقد معهما حرم . وقال سيف بن ذى يزن : من أعجب برأيه
لم يشاور ومن استبدّ برأيه كان من الصواب بعيدا . وقال عبد الحميد :
المشاور فى رأيه ناظر من ورائه . وقيل فى مشور الحكم : المشاورة راحة
لك وتعب على غيرك . وقال بعض الحكماء : الاستشارة عين الهداية وقد
خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الأدباء : ما خاب من استخار ولا

ندم من استشار . وقال بعض البلغاء : من حق العاقل أن يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالرأى القدر ربما زل والعقل الفرد ربما ضل . وقال بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوام

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال : إحداها عقل كامل مع تجربة سالفة فانه بكثرة التجارب تصح الروية . وقد روى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » . وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك أن يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل . وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال : نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأننا ألف حازم . وكان يقال : إياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه . وقيل في منشور الحكم : كل شيء يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل : الأيام تهتك لك عن الأستار الكامنة . وقال بعض الحكماء : التجارب ليست لها غاية والعاقل منها في زيادة . وقال بعض الحكماء : من استعان بذوى العقول فاز بدرك المأمول . وقال أبو الأسود الدؤلى :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بليب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب الحق له من طاعة بنصيب
والخصلة الثانية — أن يكون ذا دين وتق فان ذلك عماد كل صلاح
وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق

العزيمة . روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أراد أمرا فشاور فيه أمرا مسلما وفقه الله لا رشد أموره » . والخصلة الثالثة — أن يكون ناصحا ودودا فان النصيح والمودة يصدقان الفكرة ويحضنان الرأي . وقد قال بعض الحكماء : لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود وإياك ومشاورة النساء فان رأين الى الأفن وعزمهن الى الوهن . وقال بعض الادباء : مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء :

أصف ضميرا لمن تعاشره واسكن الى ناصح تشاوره
وأرض من المرء في مودته بما يؤدي اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يحد أحدا تصح منهم له سرائره
أو شك أن لا يدوم وصل أخ في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة — أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب المموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر . وقد قيل في مشور الحكم : كل شيء يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب . وكان كسرى اذا دهمه أمر بعث الى مرزبته فاستشارهم فان قصروا فى رأى ضرب قهارمته وقال : أبطأتم بأرزاقيهم فأخطأوا فى آرائهم . وقال صالح بن عبد القدوس :

ولا مشير كذى نصيح ومقدرة فى مشكل الأمر فاختر ذاك منتصحا
والخصلة الخامسة — أن لا يكون له فى الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الأغراض جاذبة والهوى صائد والرأى اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس ابن عتبة بن أبى لهب :

وقد يحكم الأيام من كان جاهلا ويردى الهوى ذا الرأى وهوليب
ويحمد فى الأمر الفتى وهو مخطئ ويعذل فى الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان أهلاً للمشورة ومعدناً للراي فلا تعدل عن استشارته اعتماداً على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلق الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رأس العقل بعد الايمان بالله التوّدّد الى الناس وما استغنى مستبّد برأيه وما هلك أحد عن مشورة فاذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه». وقال على بن أنى طالب رضى الله عنه: الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه. وقال لقمان الحكيم لابنه: شاور من جرب الأمور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجاناً. وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك فشاورة ليكمل لك الراي. وقال بعض الأدباء: من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل. وقال بعض البلغاء: الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد. وقال الشاعر:

خليل أيس الرأى في صدرواحد أشيرا على بالذى تريان

ولا ينبغي أن يتصور في نفسه أنه ان شارر في أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر الى رأى غيره فان هذه معاذير النوكى وايس يراد الرأى للباهة به وإنما يراد للانتفاع بنتيجته والتحترز عن الخطأ عند زلله وكيف يكون عاراً ما أدى الى صواب وصدّ عن خطأ. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لتهوا عقولكم بالذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة». وقال بعض الحكماء: من كمال عقلك استظهارك على عقلك. وقال بعض البلغاء: اذا أشكت عليك الأمور وتغير لك الجمهور فارجع الى رأى العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد

فلآن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم. وينبغي أن تكثر من استشارة ذوى الألباب لاسيما في الأمر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأى ويذهب عنهم صواب لأن إرسال الخواطر الثاقبة وإجالة الأفكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل في مشور الحكم: من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وإن كان الخطأ من الجماعة بعيدا. فاذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب النرس أن الأولى اجتماعهم على الارتياء وإجالة المكر ليدكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وأتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه ردّ نوقض كالجدال الذى تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لايبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل إلاظهر ولا زلل إلا بان. وذهب غيرهم من أصناف الأمم الى أن الأولى استسرار كل واحد بالمشورة ليحيل كل واحد منهم فكره فى الراى طمعا فى الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فقصت وكان الأول من بدائها متبوعا. ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثانى أظهر. والذى أراه فى الأولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر فى الشورى فان كانت فى حال واحدة هل هى صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لأن ما تردد بين أمرين فالمراد منه الاعتراض على فساد أو ظهور المحجة فى صلاحه وهذا مع الاجتماع أبلغ وعند المناظرة أوضح. وإن كانت الشورى فى خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية وأحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالأولى فى مثله انفراد كل واحد بفكره وخلؤه بخاطره ليجتهد فى الجواب ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون

الاجتهاد في الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعاً لأن الانفراد في الاجتهاد أوضح والاجتماع على المناظرة أبلغ فهكذا هذا وينبغي أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشار ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد فإذا تصفح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الأمر مقلداً ولا في الرأي مفوضاً فإنه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال : إحداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأي وافتتاح ما أغلق من الصواب فإذا تقرّر له الرأي أمضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجاح لاسيما والمقادير غالبية ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه وأسلم الى نفسه فصار فرداً لا بعان برأى ولا يمدّ بهشورة . وقد قالت الفرس في حكمها : أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة وأقل الأذى خير من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء للمبرم وإذا استبدّ الملك برأيه عميت عليه المراشد . وإذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى أهلاً ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفواً فإن الرأى كالضالة تؤخذ أبناً وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فإن الدرة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لا تنفع المستشار وأنشد أبو العيناء عن الأصمعي :

النصح أرخص ما باع الرجال فلا تردد على ناصح نصيحاً ولا تلم
إن النصائح لا تخنى منها هجها على الرجال ذوى الألباب والفهم
ثم لا وجه لمن تقرّر له رأى أن يخفى في إمضائه فإن الزمان غادر والفرص

منتهزة والثقة عجز . وقيل لملك زال عنه ملكه : ما الذى سلبك ملكك
قال : تأخيرى عمل اليوم لغد . وقال الشاعر :

إذا كنت ذارأى فكن ذاعزيمة ولا تك بالترداد للرأى مفسدا
فانى رأيت الريث فى العزم هجنة وإنفاذ ذى الرأى العزيمة أرشدا

وينبغى لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى صار
مأمول النجح مرجو الصواب أن يؤدى حق هذه النعمة باخلاص
السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصيح . فقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن من حق المسلم على المسلم إذا استنصحه
أن ينصحه» وربما أبطرته المشاورة فأعجب برأيه فاحذره فى المشاورة
فليس للعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شخ فى الرأى لعداوة
أو حسد أو مكر فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو
أو صديق أن يكتم رأيا وقد استرشد ولا أن يخون وفداؤتم . روى
محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : «المستشير معان والمستشار مؤتمن» . وذال سليمان بن دريد :
وأجب أخاك إذا استشارك ناصحا وعلى أخيك نصيحة لا تردد

ولا ينبغى أن يتسر قبل أن يستشار إلا فيما مس ولا أن يتبرع بالرأى إلا
فيما لزم فانه لا ينفك من أن يكون رايامتهما أو مطرحا وفى أى هذين كان
وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب أو كان لباعث
وسبب . روى أبو بلال العجلي عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : «قال لقمان لابنه يا بني اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت
فأعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر» . وقال يهس الكلأى :

من الناس من إن يستشرك فتجتهد له الرأى يستغشك مالا تبأيه
فلا تمنحن الرأى من ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

(الفصل الرابع في كتمان السر) اعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لأحوال الصلاح . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود» وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : سرّك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره . وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنيئا بالأسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر . وقال بعض الأدباء : من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه . وقال بعض البلغاء : ما أسرك ما كتمت سرّك . وقال بعض الفصحاء : ما لم تغيبه الأضالع فهو مكشوف ضائع . وقال أنس بن أسيد :

ولا تفش سرّك إلّا اليك فان لكل نصيح نصيحا
فاني رأيت وشاء الرجا ل لا يتركون أديما صحيحا

وكم من إظهار سر أراف دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آسما وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا . وقال أنوشروان : من حصن سره فله تحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وإظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه لأنه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النجاسة ان كان مستودعا فأما الضرر فربما استويا فيه أو تناضلا وكلاهما مدموم وهو فيهما مالم وفي الاسترسال ببدء السر دلائل على ثلاث أحوال مدمومة : إحداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر . وقال الشاعر :

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيق
والثانية — الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الأذكياء .

وقد قال بعض الحكماء: انفراد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون .
 والثالثة — ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر . وقد قال بعض
 الحكماء: سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارتقته * واعلم أن من الأسرار
 ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر
 العاقل لسره أمينا ان لم يجد الى كتفه سبيلا وليتحرر في اختيار من
 يأتمنه عليه ويستودعه إياه فليس كل من كان على الأموال أمينا كان
 على الأسرار مؤتمنا والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار
 لأن الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير
 من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما أضاع من سره كبيرا في جنب
 ما حفظه من يسر ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فن أجل ذلك
 كان أماء الأسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الأموال وكان
 حفظ المال أيسر من كتم الأسرار لأن أحرار الأموال منيحة وأحرار
 الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويتسبّعها كلام سابق . وقال عمر
 ابن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعية الأسرار والشتاه أقتالها
 والألسن منافعها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره . ومن صفات أمين
 السر أن يكون ذا عقل صاّد ودين حاجر ونصح مبذول وودّ موفور
 وكتوما بالطبع فان هذه الأمور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الأمانة
 فمن كتم فيه فهو عنقاء مغرب . وقيل في منشور الحكم: قلوب العقلاء
 حصون الأسرار . وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه
 ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعه خائن . وقال صالح بن عبد القدوس :

لا تدع سرا الى طالبه منك فالطالب للسرمذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق
 الى الاشاعة لأمرين : أحدهما أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير
 معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها . والثاني

أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء: كلما كثرت خزان الأسرار ازدادت ضياعا . وقال بعض الشعراء:

وسرك ما كان عند امرئ وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر: فلا تنطق بسرك كل سر اذا ما جاوز الاشين فاشي

ثم لو سلم من إذاعتهم لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع التبعذ . ولذلك قال بعض الحكماء: من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجو أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسي له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل إدلال اللثام . وحكى ان رجلا أسرا الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال: بل جهات قال أحفظت قال: بل نسيت . وقيل لرجل: كيف كتمانك لسر قال: أبجد المخبر وأحلف للمستخير . وقال بعض الشعراء:

ولو قدرت على نسيان ما اشتقت مني الضلوع على الأسرار والخبر
لكنك أقول من ينسب سرائره اذ كنت من نشرها يوما على خطر

(١) وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال ابنه:

(١) لا يخفى ما في هذه الأبيات من الاضطراب وعدم التماسك . والرواية الصحيحة ما ذكره الصفدي في شرح لامية العجم نقلًا عن صاحب هذا الكتاب قال مانصه . وحكى الماوردي أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال
ومستودعي سرا تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبرا

فقال اسه وهو صبي

وما السر في قلبي ثكوا بمحصرة
ولكنني أخفيه عنى كائنني
لأنى أرى المدفون ينظر الحشرا
من الدهر يوما ما أحطت به خيرا
كتبه أحمد إبراهيم

ومستودعى سرا تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبراً
ولكننى أخفيه عنى كأنى من الدهر يوماً ما أحطت به خبراً
وما السر فى قلبى كميت بحفرة لأننى أرى المدفون ينتظر النشراً

(الفصل الخامس فى المزاح والضحك) اعلم أن للمزاح ازاحة عن
الحقوق ومخرجاً الى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذى الممازح
فوصمة الممازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء
وأما أذية الممازح فلا أنه معقوق بقول كرهه وفعل ممض ان أمسك عنه
أحزن قلبه وان قابل عليه جانب أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه
نفسه عن وصمة مساويه . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى » . وقال
عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة . وقال بعض
الحكماء : انما المزاح سباب الا أن صاحبه يضحك وقيل : انما سمي المزاح
مزاخاً لأنه يزيح عن الحق . وقال ابراهيم النخعي : المزاح من سخف
أو بطر . وقيل فى منشور الحكم : المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار
الخطب . وقال بعض الحكماء : من كثر مزاحه زالت هيئته ومن كثر
خلافه طابت غيبته . وقال بعض البلغاء : من قل عقله كثر هزله .
وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال : يصك أحدكم صاحبه بأشد من
الجندل وينشقه أحرف من الخردل ويفرغ عليه أحر من الرجل ثم
يقول إنما كنت أمازحك . وقال بعض الحكماء : خير المزاح لا ينال
وشره لا يقال فنظمه النيسابورى فى قصيدته الجامعة للآداب فقال وزاد :

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح من الفقى تدعو الى التلاحى
إن المزاح بدؤه حلاوه لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف ويجترى بسخفه السخيف

وقال أبو نواس

خل جنبيك لرام وامنض عنه بسلام
متبداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من ألجم فاه بلجام
ربما استفتح بالمزح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات شاربات للأنام

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى حالتين لا ثلاثة لهما : أحدهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل . وقد قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد في مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرى عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين . والحالة الثانية أن ينفى بالمزاح ما طرأ عليه من سأم وأحدث به من هم فقد قيل : لا بد للمصدور أن ينفث . وأنشدت لأبي الفتح البستي :

أفد طبعك المكدود بالجدراحة يحجم وعمله بشيء من المزح
ولكن اذا أعطيت المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقا » فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى أن عجوزا من الأنصار أتته فقالت يا رسول الله أدع لى بالمغفرة فقال : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل « إنا أنشأناهم إنشاء فجعلناهم أبكارا عربا أترابا » وأتته أخرى فى حاجة لزوجها فقال لها : ومن زوجك فقالت : فلان فقال لها : الذى فى عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلي الى زوجها

وجعلت تتأمل عينيه فقال لها : ما شأنك فقالت : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في عينيك بياضا فقال : أما ترين بياض عيني أكثر من سوادهما . وسئل الشعبي عن أكل لحم الشيطان فقال : نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له : ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال : ذلك نكاح ماشهدناه وقال رجل لغلام : بكم تعمل معي قال : بطعامي فقال له : أحسن قليلا قال : فأصوم الاثنين والخميس . وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه مسترسلا في مزاحه . وروى ابن قتيبة في المعارف أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شذ عليه برذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول : الطريق قد جاء الأمير وربما أنى الصبيان وهم يلعبون لعبة الأعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ . وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أتأكل تمرأ وبك رمذ فقال يا رسول الله إنما أمضغ على الناحية الأخرى وإنما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لأن استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فأجابه عن استخباره بما يوافق مصادرة لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لأحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لأن المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم : « أناسبق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش ، وليحذر أن يسترسل في مازحة عدو فيجعل له طريقا إلى إعلان المساوى هزلا وهو مجتد ويفسح له في التشفي مزحا وهو محق . وقد قال بعض الحكماء : إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك .

وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة مذهب
عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن
وسم به خطر ولا مقدار . روى أبو إدريس الخولاني عن أبي
ذر الغفاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياك وكثرة الضحك
فانه يميم القلب ويذهب بنور الوجه » . وروى عن ابن عباس في قوله
نعالي : « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » أن الصغيرة
الضحك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من كثر ضحكك قلت هيبتك
وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه : اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم
مجة . وقيل في منشور الحكم : ضحكة المؤمن غفلة من قبله والقول
في الضحك كالتقول في المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه وأوحش منه
وإن ألفه كانت حاله ما وصفناه فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما
وبسرا . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : التبسم دعابة وهذا أبلغ
في الايناس من الضحك الذى قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه
لمرة النادرة اطارئ استغفل النفس عن دفعه . هذا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما
كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه

(الفصل السادس فى الطيرة والفأل) اعلم أنه ليس شئ أضرّ بالرأى
ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيم
غراب يردّ قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » .
فالعدوى ما يظنه الناس من تعدى العلل والأمراض فأخبر أنها لا تعدى
فقليل يا رسول الله انا نرى النقبة من الحرب فى مشفر البعير فتعدى
الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم : فما أعدى الأول . وأما الهامة فهو
ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده من أن القتل اذا طلّ دمه فلم

يدرك بثأره صاحته هامة فى القبر اسقونى . قال الزبرقان بن زبد يعنينا :
يا عمرو^(١) إلا تدع شتى ومنقصتى أضربك حتى نقول الهامة اسقونى
وقال إبراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا يصيح صداها بالعشى وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة سريع الى ورد المناء كرامها
وأما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف بصيب الماشية والناس
وهو أعدى عندهم من الحرب وفيه يقول الشاعر :

لا يمسك الساق من أين ولا وصب ولا يعض على شرسوفه الصفر
وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : « اذا ظنتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا نظيرتم فامضوا
وعلى الله فتوكلوا » وقال الشاعر :

طيرة الناس لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
أى يوم تخصه بسعود والمنايا ينزلن فى كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس تجرى لقوم وفوم
وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا أرادت سفرا
أنفرت أول طائر تلفاه فن طار يمينه سارت وتيمنت واذا طار يسرة
رجعت وتشاءمت فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « اقترؤا
الطير على وكناها » . وحكى عكرمة قال : كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله
عنهما فتر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس : لا خير
ولا شر . وقال لبيد :

لعمرك ما ندرى الضوارب بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع
واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لاسيما من عارضته المقادير

(١) هذا البيت من قصيدة نسبها صاحب الامالى فى صفحة ٢٥٩ من الجزء الأول
لدى الإصبع العدواني .

في ارادته وصدّه القضاء عن طلبته فهو يرجو والياس عليه أغلب ويأمل
والخوف اليه أقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر
خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيمته فاذا تطير أحجم عن
الاقدام ويئس من الظنر وظن أن التياس فيه مطرد وأن العسرة فيه
مستمرة ثم بصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد . فأما
من ساعدته المقادير ووافقته القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله
وتعويلا على سعادته فلا يصدّه خوف ولا يكفه خور ولا يُؤوب
الاطافرا ولا يعود الامنجحا لأن الغنم بالاقدام والخبية مع الاحجام فصارت
الطيرة من سمات الادبار واطراحها من أمارات الاقبال فينبغي لمن مني
بها وبلى أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعى الخيبة
وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمهم ومعارضة
خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب وأن
الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا بضرم مخلوقا ولا يدفع مقدورا . وينمض
في عزائمهم واثما بالله تعالى ان أعطى وراضيا به ان منع . فقد روى
أبوهريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الانسان ثلاثة
الطبرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من
الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغي » . وروى عنه صلى
الله عليه وسلم أنه قال : « كفارة الطيرة النوكل على الله تعالى » . وقيل
في مسرور الحكم : الخير في ترك الطيرة وليقل إن عارضه في الطيرة ريب
أو خامره فيها وهم ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من
تطير فليقل اللهم لا يأتي بالخيرات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت
ولا حول ولا قوة إلا بالله » . وقد روى أن رجلا جاء الى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : إنا نزلنا دارا فكثرت فيها عددنا
وكثرت فيها أموالنا ثم تحوّلنا عنها الى أخرى فقللت فيها أموالنا وقل فيها

عددا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذروها فهي ذميمة. وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به. وأما الفأل ففيه تقوية للعزم وباعث على الجدة ومعونة على الظفر فقد تفاعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه. وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته فقال: أخذنا فألك من فيك. فينبغي لمن تفاعل أن يتأول الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن البلاء موكل بالمنطق» روى أن يوسف عليه السلام شكى الى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت: رب السجن أحب اليّ ولو قلت العافية أحب اليّ لعوفيت. وحكى أن المؤمل بن أمّبل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شَفَّ المؤمِّل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخاف له بصر
عمى فأناه آت في منامه فقال له: هذا ما طلبت. وحكى أن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك تفاعل يوما في المصحف فخرج له قوله تعالى: «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» فزق المصحف وأنشأ يقول:

اتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجئت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد
فلم يلبث الا أياما حتى قتل شر قتلة وصاب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغي ومصارعه والشيطان ومصايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

(الفصل السابع في المروءة) اعلم أن من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم

باستحقاق . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو من كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته » . وقال بعض البلغاء : من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيآ على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم . وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال : العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأجمل

ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وإنما المراعاة هي المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل الأخلاق لأن غرور الحموى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من خلائقها والأجمل من طرائقها وإن سلمت منها وبعيد أن تسلم إلا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعاً واستغنى عن تهذيبها تكلفاً وتطبعاً . وقال الشاعر :

من لك بالمحض وليس محص يخبث بعض ويطيب بعض
ثم لو استكمل الفضل طبعاً وفي المعوز أن يكون مستكملاً لكان في المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه إلا بالمعانة ولا يوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هي المروءة وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذراً من الذم ولذلك قيل : سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام الطائي :

والحمد شهد لا يرى مشتاره يحنيه آلا من نقيع الحنظل
عُلِّ الحامله ويحسبه الذي . لم يؤه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله :
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال
وله أيضا

واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام
والداعي الى استسهال ذلك شيثان : أحدهما علو الهمة والثاني شرف
النفس أما علو الهمة فلا أنه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة
من نحول الضعة واستنكارا لمهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم : « إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها وكره ذنوبها وسفاسفها » .
وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا تصغرن هممكم
فانى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم . وقال بعض الحكماء : الهمة
راية الجلد . وقال بعض البلغاء : علو الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء : اذا
طلب رجلان أمرا ظفربه أعظمهما مروءة . وقال بعض العلماء : من ترك
التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما . وأما شرف النفس فانه به يكون
قبول التأديب واستقرار التقويم والتهديب لأن النفس ربما جمحت
عن الأفضل وهى به عارفة ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة لأنها
عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فنصير منه أنفرا واضده الملائم أثر .
وقد قيل : ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت
للاآداب طالبة وفى الفضائل راغبة فاذا مازجها صارت طبعها ملائما
فما واستقر فأما من منى بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة
لأمر أعوزته آلتة وأفسدته جهالته فصار كضريروم تعلم الكتابة
واحرص يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الاعوزا ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما هلك امرؤ عرف قدره » . وقيل
لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالا قال : من بعدت همته واتسعت
أمنيته وقصرت آلتة وقلت مقدرته . وقال أفنون التغلبى :

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه وتقواله للشيء ياليت ذالبا
لعمرك ما يدري أمرؤ كيف يتقى اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء: تجنبوا المني فانها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم . وقيل في منشور الحكم: المني من بضائع النوكى فان صادف بهيمته حظا نال به أملا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمغلب اذ ليس في الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وإنما هى كالسحاب الذى يمسك عن منابت الأشجار الى مغاوص البحار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف أرضا طيبة نفع وإن صادف أرضا خبيثة ضر كذلك إن صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عاقمة وإن صادف نفسا دنية ضر وكان نقمة طاقنة . وحكى ان موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى اليه قد ملكتُ أسفلها على أعلاها فقال: يارب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فأوحى الله تعالى اليه أليس هذا كل العذاب العاجل الأليم . فأما شرف النفس اذا تجرد عن عاقل الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة فى الجلد الكسل والجبان الفشل نضيع قوته بكسله وجلده بفشله وقد قيل فى منشور الحكم: من دام كسله خاب أمله وقال بعض الشعراء:

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلة يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الأمرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض

الحكماء ما أصعب شيء على الإنسان قال : أن يعرف نفسه ويكتم الأسرار
فاذا اجتمع الأمران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل
بهما ظاهرا والأدب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مسهلة وشروط
المروءة بينهما متينة . وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي :

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخبث ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلّة يبنى الكريم بها المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر
لأن منها ما يقوم في الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا
ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعور استيفاء شروطها الا
جملا يتنبه الفاضل لها ليقظته ويستدل العاقل عابها بفطرته وان كان
جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما ذكر في هذا
الفصل الأشهر من قواعدها وأصولها والأظهر من شروطها وحقوقها
محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين :

أحدهما شروط المروءة في نفسه . والثاني شروطها في غيره . فأما
شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه فيكون بثلاثة
أمور : وهى العفة والنزاهة والصيانة . فأما العفة فموعان : أحدهما العفة
عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فأما العفة عن المحارم فنوعان : أحدهما
ضبط الفرج عن الحرام والثاني كف اللسان عن الأعراض . فأما
ضبط الفرج عن الحرام فلا أن عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل
معرفة فاضحة وهتكة واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من
وُقِيَ شَرُّ ذَنْبِهِ وَلَقَلِّقَهُ وَقَبَّقَهُ فَقَدْ وُقِيَ » يريد بذنبه الفرج وبلققله
اللسان وبقببقه البطن . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« أحب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن » وحكى أن

معاوية رضى الله عنه سأل عمرا عن المروءة فقال : تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال : هى العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال : هى الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية : أنت منى حقا . وقال أنوشروان لابنه هرمز فقال الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم إخوانه . وقال بعض الحكماء : من أحب المكارم اجتنب المحارم . وقيل : عار الفضيحة يكدر لذتها . وقد أنشدنى بعض أهل الأدب للحسن بن على رضى الله عنهما :

الموت خير من ركوب العار والعار خير من دخول النار
* والله من هذا وهذا جارى -

والداعى الى ذلك شيثان : أحدهما ارسال الطرف والثانى اتباع الشهوة وقد روى عن النبي عليه السلام أنه قال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : يا على لا تتبع النظرة النظرة فان الأولى لك والثانية عليك وفى قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان : أحدهما لا تتبع نظريه عينيك نظرقابك والثانى لا تتبع الأولى التى وقعت سهوا بالنظرة الثانية التى توقعها عمدا . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : إياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : العيون مصايد الشيطان . وقال بعض الحكماء : من أرسل طرفه استدعى حتفه . وقال بعض الشعراء :

وكنتم متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
وأما الشهوة فهى خادعة العقول وغادرة الأبواب ومحسنة الفبائح
ومسولة الفضائح وليس عطب إلا وهى له سبب وعليه ألب ولذلك
قال النبي عليه السلام : « أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ
من الشيطان : من ملك نفسه حين يرغب وحين يهرب وحين يشتهى

وحين يغضب » . وقهرها عن هذه الأحوال يكون بثلاثة أمور :
أحدها غض الطرف عن إثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك
والقائد المهلك . روى سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تقبلوا الىّ بست أتعبل اليكم بالجنة قالوا
وما هي يا رسول الله قال : اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا
يخلف واذا اؤتمن فلا يخون غصوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا
أيديكم » . والثاني ترغيبها في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله
ما حرم شيئا الا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة
وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوناً على طاعته وحاجزاً عن مخالفته .
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أمر الله تعالى بشيء الا وأعان
عليه ولا نهى عن شيء الا وأغنى عنه . والثالث إشعار النفس تقوى
الله تعالى في أوامره واتقاؤه في زواجره وإلزامها ما ألزم من طاعته وتحذيرها
ما حذر من معصيته وإعلامها أنه لا يخفى عليه صير ولا يعزب عنه
قطدير وأنه يجازى المحسن وبكافى المصيّء وبذلك نزلت كتبه وبلغت
رساله . روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن « وآتقوا يوما
ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وآخر
ما نزل من النوراة « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » وآخر ما نزل من الانجيل
« شر الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً » وآخر ما نزل من الزبور
« من يزرع خيراً يحصد زرعه غبطة » فاذا أشعرها ما وصفت انقادت
الى الكف وأذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط .
وأما كف اللسان عن الأعراض فلا أن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام
أهل الفجاءة وهو مستسهل الكلف واذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف
وزاجر صاّد تلبط بمعارته وتخبط بمضاره وظن أنه لتجافى الناس عنه حمى
يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك . فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

«ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرام عليكم» فجمع بين الدم والعرض لما فيه من إيفار الصدور وإبداء الشرور وإظهار البذاء واكتساب الأعداء ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لمومق ولا مروءة للمحوظ ثم هو بها مونور موزور ولأجلها مهجور مزجور . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «شر الناس من أكرمه الناس آتقاء لسانه» وقال بعض الحكماء : إنما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال . وما قدح في الأعراض من الكلام نوعان : أحدهما ما قدح في عرض صاحبه ولم يتجاوزده إلى غيره وذلك شيثان الكذب وحش القول . والثاني ما تجاوزده إلى غيره وذلك أربعة أشياء : الغيبة والتميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم وربما كان السب أنكها للفلوب وأبلغها أثرا في النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعبا . وقد يكون ذلك لأحد شيئين إما انتقام يصدر عن سفه أو بذاء يحدث عن لؤم . وقد روى أبو سلمة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «المؤمن غر كريم والعاجر حَبْ لئيم» . وقال ابن المقفع : الاستنطالة لسان الجهالة . وكف النفس عن هذه الحال بما يصدّها من الزواجر أسلم وهو بذى المروءة أجل فهذا شرط . وأما العفة عن المآثم فنوعان : أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسرار بخيانة . فأما المجاهرة بالظلم فعنق مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر إلى فتنة أو جلاء فاما الفتنة في الأغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس على البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى : «ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الفتنة نائة فن أيقظها صار طعاما لها» . وقال جعفر بن محمد : الفتنة حصاد للظالمين وقال بعض الحكماء : صاحب الفتنة أقرب شيء أجلا وأسوأ شيء عملا . وقال بعض الشعراء :

وكننت كعنز السوء قامت لحنفها الى مديّة تحت الثرى تستثيرها
وأما الجلاء فقد يكون من قوّة الظالم وتطاوّل مدّته فيصير ظلمه مع
المكينة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقى معها مع
تمكّنها شيئاً حتى اذا أفتت ما وجدت اضمحلت ونحمدت فكذا حال
الظالم مهلك ثم هالك . والباعث على ذلك شيئان الجرأة والفسوة ولذلك
قال النبي عليه السلام : «اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتي
تعيشوا في أكفاهم» والصائد عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى في الظالمين
فان له فيهم عبرا ويتصوّر عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا . وقد روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : «من أصبح ولم ينيو ظلم أحد غفر الله
له ما اجترم» . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم « يا على اتق دعوة المظلوم فانه إنّما يسأل الله حقه
وإن الله لا يمنع ذا حق حقه» . وقيل في منشور الحكم : ويل للظالم من
يوم المظالم . وقال بعض البلغاء : من جار حكمه أهلكه ظلمه . وقال بعض
الشعراء :

وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيلى بظالم
وأما الاسرار بالخيانة فضعة لانه يبذل الخيانة مهين ولقاة الثقة به
مستكين . وقيل في منشور الحكم : من يخن يرن . وقال خالد الربيعي : قرأت
في بعض الكتب السالفة أنّ مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الأمانة
تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس . ولو لم يكن من
ذم الخيانة الا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصوّر
عقبي أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى
شفعاء تقدّمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام .
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : «أد الأمانة الى من
ائتمك ولا تخن من خانك» وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه

الآية : «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل» يعنون أن أموال العرب حلال لهم لأنهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الأمانة فانها مؤداة الى البر والفاجر. ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زورا ولا ما يديه من العفة غرورا فينهك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح ولمعة الرياء أفضح. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تزال أمتي بخير ما لم تزل الأمانة مغنا والصدقة مغرما» وقال بعض الحكماء : من التمس أربعاً لم يأتها . من التمس الجراء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون . والداعي الى الخيانة شيثان : المهانة وقلة الأمانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة . وأما النزاهة فنوعان : أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فأما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والداء لؤم وهما أدفع شيء للمروءة . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم انى أعوذ بك من طمع يهدى الى طبع . وقال بعض الشعراء :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خرائنه فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيثان الشره وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتي وإن كان كثيرا لأجل شرهه ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيرا لقلة أنفته وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدرا ويرى المال أعظم خطرا

فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنا وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب . وروى أن رجلا قال يارسول الله أوصني قال : عليك باليأس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فانه فقر حاضر وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع وإياك وما يعتذر منه . وقال بعض الشعراء :

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المني واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان : اليأس والقناعة . وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته » فهذا شرط . وأما مواقف الريبة فهي انتردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتتوجه اليه لأئمة المتوهمين وناله ذلة المريين وكفى بصاحبها موقفا إن صح افتضاح وإن لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال : ألا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية وقال حسان بن أبي سنان : ما وجدت شيئا هو أهون من الورع قيل له وكيف قال : اذا آرتبتُ بشئ تركته . والداعى الى هذه الحال شيئان : الاسترسال وحسن الظن والمنازع منهما شيئان : الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة . وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال : ياروح الله ما تصنع هنا فقال الطبيب انما يداوى المرضى . ولكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه أغلب والى الخوف من تصديق التهم أقرب فما كل ريبة

ينفيها حسن الثقة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها وكان معتكفا فتربه رجلان من الأنصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما : على رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا : سبحان الله أوفيك شك يا رسول الله فقال مه : ان الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف في قلبكما سوءاً . فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من قاذح محقق ولائم مصدق . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد » واذا استعمل الحزم وغاب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لم يختار لم يحتاج في نزاهته شك ولم يقدر في عرضه إفك . وقد قال الشاعر :

أصونك أن أدل عليك ظنا لأن الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف . وقال بعض الحكماء : من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع . وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الصولي رحمه الله قوله :

أحسن ظني بأهل دهرى فحسن ظني بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هذا ما الخوف الا من الأمان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة . وأما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان : أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقديم مادتها والثانى صيانتها عن تمهل المن والاسترسال فى الاستعانة . فأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلا أن المحتاج الى الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمدّه ليقم أود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب فى أمثالها : كلب جوال خير من أسد

رابض . وما يستمدّه نوعان : لازم وندب . فأما اللازم فما قام بالكفاية وأفضى الى سدّ الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط : أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقى المحظورة فإن المواد المحترمة مستخبثة الأصول محققة المحصول ان صرفها في بَرٍّ لم يؤجر وان صرفها في مدح لم يشكر ثم هو لأوزارها محتقّب وعليها معاقب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فان أنفق لم يقبل منه وإن أمسكه فهو زاده الى النار . وقال بعض الحكماء : شر المال ما لزمك إنثم مكسبه وحرمت أجر إنفاقه . ونظر بعض الخوارج الى رجل من أصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال : أنظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم . وقال علي بن الجهم :

سرّ من عاش ماله فاذا حا سبه الله سرّه الاعدام

والثاني طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس نه بها عرض فان المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربي . وقال أبو بشر الضرير : كفى حزنا أنى أروح وأغتدى ومالى من مال اصون به عرضى وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخوائج من حسان الوجوه » فقال معناه من أحسن الوجوه التي تحمل . والثالث أن يتأنى في تقدير مادته وتدير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر فى الأرض اذا روى يسيره زكا وان أهمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن على رضى الله عنه : الكمال فى ثلاثة العفة فى الدين والصبر

على النوائب وحسن التدبير في المعيشة . وقيل لبعض الحكماء فلان غنى فقال : لا أعرف ذلك ما لم أعرف تديره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدّه من قدر الكفاية فقد أدى حق المروءة في نفسه . وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال : العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني لا تكن على أحد كلاً فانك تزداد ذلاً واضرب في الأرض عوداً وبدأ ولا تأسف لـ مال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لو صب ولا نصب فهذا حال اللازم . وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الأبية يرون ما وصل الى الانسان كسباً أفضل مما وصل اليه إرثاً لأنه في الارث في جدوى غيره وبالكسب مجدٌ الى غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر . وقال كشاجم :

لا أستلذ العيش لم أدأب له طلباً وسعياً في الهواجر والغلس
وأرى حراماً أن يؤتيني الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتئم
فاصرف نوالك عن أخيك موفراً فالديث ليس يسيع الا ما اقترس

وأما التدب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الأمر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الأكفاء فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة الا شره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خير الرزق ما يكتفي وخير الذكر الخفي » . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الدنيا كلٌ على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود : المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالنار . وقال بعض الحكماء : اشتر ماء وجهك بالثمناء وتسل عن الدنيا بتجافها عن الكرام . فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر أن يكون رأساً مقدماً وأن يرى في النفوس معظماً ومفخماً فالكفاية لا تنقله حتى يكون ماله فاضلاً ونائلاً فائضاً فقد قيل لبعض العرب

ما المروءة فيكم قال : طعام ما أكل ونائل مبذول وبشر مقبول . وقد قال الأحنف بن قيس :

فلو مَدَّ سَرَوِي بِمَالٍ كَثِيرٍ لَجَدْتُ وَكُنْتُ لَهُ بَاذِلًا
 ذَانِ الْمَرْوَةِ لَا تَسْتَطَاعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَالُهَا فَاضِلًا
 وَأَمَّا حَيَاتُهَا عَنْ تَحْمِلِ الْمَنْ وَالِاسْتِرْسَالِ فِي الْإِسْتِعَانَةِ فَلَأَنَّ الْمُنَّةَ
 اسْتَرْقَافُ الْأَحْرَارِ تَحْدُثُ ذِلَّةً فِي الْمُنُونِ عَلَيْهِ وَسَطْوَةٌ فِي الْمَانِ وَالِاسْتِرْسَالِ
 فِي الْإِسْعَانَةِ تَنْقِيلٌ وَمَنْ نَقَلَ عَلَى النَّاسِ دَانَ وَلَا قَدْرَ عِنْدَهُمْ لِمَهَانٍ .
 وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : خَدَمَكَ بَنُوكَ فَقَالَ : أَغْنَانِي اللَّهُ عَنْهُمْ .
 وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِابْنِهِ الْحَسَنِ فِي وَصِيئَتِهِ لَهُ : يَا بَنِي
 إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ وَلَا تَكُنْ عَبْدًا
 غَيْرَكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا فَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ
 الْكَثِيرِ مِنْ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْهُ كَثِيرًا . وَقَالَ زِيَادُ لِبَعْضِ الدِّهَاقِينَ :
 مَا الْمَرْوَةُ فِيكُمْ قَالَ : اجْتِنَابُ الرِّيبِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبِلُ مَرِيْبٌ وَإِصْلَاحُ الرَّجُلِ
 مَالُهُ فَإِنَّهُ مِنْ مَرْوَتِهِ وَقِيَامُهُ بِحَوَائِجِهِ وَحَوَائِجِ أَهْلِهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبِلُ مِنْ احْتِنَاجِ
 إِلَى أَهْلِهِ وَلَا مِنْ احْتِنَاجِ أَهْلِهِ إِلَى غَيْرِهِ . وَأَنْشَدَ ثَعْلَبُ :

مَنْ عَفَ خَفَ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَأَخُو الْحَوَائِجِ وَجْهُهُ مَمْلُوءٌ
 وَأَخْوَكُ مَنْ وَفَرَتْ مَا فِي كَيْسِهِ فَإِذَا عَبَثَتْ بِهِ فَأَنْتَ ثَقِيلٌ
 وَإِنْ كَانَ النَّاسُ لِحِمَّةٍ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنِ التَّعَاوُنِ وَلَا يَسْتَقْلُونَ عَنِ الْمُسَاعَدَةِ
 وَالْمُظَافَرِ نَائِمًا ذَلِكَ تَعَاوُنُ ائْتِلَافٍ يَتَكَافَأُونَ فِيهِ وَلَا يَتَفَاضِلُونَ وَرَبِّمَا
 كَانَ الْمُسْتَعِينُ فِيهِ مَفْضُلًا وَالْمَعِينُ مُسْتَفْضِلًا كَاسْتِعَانَةِ السُّلْطَانِ بِجُنْدِهِ
 وَالْمُزَارَعِ بِأَكْرَتِهِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا بَدٌّ وَلَا لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَى وَإِنَّمَا الَّذِي
 يَتَصَوَّقُ عَنْهُ الْكِرَامُ تَعَاوُنُ التَّنْفِضِ لِيَلْ يَنْقَبِضُونَ عَنْ أَنْ يَسْتَعِينُوا لئَلَّا
 يَكُونَ عَلَيْهِمْ يَدٌ وَيُسَارِعُونَ أَنْ يَعِينُوا لِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ يَدٌ وَمَنْ أَقْدَمُ مِنْ
 غَيْرِ اضْطِرَارٍ عَلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِجَاهٍ أَوْ بِمَالٍ فَقَدْ أَوْهَى مَرْوَتَهُ وَاسْتَبْدَلَ

صيانته ومن دعاه الاضطراب للنائب ألم أو حادث هم إلى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان أغتته الاستعانة بالجاء عن الاستعانة بالمال فلا عذره في التعرض للمال ويعدل إلى ولاية الأمور فان الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم أسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون لهم مساويا وليصبرن على إبطائهم فان تراكم الأمور عليهم يشغلهم إلا عن الملح الصبور ولذلك قيل: قدم لحاجتك بعض لحاجتك . وقال أبو سارة سحيم بن الأعرف :

تعدّ قرابة وتعدّ صهرا ويسعد بالقرابة من رعاها
وما زرناك من عدم ولكن يهش إلى الامارة من رجاها
وأيا ما فعلت فان نفسي تعدّ صلاح نفسك من غناها

فان نعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وجدده قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به في المروآت . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعلی الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم : « من أعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله » وقال صلى الله عليه وسلم : « المستدين تاجر الله في أرضه » . وقال البحتری :

ان لم يكن كثر فقل عطية يبائع بها باغى الرضا بعض الرضا
أو لم يكن هبة فقرض يسرت أسبابه وكواهب من أقرضا
ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الافضال . وقد روى عن
علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر
الغداء وليخفف الرداء قيل وما في خفة الرداء من البقاء قال : قلة الدين
فان أعوزه ذلك الا استمناحا فهو الرق المنزل ولذلك قيل : لامرؤة لمقل .
وقال بعض الحكماء : من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه

وجلالته . والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة أمور هي جهد المضطر: أحدها أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالأبهة وليكن من التجميل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال : اذا زال معها التجميل . وأنشد بعض أهل الأدب لعل بن الجهم :

هي النفس ما حماها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعذل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحزن نعمة ولكن عارا أن يزول التجميل
والثاني أن يقتصر في السؤال على ما دعته إليه الضرورة وقادته إليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر في ضرورته . وقد قال بعض الحكماء : من ألف المسئلة ألفه المنع . والثالث أن يعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان مع فعلا لا يملك وإن أجيب فالى ما لا يسحق . فقد قال النمر بن تواب :

لا نغضبهن على امرئ في ماله وعلى كرائم صاب مالك فاغضب
والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للسئلة أهلا وكان النجاح عنده مأمولا فان ذوى المكنة كثير والمعين منهم قليل . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « الخير كثير وقليل فاعله » . والمرجو للإجابة من تكاملت فيه خصالها وهي ثلاث : إحداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد والليثيم معاند . وقد قيل : المخدول من كانت له الى اللثام حاجة . والثانية سلامة الصدر فان العدو ألَّب على نكبتك وحَبَّ في نائبتك وقد قيل : من أوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه

ورحمك بحسن ظفرك فاعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راحما .
وقد قال الشاعر :

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحينا
والثالث ظهور المِكنة فان من سأل مالا يمكن فقد أحال وكان
كسستهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان
حقيقا . وقد قال على كرم الله وجهه : من لا يعرف لا حتى يقال له لا
فهو أحمق . ووصى عبدالله بن الأهم ابنه فقال : يا بني لا تطلب الخوائج
من غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا
فانك إن فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان . وقال الشاعر :

ولا تسألن امرأ حاجة يحاول من ربه مثلها
فيترك ما كنت حملته ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه . وأما شروط المروءة في غيره
فثلاثة : الموازنة والمياسرة والافضال . أما الموازنة فنوعان : أحدهما
الاسعاف بالجاء والثاني الاسعاف في النواصب . فأما الاسعاف بالجاء
فقد يكون من الأعلى قدرا والأنفذ أمرا وهو أرخص المكارم ثمنا
وألطف الصنائع موقعا وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل
الذي يلجأ اليه المضطرون والحمي الذي يأوي اليه الخائفون فان أوطأه
اتسع بكثرة الأنصار والشيع وان قبضه انقطع بنور الغاشية والتبع
فهو بالبدل ينمي ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح
جاها أن يخجل به فيكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذي قد يعدّه
لوائبه ويستبقيه لذته ويكثره لذتيته . وبضد ذلك من بخل بجاهه
لأنه قد اضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرّم نفسه غنيمة مَكْتَنَة وفرصة
قدرته فلم يعقبه الا دما على فائت وأسفا على ضائع ومقتا يستحكم
في النفوس وذما قد ينتشر في الناس . وقد روى عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى إليه أحسنهم صنيعا إلى عياله». وقال بعض الحكماء: أصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة زمان بلائك. وقال بعض البلغاء: من علامة الاقبال اصطناع الرجال. وقال بعض الأدباء: بذل الجاه أحد الجباين. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول من أمل شيئا هابه ومن جهل شيئا عابه. وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضته من ضته وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وإنما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق. وأنشد بعض الأدباء لعل بن عباس الرومي رحمه الله:

لا يبذل العرف حين يبذله كمشتري الحمد أو كمتاعه
بل يفعل العرف حين يفعله لجوهر العرف لا لأعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثرها الشكر ويستمتع بها المزيد من الأجر: أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولا حسانه متسخطا. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه» فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال. والثاني مجانية الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع وإحباط الشكر. وقد قيل للحكيم اليوناني من أضيقت الناس طريقا وأقلهم صديقا قال: من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه. والثالث أن لا يقرن بمشكور سعيه تقريرا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بأدراك النجاح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم» وقال النابغة الجعدي:

ألم تعلم أن الملامة نفعها قليل إذا ما الشيء ولى فأدبراً

وأما الاسعاف في النوائب فلائف الأيام غادرة والنوازل غائرة
والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الا عليم ولا يستنقذه
منها الا سليم وقد قال عدى بن حاتم :

كنى زاجراً للرمه أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

فاذا وجد الكريم مصاباً بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على
الاسعاف فيها بما استطاع سبيلاً اليه ووجد قدرة عليه . روى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير من الخير معطيه وشر من الشرفاعله »
وقيل لبعض الحكماء : هل شيء خير من الذهب والفضة قال : معطيها
والاسعاف في النوائب نوعان : واجب وتبرع . فاما الواجب فما
اختص بثلاثة أصناف وهم : الأهل والايخوان والجيران أما الأهل
فلمهاسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج أهله الى
غيره . وقال حسان بن ثابت :

وإن امرأ نال المنى لم ينل به قريباً ولا ذا حاجة لزهيده

وإن امرأ عادى الرجال على الغنى ولم يسأل الله الغنى لحسود

وأما الاخوان فلم يستحكم الود ومتأكد العهد . وسئل الأحنف
ابن قيس عن المروءة فقال : صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله
تعالى في كل مكان . وقال بعض حكماء الفرس : صفة الصديق أن يذل
لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب . ورأى
بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان
فقال : ما بال أحدهما فقير والآخر غنى . وأما الجار فلدنو داره واتصال
مزاره قال على كرم الله وجهه : ليس حسن الجوار كف الأذى بل الصبر
على الأذى . وقال بعض الحكماء : من أجار جاره أعانه الله واجاره .

وقال بعض البلغاء : من أحسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره .
وقال بعض الشعراء :

وللجار حق فاحترز من أذاته وماخير جار لم يزل لك مُؤذيا
فيجب من حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم
وإسعافهم في نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المكنة أن يكلمهم
الى غيره أو يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم فانهم عيال كرمه
وأضياف مروءته فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى الطالب
والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضافته مروءته . وقال بعض الشعراء :

حق على السيد المرجو نائله والمستجار به في العرب والعجم
أن لا يذيل الأفاضل صوب راحته حتى يخص به الأدنى من الخدم
إن الفرات اذا جاشت غوار به روى السواحل ثم امتد في الأمم
وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب
ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض في
حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى
شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء أى شئ من أفعال الناس يشبه
أفعال الاله قال : الاحسان الى الناس . وان كف تشاغلا بما لازم فلا لوم
ما لم يلجأ اليه مضطرا لأن القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر
فهذا حكم الموازنة . وأما المياسرة فنوعان : أحدهما العفو عن الهفوات
والثاني المسامحة في الحقوق . فأما العفو عن الهفوات فلا أنه لامبرأ من
سهو وزلل ولا سليم من نقص أو خلل ومن رام سليما من هفوه والتمس
بريئا من نبوه فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان
من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا . وقد قالت الحكماء :
لا صديق لمن أراد صديقا لا عيب فيه . وقيل لأنوشروان هل من أحد
لا عيب فيه قال : من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا

ينيله ما أحب وكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه في القضاء ومياسرة اخوانه في الصفح والاغضاء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض » . وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وفلة الملأل . وقال ابن الرومي :

فعدرك مبسوط لذنب مفدّم وودّك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغني عنك أدنى أقمّها لدى مقام الكاشع المتكذب
ولست بتقليب اللسان مصارما خيلا اذا ما القاب لم يتقلب
واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل
بقدر الذنب . والهنوات بوعان : صغائر وكبائر . فالصغائر مغفورة
والنفوس بها معذوره لأن الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة
لا يسمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعيب مستقبحا . وقد قال
بعض العلماء : من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعاً ثم حصده
في غير أوانه . وقال أبو العتاهية :

وشر الأخلاء من لم يزل يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء ويريك في السر يرى القلم
وأما الكبراء فنوعان أن يهفوها خاطيا ويذل بها ساهيا فالخرج فيها
مرفوع والعتب عليها موضوع لأن هفوة الخاطيء هدر ولومه هذر .
وقال بعض الحكماء : لا تقطع أخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه .
وقال الأحنف بن قيس : حق الصديق أن تحمل له ثلاثا : ظلم الغضب
وظلم الدالة وظلم الهفوة . وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عربد على
قوم فأراد عمه أن يسىء به فقال ياعم : إني قد أسأت وليس معي عقل
فلا تسئ بي ومعك عقلك . وقال أبو نواس :

لم أؤاخذك إذ جنيت لأئى واثق منك بالاخاء الصحيح
بجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح
فان تشبه خطؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون
ملوما ولا يلوم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل: التثبت نصف العفو .
وقال بعض الحكماء: لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له وقال
بعض شعراء هذيل :

فبعض الأمر تصاحبه ببعض فان الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا وفيما أضمرُوا الفضل المبين
كلون الماء مشتبهها وليست تخبر عن مذاقته العيون

والثانى ان يعتمد ما اجترم من كبائرهِ وبقصد ما اجترح من سيئاته
ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال : فالحال الأولى أن يكون موبورا
قد قابل على وترته وكافأ على مساءته فاللائمة على من وتره عائذة والى
البادئ بها راجعة لأن المكافئ أعذر وان كان الصنف أجمل ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم والمشاراة فانها تبت العزة وتحبي
العُزَّة » . وقال بعض الحكماء : من فعل ما شاء لقي ما لم ينسأ . وقال بعض
الأدباء : من نالته إساءة تك همه مساءتك وقال بعض البلغاء : من أولع
بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا وترت أمراً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
إن العدو وإن أبدى مسالمة إذا رأى منك يوماً فرصة وثبا
والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنباً لأنه قد رأى
عقبى إساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة . وقد قيل : باعترالك الشر
يعترلك وبحسن النصفة يكون المواصلون . وقال بعض الحكماء : من كنت

سببا لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه . وقد قال
أوس بن حجر :

إذا كنت لم تعرض عن الجهل والخطا أصبت حليما أو أصابك جادل
والحال الثانية أن يكون عدوا قد استحسنت شخناؤه واستوعرت
سراؤه واستخسنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء اتهاز فُرْصه
ويتجرع بمهانة العجز مرارة غُصَصه فإذا ظفر بنائبة ساعدها وإذا
شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا أسلم والكف عنه متاركة أغنم
فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكروه . وقد قالت
الحكماء : لا تَعْرِضَنَّ لعدوك في دولته فإذا زالت كفيت شره . وقال ليمان
لابنه : يا بني كذب من قال إن الشر بالشر يطمأ فان كان صادفا فليوقد
نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى وإنما يطفئ الخير الشر
كما يطفئ الماء النار . وقال جعفر بن محمد : كفالك من الله بصرا أن ترى
عدوك يعصى الله فيك . وقال بعض الحكماء : بالسيرة العادلة يقهر المعادي
وقال البحتری :

وأفهم لا أجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا
والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الأصل قد أغراه لؤم
الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبيث الأصل على اتیان الفساد فهو
لا يستقيح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة أظم لأن الاضرار
بها أعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانتقباض ولا خلاص منه
الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح الغنم وكالنار
المتأججة في يابس الخطب لا يقر بها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك .
روى مكحول عن أبي أمامة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال : «الباس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات
شوك إن ناقدهم نأقدوك وإن هربت منهم طلبوك وإن تركتهم

لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال : أقرضهم من عرضك
 ليوم فافتك . وقال عبد الله بن العباس : العاقل الكريم صديق كل أحد
 إلا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل أحد إلا من نفعه وقال : شر ما في
 الكريم أن يمنعك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره . وقال
 بعض البلغاء : أعداؤك دأؤك وفي البعد عنهم شفاؤك . وقال بعض
 البلغاء : شرف الكريم تغافله عن اللئيم . ووصى بعض الحكماء ابنه فقال :
 يا بني إذا سلم الناس منك فلا عليك أن لا تسلم منهم فإنه كلما اجتمعت
 هانان النعمتان . وقال عبد المسيح بن نقيلة :

الخبر والنسر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور
 والحال الرابعة أن يكون صديقا قد استحدث نبوة ونغيرا أو أخا
 قد استنجد جنودا وتكرأ فأبدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه
 وعدل عن بر الاخاء الى جنود الأعداء فهذا قد يعرض في المودات
 المستقيمة كما تعرض الأمراض في الأجسام السليمة فان عولجت
 أقلعت وان أهملت أسقمتم ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء : دواء
 المودة كثرة التعاهد . وقال كشاجم :

أقل ذا الودّ عثرته وقفه على سنن الطريق المستقيمة
 ولا تسرع بمعتبة اليه فقد يهفو ونيته سليمة
 ومن الناس من يرى أن متاركة الاخوان اذا نفروا أصلح واطراحهم
 اذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شخ
 بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد له أجمل .
 وقد قال بعض الحكماء : رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك
 فيمن يرغب فيك صغرة . وقد قال بزرجمهر : من تغير عليك في مودته
 فدعه حيث كان قبل معرفته . وقال نصر بن أحمد :

صل من دنا وتناس من بعدا لا تكرهن على الهوى أحدا

قد أكرث حقاً اذ ولدت فاذا جفا ولد نخذ ولدا
فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف إخاؤه وساءت طرائقه وضائق
خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على
الحنوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق
فلا بالفضل أخذ ولا الى العفو أخلد وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه
فترديه وان جسمه قد يستقم عليه فيؤله ويؤذيه وهما أخص به وأحنى
عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بأدواته فيريد من غيره لنفسه
ما لا يحده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع أن من
لم يحتمل بقى فردا واتقلب الصديق فصار عدواً وعداوة من كان صديقاً
أعظم من عداوة من لم يزل عدواً ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:
«أوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وأن أتعفو عمن
ظلمني وأعطى من حرمي وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكراً ونطقي
ذكراً ونظري عبرة». وقال لقمان لابنه: يا بني لا تترك صديقك الأول
فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ ألف صديق والألف قليل ولا تتخذ
عدواً واحداً والواحد كثير. وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول في العفو
والعقوبة قال: هما بمنزلة الجود والبخل فمنسك بأيهما شئت. وأنشد ثعلب

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد بكفيك في إداره متعلقاً

إذا أنت لم تترك أخاك وزلة إذا زلها أو شكمتا أن نفرزا

فاذا كان الأمر على ما وصفت فمن حقوق الصفع الكشف عن
سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان من لم يعرف الداء لم يقف
على الدواء. كما قد قال المتنبي :

فان الجرح ينغر بعد حين اذا كان البناء على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من أن يكون لملل
أو زلل فان كان لملل فمؤدات الملل ظل الغمام وحلم النيام . وقد قيل

في منشور الحكم : لا تأمنن للمول وإن تحلى بالصلة وعلاجه أن يترك على ملله فيعمل الجفاء كما مل الاخاء . وإن كان لزلل لوحظت أسبابه فان كان لها مدخل في التأويل وشبهة تُؤول الى جميل حمله على أجمل تأويل وصرفه الى أحسن جهة كالذى حكى عن خالد بن صفوان أنه مرّ به صديقان له فعترج عليه أحدهما وطواه الآخر فقل له في ذلك فقال : نعم عترج علينا هذا بفضلله وطوانا ذلك بثقتة بنا . وأنشد بعض أهل الأدب لمحمد بن داود الاصفهاني :

وترعّم للواشين أنى فاسد عليك وأنى لست فيما عهدتني
وما فسدت لى يعلم الله نية عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدى عامدا وأخفتني نخفت ولو آمننتي لأمنتني
وإن لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه
وبان نجمله فالندم توبة وانجمل إنابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب
ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف أو نجمل التعنيف
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم والمعاذير فان أكثرها مفاجر »
وقال على رضى الله عنه : كفى بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة
لرجل اعتذر اليه : لا يدعونك أمر قد تخلصت منه الى الدخول في أمر
اعلك لا تخاص منه . وقال بعض الحكماء : شفيع المذنب إقراره وتوبته
اعتذاره . وقال بعض البلغاء : من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن
لم يحسن الى التائب قبحت إساءته . وقال بعض الحكماء : الكريم من أوسع
المغفرة اذا ضاقت بالذنب المعذرة . وقال بعض الشعراء :

العذر يلحتمه التحريف والكذب وليس في غير ما يرضيك لى أرب
وقد أسأت فبالنعمى التى سلفت إلا مننت بعفو ماله سبب
وإن عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل إنابته فاله مذر توبة
والتنصل إنابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره

فيكون لئيم الظفرسيء المكافأة . وقد قيل : من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته . وقال بعض الحكماء : شافع لمذنب خضوعه الى عذره . وقال بعض الشعراء :

إِقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن برّ عندك فيما قال أو جفرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا
وإن ترك نفسه في زلله ولم يتداركه بعذره وتتصله ولا محاه بتوبته
وإنابته راعيت حاله في المتاركة فستجده لاينفك فيها من أمور ثلاثة
أحدها أن يكون قد كف عن سيي عمله وأقلع عن سالف زلله
فالكف إحدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر
عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك . فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله
عنه : المحسن على المسيء أمير . والثاني أن يكون قد وقف على ما أسلف
من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض أحد البرين وكفه عن
الزيادة إحدى الحسينين وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه
فعول به على صلاح شطره الآخر وإياك وإرجاءه فإن الأرجاء يفسد
شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده فإن من سقم من جسمه
مالم يعالجه سرى السقم الى صحته وإن عالجه سرت الصحة الى سقمه .
والثالث أن يتجاوز مع الأوقات فيزيد فيه على مرور الأيام فهذا هو
الداء العضال فإن امكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك باستزاله
عنه ان علا وبارغابه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء
الكيّ ومن بلغت به الأعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه
باغ مصروع . وقد قيل : من سل سيف البغي أغمده في رأسه فهذا
شرط . وأما المسامحة في الحقوق فلائن الاستيفاء موحش والاستقصاء
منفر ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل
اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر

في الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقرّ حب من يأسرها وسامحها فكان أليق لأُمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء : من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له مودّاتهم . وقال بعض الأدباء : اذا أخذت عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت أكديت . والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فأما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجرة مأمون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أجملوا في طاب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها» . وقال صلى الله عليه وسلم : «ألا أدلكم على شيء يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف» . وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصري إزارا بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال إني اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما . ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس في الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذى حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ما كس في درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له في ذلك فقال : ذلك مالى أجود به وهذا عقلى بنحلت به . وهذا إنما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الأدياء ويغابنهم به الأششاء وهكذا كانت حال عبدالله بن جعفر . فأما مما كسة الاستنزال والاستسماح فكلال لأنه مناف للكرم ومباين للروءة . وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين : أحدهما في الأحوال والثانى في الأموال . فأما المسامحة في الأحوال فهي اطراح المنازعة في الرتب وترك المنافسة في التقدّم فان مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد عليها أكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الأخلاق واستعماله لأحسن الآداب أوقع في النفوس

من أفضاله برغائب الأموال ثم هو أزيد في رتبته وأبلغ في تقدمه وإن شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق واستعماله لأهجن الآداب أنكى في النفوس من حدة السيف وطعن السنان ثم هو أخفض للرتبة وامنع من التقدم . حكى أن قتي من بني هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبي داود فقال : يا بني إن الآداب ميراث الأشراف ولست أرى عندك من سلفك إراثا . وأما المسامحة في الأموال فتتنوع ثلاثة أنواع : مسامحة إسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة إنكار لعسره وهي مع اختلاف أسبابها تفضل مأثور وتألف مشكور وإذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه . وقد تصل المسامحة في الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وأزكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدى لأن السائل كما اجتراً على سؤالك فسيجتري على سؤال غيرك إن رددته وليس كل من صار أسير حقك ورهين دينك يجذباً من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الأجر . وقال محمود الوراق رحمه الله :

المرء بعد الموت أحذوثة يفنى وتبقى مه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة . وأما الافضال فنوعان : إفضال اصطناع وإفضال استكفاف ودفاع فاما إفضال الاصطناع فنوعان : أحدهما ما أسداه جودا في شكور والثاني ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الأشياء والأتباع ومن قلت صنائعه في الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين كانت فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروءة لمترك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم . وقال عمر بن

عبد العزيز ما طاو عنى الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا . وقال بعض الحكماء : أقل ما يجب للنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها الى معصيته . وأنشدت لبعض الأعراب :

من جمع المال ولم يجده وترك المال لعام جده
هان على الناس هواناً كلبه

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى :

يبقى الثناء وتذهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمداً الرجال الا الجواد بماله المفضل
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال
فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم
عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المسعف
وليسعد بها إسعاد المتألف . قال المتنبي :

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وان كان لا يراها وان أجهدا لا تبعا للفضلين قليلة بين المكثرين
فان الناس لا يساؤون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل
ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرويه كالصدى ان ردّ صوتا لم يجد نفعا
كما قال الشاعر :

يجود بالوعد ولكنه يدهن من قارورة فارغه

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به
كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما أقنع . وأما إفضال
الاستكفاف فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه
الجهل باظهار عناده ويبيعه اللؤم على البذاء بسفهه فان غفل عن استكفاف
السفهاء وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضة هدا للثالب وحاله
عرضة للنواب واذا استكف السفية واستدفع البذى صان عرضة وحمى

نعمته . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة » وقالت عائشة رضي الله عنها : ذبوا بأموالكم عن أحسابكم . وامتدح رجل الزهري فأعطاه قميصه فقال له رجل : أعطى على كلام الشيطان فقال : من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أراد بر الوالدين فليعط الشعراء » وهذا صحيح لأن الشعر سائر يستربه ما ضمن من مدح أو هجاء ومن أجل ذلك قيل : لا تواخ شاعرا فإنه يمدحك بئس ويهجوك بمجانا . ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان : أحدهما أن يخفيه حتى لا تنتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلوا الى اجتذابه بسبه والى ماله بثلبه . والثاني أن يتطلب له في المجاملة وجهها ويجمع في الافضال عليه سببا لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البذاء . واعلم انك ما حببت لملاحظ المحاسن مخفوض المساوى ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامي عنك شقيق فكأن أحسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا وأجرك عند الله مدخورا . فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اغنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك » فهذا ما اقضاه هذا الفصل من شروط المروءة وإن كان كل كاتبنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

(الفصل الثامن في آداب منشورة) اعلم ان الآداب مع اختلافها تنتقل الأحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وإنما يذكر كل إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان الأول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وإنما حظ الأخير أن يتعانى حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان

موافقا وينفى ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره فى استنباط زيادة واستخراج
فائدة فان أسعف بشىء فاز بدركه وحظى بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله
بما كان مألوفاً من كلام الوقت وعرف أهله فان لأهل كل وقت فى الكلام
عادة تؤلف وعبرة تعرف ليكون أوقع فى النفوس وأسبق الى الأفهام
ثم يرتب ذلك على أوائله ومقدماته ويثبت على أصوله وقواعده حسب
ما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هى أوضح مسلكا
وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هى حظ الأخير فيما يعانى وكذلك
القول فى كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به
الاول غناء ضائعا وتكلفا مستهجننا ونرجو الله أن يمدنا بالتوفيق لتأدية
هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم
التكليف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخطأ
معدورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف
وإن اساء فقد استقذف وقد مضت أبواب تضمنت فصولا رأيت
اتباعها بما لا أحب الاخلال به . فمن ذلك حال الانسان فى ما كله
ومشربه فان الداعى الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة . فأما
الحاجة فتدعو الى ماسد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا
وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع
بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لأنه يضعف الجسد ويميت
النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل
وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لأن
ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا
لأنه ليس فى ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وإتيان القرب ومن
أخسر نفسه ربحا موفورا او حرمها أجرا مذخورا كان زهده فى الخير
أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه

وسمعتَه . وأما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة في الاكثار والزيادة
 وشهوة في تناول الألوان اللذيذة فأما النوع الأول وهو شهوة الزيادة
 على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل
 والشرع لأن تناول ما زاد على الكفاية نهمٌ معزّ وشَرٌّ مضرّ . وقد روى
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إياكم والبِطْنَةُ فإنها مفسدة للدين
 مورثة للسقم مكسلة عن العبادة» وقال على رضى الله عنه ان كنت بَطْنًا
 فعَدّ نفسك زِمْنًا . وقال بعض البلغاء أقلل طعاما تجده مناما . وقال بعض
 الأدباء الرغب لؤم والنهم شؤم . وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقديّة
 الغذاء . وقال بعض الشعراء :

فكم من لقمة منعت أحاها بلدة ساعة أكلات دهر
 وكم من طالب يسعى لأمر وفيه هلاكه لو كان يرى
 وقال آخر

كم دخلت أكلة حشا شره فأخرجت روحه من الجسد
 لا بارك الله في الطعام اذا كان هلاك النفوس في المعد
 ورب أكلة هاضت الآكل وحرمته ما كل . روى أبو يزيد المدني
 عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١)
 إن الله لم يخلق وعاء ملى شرا من بطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا
 للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح . وأما النوع الثانى وهو شهوة الأشياء
 اللذيذة ومنازعة النفوس الى طلب الأنواع الشبيهة فمذهب الناس فى تمكين
 النفس منها مختلفة فمنهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها

(١) لفظ الحديث المشهور ماملاً آدمى وعاء شرا من بطنه بحسب ابن آدم أكلات
 يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه رواه أحمد وابن ماجه
 والترمذى عن المقدم بن معد يكرب قال الحاكم صحيح وانظر المناوى على الجامع
 كتبه مصححه

عن اتباع شهواتها أخرى ليزل له قيادها ويهون عليه عنادها لأن تمكينها وما تهوى بطر يطغى وأشر يردى لأن شهواتها غير متناهية فاذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان أسير شهوات لا تنقضى وعبد هوى لا ينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل . وأنشدت لأبي الفتح البستي :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وللحذر من هذه الحال ما حكى أن ابا حزم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتتها فيقول موعذك الجنة . وقال آخر تمكين النفس من لذاتها أولى وإعطاؤها ما شتهت من المباحات أخرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتتحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجهور ولا تقصر عن درك ولا تعصى في نهضة ولا تكل عن استعانة . وقال آخرون بل توسط الأمرين أولى لأن في اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كنف لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمري أشبه المذاهب بالسلام لأن التوسط في الأمور أحمد . واذ قد مضى الكلام في المأكول والمشروب فينبغي أن يتبع بذكر الملبوس

اعلم أن الحاجة وان كانت في المأكول والمشروب أدعى فهى الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الأذى وستر العورة وحصول الزينة . قال الله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير » فمعنى قوله أنزلنا عليكم لباسا أى خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سوآتكم أى يستر عوراتكم وسميت العورة سوءا لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه أربعة تأويلات : أحدها أنه

المال وهو قول مجاهد . والثاني أنه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهنى . والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد . وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات . أحدها أن لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدى . والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما . والثالث أنه السميت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه . والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير . والخامس انه الحياء وهذا قول معبد الجهنى . والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد . وقوله ذلك خير فيه تأويلان . أحدهما أن ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سواكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أى ذلك الذى ذكرته خير كله . والثاني أن ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدى فلما وصف الله تعالى حال اللباس وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة اليه . وإذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء : أحدها دفع الأذى . والثاني ستر العورة . والثالث الجمال والزينة . فأما دفع الأذى به فواجب بالعقل لأن العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحار وسراويل تقيكم بأسكم » فأخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالأكنان جمع كن وهو الموضع الذى يستكن فيه ويعنى بقوله سراويل تقيكم الحار ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسراويل تقيكم بأسكم الدروع التى تقي البأس وهو الحرب . فان قيل كيف قال تقيكم الحار ولم يذكر البرد وقال جعل لكم

من الجبال أكلنا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حردون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء . والجواب الثانى أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر إذ كان معلوما أن السراويل التى تقي الحر أيضا تقي البرد ومن اتخذ من الجبال أكلنا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور . وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما فى ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلتا من الشجرة التى نهيا عنها بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبها بعقولهما لستر ما رأيا مستقبحا من سواتهما لأنهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما ولا كلفا بعد أن بدت لهما وقبل سترها . وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وإنما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا . وقد كانت قریش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الألباب يطوفون بالبيت عراة ويحترمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك أبلغ فى القربة وإنما القرب ما استحسنت فى العقل حتى أنزل الله تعالى « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » يعنى بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عورتكم وكوا واشربوا ما حرمتموه على أنفسكم من اللحم والودك . وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان : أحدهما لا تسرفوا فى التحريم وهذا قول السدى . والثانى لا تأكلوا حراما فانه إسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على أن سترها وجب بالشرع دون

العقل . وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير أن يوجبه عقل أو شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير . والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين : أحدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه وقيمته . فأما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لأهل المشرق زيا مألوفاً ولأهل المغرب زيا مألوفاً وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الأجناس فان للأجناس زيا مألوفاً وللتجار زيا مألوفاً وكذلك لمن سواهما من الأجناس المختلفة عادات في اللباس وإنما اختلفت عادات الناس في اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل أحد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقاً وحقاً ولذلك قيل العري الفادح خير من الزى الفاضح . وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين أحدهما بالمكينة من اليسار والاعسار فان للموسر في الزى قدراً وللمعسر دونه والثاني بالمتزلة والحال فان لدى المتزلة الرفيعة في الزى قدراً وللمخفوض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحاً وبخلاً وإن عدل الرفيع الى زى الدنى كان مهانة وذلاً وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيراً وسرفاً وان عدل الدنى الى زى الرفيع كان جهلاً وحقاً ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة . وقال بعض الحكماء البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء :

إن العيون رمتك إذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباس
أما الطعام فكل لنفسك ماتشاً واجعل لباسك ما اشتراه الناس

واعلم أن المروءة أن يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهممة الى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعمرى عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الأكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفى عليه أنه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكركه وأبعث على ذمه فكان كما قال المتنبي :

لأيعجبن مضيا حسنُ بزيته وهل يروق دفيناً جودة الكفن
وحكى المبرد أن رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه واذا ضاق لبس أحسنها فقليل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجوود واذا ضقت فبالحيثة . وقد أتى ابن الرومى بأبلغ من هذا المعنى في شعره فقال :

وما الحلى الا زينة لتقيصة يتم من حسن اذا الحس قصر
فأما اذا كان الجمال موفرا كحسنك لم يحتاج الى أن يزورا
ولذلك قالت الحكماء : ليست العزة في حسن البزة . وقال بعض الشعراء :
وترى سفينة القوم يدنس عرضها سفها ويمسح نعلها وشرا كها
واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده أنفوس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل في مشور الحكم : اللبس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك . وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية : أراك لا تبالي ما لبست فقال : ألبس ثوبا أتى به نفسى أحب الى من ثوب أقيه بنفسى . فكما أنه لا يكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن عائشة أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال : ما مالك ؟ قال : من كل المال قد أتانى الله فقال : إن الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ

نعمة أن ينظر الى أثرها عليه . وقد قيل : المروءة الظاهره في الثياب الطاهره . وهكذا القول في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيا ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سببا لمقتته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الأخلاق ويأخذهم بأحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر :

سهل الفناء اذا مررت ببابه طلق اليدين مؤدب الخدام
وليكن في تفقد أحوالهم على ما يحفظ تجلده ويصون مبتذله . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آدهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى ممالئكم فانه أكبت لعدوكم » وليتوسط فيهم ما بين حالة اللين والحشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم . حكى أن الموبذ سمع ضحك الخدام في مجلس أنوشروان فقال : أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال أنوشروان : انما بهم يهابنا أعداؤنا . وقال أبو تمام الطائي :

حشم الصديق عيونهم بحاجة لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلمانه فهم خلائفه على أخلاقه
واعلم أن للنفس حالتين حالة استراحة ان حمتها اياها كلت وحالة تصرف ان أرحتها فيها تخلت فالأولى بالانسان تقدير حاله حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقظته فان لها قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نومة الصُّبْحَةِ معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة للحاجة » . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : النوم ثلاثة نوم خرق وهى الصُّبْحَةُ ونوم خلق وهى القائلة ونوم حق وهو العشي . وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نوم الضحى خرق والليلولة خلق ونوم العشى

حق « . وقيل في منشور الحكم من لزوم الرقاد عدم المراد . فاذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها . وحكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائماً فقال يا أبت أتنام والناس بالبواب فقال يا بني نفسي مطيتي وأكره أن أتعابها فلا تقوم بي . وينبغي أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فإن حاجة الإنسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به إن تجاوز الى ما ليس بهمهم هل يكون الا

كثارة بيضها بالعرء وملبسة بيض أخرى جناحا

ثم عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن الليل أخطر للخطر وأجمع للفكر فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكره وضاهاه وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل فإنه إذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال : إما أن يكون قد أصاب فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة وينتبه به استدراك الخطأ وقد قيل من كثرا عتباره قل عثاره . وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلق الخاطر من حسن الظن فإن ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فإن السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها . وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « السعيد من وعظ بغيره » . وقال الشاعر :

إن السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر
 وأنشدني بعض أهل العلم لطاهر بن الحسين
 إذا أعجبتك خصال امرئ فكنه يكن منك ما يعجبك
 فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك
 فأما ما يرويه من أعماله ويؤثر الأقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم
 الفكر فيه قبل دخوله فإن كان الرجاء فيه أغلب من الإياس منه وحمدت
 العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدر شرفه يكون
 الأقدام وإن كان الإياس أغلب عليه من الرجاء مع شدة التغير ونداء
 الأمر المطلوب فليحذر أن يكون له متعرضا . فقد روى عن النبي
 صلى الله عليه وسلم انه قال « إذا هممت بأمر ففكر في عاقبته فإن كان
 رشدا فامضه وإن كان غيا فانتبه عنه » . وقالت الحكماء طلب
 ما لا يدرك عجز . وقال بعض الشعراء :

فاياك والأمر الذي ان توسعت موارد ضاقت عليك المصادر
 فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر
 وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من اوقات
 دهره عملا فان تخلق في كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة
 والبطر استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل واحقر وكان كالمثل
 المضروب بقول الشاعر :

وكل بازيمسه هرم تخرا على رأسه العصافير
 فكن أيها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لأهل
 دهرك جاريا على عادة عصرك متقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا
 على من قدمك الناس عليه ولاتبائهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم
 بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا يعيش لمقوت ولاراحة لمعادي . وأنشد
 بعض أهل الأدب لبعضهم :

إذا اجتمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد
 فقد دل إجماعهم دونه على عقله أنه فاسد
 واجعل نصيح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك وإظهار
 عذرك فيصير عدوك أحظى منك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك
 من نفسك التي هي أخص بك لا غرائك لها بأعذارك ومساءتك فحسبك
 سوءا رجل ينفع عدوه ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء أصلح نفسك
 لنفسك يكن الناس تبعالك . وقال بعض البلغاء من أصلح نفسه ارغم
 أنف أعاديته ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه . وقال بعض الأدباء من
 عرف معابه فلا يلزم من عابه وأنشدني أبو ثابت النحوي لبعض الشعراء
 ومصرفة عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من أخيه لأبصرا
 ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه لأمسك عن عيب الصديق وقصرا
 فلهذا يها الانسان نفسه بافتكار عيوبه وانفعها كنفعك لعدوك
 فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ . أعاننا الله وإياك
 على القول بالعمل وعلى النصيح بالقبول وحسبنا الله وكفى .

[illegible]

